

روائع الفكر الإنساني

وزارة الثقافة  
المركز القومي للدراسات والبحوث  
دار الكتب والوثائق للطباعة والنشر

# مَقَالٌ عَنِ الْمَنَاجِزِ

تأليف رينيه ديكارت  
ترجمة محمود محمد الخضيرى

الطبعة الثانية

راجعها وقدم لها الدكتور محمد مصطفى حامى



# روائع الفكر الإنساني

---

## مَسَائِلُ عَزْلِ الْمَنَهْجِ

---

تأليف رينيه ديكارت  
ترجمة محمود محمد الخضيري

مراجعة: الدكتور محمد مصطفى صامى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
بالمطبعة

---

الطبعة الثانية

١٩٦٨

# تقديم

بقلم: الدكتور محمد مصطفى حلمي

## ١ الفلسفة القديمة

يحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الانسانية ، بأن كثيرا من الامم القديمة ، سواء في مصر والهند والصين وفارس ، وفي غيرها من الامم ذوات الحضارات في الشرق القديم ، قد كانت لها فلسفاتها التي انطوت عليها دياناتها ، وبأن هذه الفلسفات انما كانت بمثابة المرآة التي تتجلى على صفحاتها المعنوية الفلسفية والروحية والخلقية التي كانت ما تزال بعيدة عن الفلسفة بمعناها الحقيقي ، وهو هذا المعنى الذي يعول في فهمه على العقل أداة ، ويتخذ فيه من النظر العقلي منهجا يعين على كشف الحقيقة ، ومعرفة حقائق الاشياء ، وتفسير الوجود تفسيراً منهجياً يعلل وجودها ، ويحلل علمها ، ويبين طبيعة ما يحيط بها ، ويصدر عنها ، فهذه الفلسفات لم تكن اذن فلسفات بالمعنى الفلسفي الدقيق ، بقدر

ما كانت ألوانا من الحكمة ، وضرويا من المبادئ والقواعد ، مما كان يتصل من قريب أو من بعيد بالدين والعقائد ، ويرمى الى تصفية النفوس من الناحية الروحية ، والى تنقية القلوب من الناحية الخلقية ، أكثر مما يرمى الى ترقية العقول من الناحية النظرية ، واعمال هذه العقول اعمالا منهجيا منظما ، ومؤديا الى نتائج ان لم تكن يقينية كل اليقين ، فلا أقل من أن تكون قريبة من هذا اليقين .

ويحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الانسانية أيضا ، بأن الفلسفة بمعناها الحقيقي ، وبمنهجها الحسى حينا ، والعقل النظرى حينا آخر ، والتجريبى العملى تارة ، والذى يؤلف بين الحس والعقل والتجربة تارة أخرى ، قد نبئت شجرتها فى أرض اليونان ، وما فتئت هذه الشجرة تنعدها العقول والقلوب حتى نمت وأينعت ، وآتت أكلها مناهج وأنظارا عقلية ، وطرقا ووسائل حسية ، وأذواقا ومواجيد روحية ، ثم تفرعت أغصانها النامية ، وامتدت ظلالها الضافية ، وإذا ثمارها ناضجة دانية ، وإذا الانسانية كلها تنعم بهذه الثمار ، وتستظل بتلك الظلال ، فتجد عندها غذاء العقل ، ونزهة القلب ، وبهجة الروح ، وهذا يعنى بعبارة أخرى ان فلاسفة اليونان هم الذين مهدوا للانسانية سبيل التفكير الدقيق ، والنظر العميق ، فى الكون ، وفيما يشتمل عليه الكون من ظواهر وأحداث ، وفيما لهذه الظواهر والاحداث من صلة بخالقها ومبدعها وبالانسان الذى يؤثر فيها ويتأثر بها ، وفى ذات الاله ، وذات الانسان ، وفيما هما عليه فى ذاتيهما . فالانسانية من هذه النواحي كلها مدينة لليونان بفلسفتهم النظرية والعملية التى ليس من شك فى أنها كانت نتاجا عقليا خصبيا ، وعملا روحيا جليلا للعبقريّة اليونانية . ذلك بأن فلاسفة اليونان هم أول من فلسف على الحقيقة ، وهم أول من تأمل تأملا فلسفيا فى بحثه عن الحقيقة ،

وهم أول من اصطنع العقل ونظر العقل فى تفسير حقائق الاشياء تفسيراً منهجياً يوغل فيما يظهر ويخفى ، باحثاً عن علل الاشياء بصفة عامة ، وعن العلة الاولى التى تصدر عنها كل العلل ، وترد اليها كل الاشياء بصفة خاصة .

على أن اليونان حين تأملوا الكون ، وفسروا أحداثه وظواهره ، كانوا ينظرون اليه على أنه « كل » قد اتحدت أجزاؤه ، واتسقت عناصره ولعل الذى جعلهم ينظرون الى الكون هذه النظرة الكلية الشاملة ، هو اعتقادهم بأن الكون ليس طائفة من الأحداث ينفصل بعضها عن بعض ، ولا يتصل بعضها ببعض ، ولا يؤثر بعضها فى بعض ، وانما هو فى الواقع كل مؤتلف الابعاض ، قد ساد أجزاؤه النظام والانسجام والاتساق التام ، وعلى هذا النحو ينبغى أن تتكون عن الكون فكرة فى العقل ، أو فى الوجود العقلى ، مضاهية لصورته فى الواقع ، أو فى الوجود العيني ، بحيث لا يكون الكون ، سواء فى صورته الحسية أو فى فكرته العقلية ، الا كلا متنسقا أخص خصائص هذه الوحدة التى لا كثرة فيها ، ولا تفرقة معها .

ولعل من العوامل التى أعانت على نهضة الفكر الفلسفى اليونانى ، هو هذه القدرة التى تهيأت للعقل ، وهيئاته لأن يخلص من القيود المادية ، ومن الاغلال الحسية ، ومن شواغل الحياة العملية ، بحيث أصبحت الفلسفة صناعة فريق من المشتغلين بها ، والمتخصصين فيها ، والمعلمين غيرهم منها ، كما أصبحت لدى فريق آخر أنبل وأشرف استغلال يمكن للانسان الراقى أن يستغل فيه وقت فراغه ، لا سيما أن فى هذا الاستغلال شعوراً بالمتعة الفنية ، وتذوقاً للقيم الجمالية ، وذلك لما يثيره الجمال من لذة فى النفس ، وبهجة فى القلب ، فضلاً عما تؤدى اليه معرفة الحق من راحة العقل ، وما تنتهى اليه معرفة الخير وفعله من رضا الضمير : فقد كان لذلك الشعور بالجمال بصفة خاصة أثره الواضح الجلى فيما

صدر عن الفلاسفة من مذاهب وآراء ، ذلك بأن الحقيقة التي لم تكن تمتاز بالجمال ، ولا تثير في النفس متعة فنية ، إنما كانت عند أولئك الفلاسفة اليونان حقيقة ناقصة خاطئة ، ومن هنا كانت هذه الفكرة التي تصور الكون في صورة منظمة منسجمة لا بد من أن يدركها عقل منظم منسجم هو أيضا . ومن هنا أيضا نشأ هذا المقياس الذي كانت تقاس به المذاهب الفلسفية ، وتتقوم به قيمها ، وهو ما عسى أن تؤديه هذه المذاهب الفلسفية من اشباع حاجة العقل ، ومن ارضاء متعة القلب ، ومن بلوغ الى رضا الضمير . وكثيرا ما يلاحظ على بعض مؤرخي الفلسفة اليونانية ، أنهم كثيرا ما ينسبون الموضوعية الاعتقادية الى هذه الفلسفة اليونانية . وهذه الموضوعية الاعتقادية هي التي تجعل من نشاط العقل شيئا يعول على وجود ما يدركه هذا العقل . ويقول أصحاب هذه الموضوعية العقلية الناهبون مذهبها ، ان الوجود العقلي هو مبدأ التعقل ، كما أن الوجود الحسي هو مبدأ الاحساس . على أن هذا ، وان كان صحيحا ، الا أن هناك الى جانب هذه الموضوعية الاعتقادية ، ذاتية اعتقادية من شأنها أن تتخذ من رضا النفس واطمئنانها الى الشيء الذي تدرك ، دليلا على وجود هذا الشيء . ولعل ايشار فلاسفة اليونان لهذه الذاتية الاعتقادية ، وتأثرهم بها ، كانا أشد وأقوى من ايثارهم للموضوعية الاعتقادية ، وتأثرهم بها : فمهما حاول فلاسفة اليونان من محاولات ، ومهما كان لمحاولاتهم من نتائج وثمرات ، وذلك في تغليب الموضوعية على الذاتية أحيانا ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يحددوا بالدقة الوسائل التي يمكن أن يعتمد عليها العقل ليخلص من ذاتيته ، ويخرج عن نفسه ، وينسلخ من دائرته ، الى حيث يخلص الى موضوعه ، ويستقبل بحثه لهذا الموضوع بحثا مستقلا عن نفسه ، لا يتأثر فيه بشيء مما يعمل عمله في نفسه ، وآية هذا كله أنهم وإن كانوا قد أدوا للإنسانية أجل الخدمات ،



وقدموا اليها أروع وأمتع الثمرات ، وفتحوا أمامها كثيرا من الآفاق العلمية والفلسفية ، منهجية كانت هذه الآفاق أو مذهبية ، ونظرية كانت أو عملية ، لا سيما فيما أقبلوا عليه ، وعرضوا له ، من طبيعيات ورياضيات وميتافيزيقيات ، ومن أخلاقيات واجتماعيات وسياسيات ، الا أنهم مع هذا كله لم يتنهيا لهم أن يبلغوا بالعلوم التجريبية ما كانت خليقة أن تبلغ من حد الرقى والتقدم والكمال ، ولعل كل ما كانوا يعلمون عن هذه العلوم التجريبية ، هو أنهم كانوا يعرفون قيمة التجربة من الوجهة النظرية ، دون أن يعرفوا كيفية اجراء التجارب ، ولعل هذا لم يكن ناشئا لديهم من أنهم كانت تعوزهم الآلات التي تصطنع في اجراء التجارب فحسب ، وانما هو راجع أيضا الى أنه لم تكن لديهم فكرة ما عن الآلات التي تستخدم في دراسة المادة ، يضاف الى هذا أنهم كانوا يسرفون في الايمان بالتوافق المباشر ، أو الملاءمة المباشرة ، بين العقل والاشياء التي يدركها هذا العقل .

على أن هذا كله لا يعنى على وجه الاطلاق أن فلسفة القدماء كانت كلها خلوا من روح النقد الذى يعتمد على التحقيق ، والتحليل الذى يستند الى التدقيق ، وانما نحن نلاحظ أن فلسفة القدماء قد طبعت فى بعض أطوارها بطابع لم تكن تؤمن معه بكل شيء ، ولا تستيقن فيه من كل شيء ، ولا تطمئن الى كل شيء ، بل كانت فى بعض هذا الطور أو ذاك تنقد قبل أن تقرر ، وتزن قبل أن تؤمن ، وتشك قبل أن تستيقن ، وكل أولئك عناصر يتألف منها روح النقد ، ومنهج البحث ، كما أنها أنوار يستضاء بها فى سبيل كشف الحقيقة ، سواء فى الفلسفة النظرية ، أو فى العلوم التجريبية .

فأنت ترى اذن أن الفلسفة اليونانية قد اتخذت لنفسها ، فى وقت ما ، أو فى أوقات متفاوتة من أطوار حياتها ، مقياسا تقيس

به وجود الاشياء ، ومحكما تعرف به حقيقة هذا الوجود ، وأنت ترى أيضا أن هذا المحك وذلك المقياس ، يتركز أحدهما أو كلاهما ، على أن وجود الاشياء ، وحقيقة وجود هذه الاشياء ، انما يقاس كل منهما بنسبة الكمال الذى يوجد فى أحدهما ، كما هو فى الآخر ، وذلك على الوجه الذى يدرك عليه هذا الكمال ، عقل منظم قادر على التنظيم ، حتى ان الفلسفة اليونانية حينئذ قد اتخذت من هذا الكمال دلالة جوهرية على الوجود ، أو علة خفية لهذا الوجود ، وأنت ترى بعد هذا كله أن أظهر ما ظهر روح النقد فى الفلسفة اليونانية ، فانما كان ذلك عندما انتهت هذه الفلسفة الى الشك ، فاذا أصحابها يرون أن نسبية المعرفة ، وإضافية الحقائق ، من شأن كل منهما أن تجعل العقل مرتابا فى قيمة ما يدرك ، وإذا هم يفرقون فى هذا الشك حتى لا يكادون يستيقنون من الوجود الموضوعى لأى شئ • وليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا شكاكًا كذلك ، ينكرون الحقائق العقلية ، ويزورون عن العالم العقلى ، ولا يعترفون الا بالحقائق الحسية ، ولا يشبتون الا العالم الحسى ، بل ان منهم من كان يرى أن الانسان هو مقياس الاشياء ، فما يراه حقا فهو حق ، وما يراه باطلا فهو باطل ، وما لا يدركه الحس فهو غير موجود ، أو بعبارة أخرى من عبارات ابن سينا ، « أن مالا يناله الحس بجوهره ، ففرض وجوده محال » •

على أننا نرى من ناحية أخرى أنه اذا كان ثمة فريق من فلاسفة اليونان ، قد ميز بين ما هو روحى وما هو مادى ، فان هذا الفريق لم يكن يعنى البتة أن كلا من المادى والروحى انما هو جوهر مستقل فى ماهيته ووجوده عن الآخر : فعند أفلاطون مثلا ترى أن الاثنيتية بين العالم الحسى والعالم العقلى لم تذهب بهذا الفيلسوف مذهبها يجعله ينكر معه العالم الحسى انكارا تاما ، أو لا يعترف معه بالصلة بين هذين العالمين •

وعلى هذا النسحو كان الشأن فيما يتصل بالحياة الخلقية العملية ، فردية كانت هذه الحياة أو اجتماعية : فالعقل حين يقوم بتسيير سلوكنا وتوجيهه الى الوجهة المثلى ، فهو انما يأخذ نفسه بترتيب الميول الطبيعية وتنظيمها ، أكثر مما يعمل على كبح جماحها ، والتصدى لها ، بحيث يكون العقل فى حياة الفرد والجماعة هو الذى يروى ويفكر من ناحية ، وهو الذى يرتب ويدبر من ناحية أخرى ، وهو الذى يرى بعد هذا وذاك أن فى الدولة ، وفى التقاليد ، وفى المبادئ التى تسييرها ، وفى القوانين التى تحكمها ، تكمن قوة الدولة ، ويتركز المصدر الأعلى الذى تصدر عنه كل الحقوق والواجبات ، أى كل ما للانسان وما عليه ، سواء فيما يتعلق بنفسه من حيث هو فرد ، أو فيما يتعلق بنفوس أشباهه ممن يحيا معهم ، ويتصل بهم ، ويعطيهم ويأخذ منهم . وإذا كانت سلطة القانون المدنى قد تزعزعت الى حد ما عند بعض مفكرى اليونان ، فان هذا لا يعنى دائما أن هذا الفريق من المفكرين كان منظويا على سخط خفى من شأنه أن يجعل الاخلال بالنظام أمرا مشروعا ، وانما الدولة هى الدولة دائما ، وهى هى مصدر السلطات أبدا ، وهى المدبرة لكل شئون الحياة الفردية والاجتماعية ، والقيمة على الشعائر الدينية .

تلك هى الفلسفة اليونانية فى أعم صورها ، وأخص خصائصها ، وفى أشمل مذاهبها ومناهجها ، وأجمل وأروع أنظارتها ونتائجها ، لا بد من أن نعترف معها بما كان لأصحابها فيها من فضل ، لم يكن مقصورا عليهم وحدهم ، بل تجاوزهم الى غيرهم فى الأجيال التى تعاقبت بعدهم ، وحسبهم أنهم هم الذين وضعوا الحجر الاساسى فى صرح الفكر المنهجى العلمى والفلسفى . ولقد انقضى عصر هذه الفلسفة اليونانية بما خلف فيه قادة الفكر من تراث غنى خصب كان للانسانية بمثابة المصباح الذى استضاءت به فيما

تلى العصور القديمة من عصور وسطى وعصور حديثة ، وما فتئت تستضيء به العقول المفكرة ، والقلوب الشاعرة ، فى تاريخنا المعاصر حتى وقتنا الحاضر .

## ٢ فلسفة العصور الوسطى

انقضى عصر الفلسفة اليونانية ، وجاءت العصور الوسطى ، وإذا الناس قد خضعوا لظروف أخرى من ظروف الحياة ، وإذا هم قد آمنوا بغير ما كان يؤمن به اليونان من عقائد وأديان ، فأمن بعضهم بالاسلام ، وآمن بعضهم الآخر بالمسيحية ، ووجد أولئك وهؤلاء الى جانب كتبهم السماوية وعقائدهم الدينية ، فلسفة نظرية وعملية ، خصبة وغنية ، هي تلك التى خلفها اليونان ، وإذا الناس فى تلك العصور الوسطى يرون أنفسهم بين أمرين يتنازعان عقولهم وميولهم وعواطفهم : هم بين هذه الكتب السماوية والعقائد الدينية يؤمنون بها ، ويطمئنون اليها ، ويجدون فيها المثل الأعلى لتمثل الكون وتصوره ، ولتصوير هذا الكون وتفسيره من ناحية ، وبين تلك الكتب الفلسفية ، والمذاهب العقلية ، والقواعد المنطقية ، والأنظار الميتافيزيقية ، والنظريات العلمية والمبادئ الخلقية التى تركها اليونان من ناحية أخرى ، وبعبارة أوجز يمكن أن يقال ان الناس كانوا وقتئذ بين عاملين : عامل الايمان ، وعامل العقل .

وليس من شك فى أن فيما خلفه اليونان من ذلك التراث الخصب الفنى ، فلسفة رائعة فتانة مغرية ، فيها ما يغرى الناس بها ، وما يحبههم فيها ، وفيها أيضا ما ينقض الدين ، ويناقض

الايمان ، ويزعزع العقيدة ، ومن ثم فما كان أخرى برجال الدين وقادة الفكر من أهل العصور الوسطى أن يضيفوا بالفلسفة ، وينفروا منها ، ويزوروا عنها . ومع ذلك فقد استطاع فريق من هؤلاء القادة وأولئك الرجال أن يلتبس أوجها للتوفيق بين عقائد الاسلام والمسيحية ، وبين أنظار الفلسفة اليونانية ومناهجها . ومن هنا كان المجهود الذى تركزت فيه قوة الفكر الانسانى ابان العصور الوسطى ، موجهة الى محاولة التوفيق بين العقل والايمان من ناحية ، والى اخضاع العقل للايمان من ناحية أخرى .

على أن تلك الحركة الفكرية التى كان قوامها التوفيق بين الفلسفة والدين ، واخضاع الفلسفة للدين ، وذلك عن طريق استغلال الفلسفة اليونانية استغلالا يلائم عقائد الاسلام والمسيحية، لم تمض دون أن يصيب الفلسفة شئ غير قليل من الأذى والاضطهاد : فقد أودى بعض فلاسفة المسلمين ، كما اضطهد بعض فلاسفة المسيحيين ، وأكبر الظن أن ايداء أولئك ، واضطهاد هؤلاء لم يكن مصدرهما الا هذا الجهل وضيق الأفق والتعصب والتعسف، مما سيطر على بعض العقول فلم يفتح أمامها الطريق الى فهم الفلسفة والدين فهما صحيحا مستقيما ، فضلا عن المنافع والمطامع والضغائن والأهواء التى تهيم على بعض النفوس والعقول والضمائر فتفسدها ، وتجعل منها أشياء تضر ولا تنفع ، ولا تشفع لأصحابها ولا ترفع .

وها هنا ملاحظة لا بد منها ، وهى أن ايداء الفلاسفة واضطهادهم لم يكونا من الظواهر التى ظهرت فى العصور الوسطى دون العصور السابقة عليها : ذلك بأنه كما اضطهد ابن رشد فى ظل الاسلام ، وكما اضطهد غير ابن رشد فى ظل المسيحية ، فقد اضطهد من قبل كل من سقراط حتى حكم عليه بالاعدام ، وأرسطو طاليس حتى اضطرد الى الهرب ، وذلك فى ظل الوثنية . وها هنا

مرة أخرى ملاحظة أخرى وهى أن الفلسفة فى الوقت الذى توفى فيه الى اقامة مذاهبها على دعائم قوية ، والى اشاعة مبادئها فى عقول الاغلبية حيناً ، والأقلية حيناً آخر ، وفى الوقت الذى تلقى فيه قبولاً لها ، واقبالاً عليها ، لدى هذه العقول أو تلك ، تراها قد صادفت نفوساً رقيقة ، وقلوباً مغلقة ، وعقولاً جامدة ، كما ترى أن أصحاب هذه النفوس والقلوب والعقول التى كانت كذلك لم يتح لهم هذا الحظ من الفكر الحر ، والبحث المستقل ، والنظر البعيد عن مزالق الهوى ومواطن الشطط ، مما يهيىء لهم سبيل فهم الفلسفة على الوجه الذى ينبغى أن يفهموها عليه .

ومهما يكن من شىء ، فقد وفقت الفلسفة المدرسية فى هذا التوفيق الذى حاولت بين الفلسفة والدين ، وذلك حين أقبلت على دراسة أرسطو طاليس ، فإذا هى تجد عنده ما يرضى رغبتها ، ويشبع حاجتها : ففي مذهب المعلم الاول أصابت الفلسفة المدرسية حقاً كبيراً من الفلسفة الطبيعية للنفس الانسانية ، ومنه استمدت أصدق تصوير ، وأكمل تعبير عن هذا العقل العام الذى أخذت نفسها بالتوفيق بينه وبين العقائد الدينية . ومع ذلك فنحن مضطرون الى أن نلاحظ أن بين عقائد الدين وبين مذهب أرسطو طاليس خلافاً قوياً ، واذن فمن الغريب أن يعول المدرسيون هنا على مذهب لا يتفق وعقائدهم اتفاقاً تاماً ، ولكنهم كانوا من البراعة بحيث استطاعوا أن يفهموا مذهب أرسطو طاليس ، وأن يسيغوه ، وأن يصطنعوه ، ويستغلوه ، على الوجه الذى أرادوا به الى التوفيق بين الدين والفلسفة .

على أن فلسفة العصور الوسطى تختلف عن الفلسفة اليونانية من حيث طبيعة المبادئ التى أقيمت عليها ، ومن حيث حقيقة الأفكار التى دعت اليها ، فضلاً عن نوع الظروف التى أحاطت بها : فالمسيحية مثلاً من حيث هى وحى دينى خالص لا أثر للجمال الفنى

فيه ، تشتمل على كل الأصول والمبادئ والحقائق التي تكفل للانسان السعادة والسلام . وها هي ذى بعض المذاهب الفلسفية للمدرسين تنطق بحقارة الطبيعة ازاء العظمة الالهية ، وبخضوع العقل للدوحى ، وباذعان الفكر لحرر لسلطة الدين ، وكل أولئك مذاهب ألفتها واحتضنتها وغذتها فلسفة العصور الوسطى ، ثم قبلتها واعتنقتها وآمنت بها ، وتعصبت لها ، تعصبها للمسيحية وإيمانها بها ، وينبغي ألا يفهم من هذا أن هذه الفلسفة المسيحية كانت كلها فلسفة جامدة لا أثر فيها للفكر الحر : فلقد كان الى جانب هذه المذاهب التي أخضعت العقل للدين ، مذاهب أخرى قوامها فكر حر ، وفلسفة خالصة أو كالحالصة من قيود الدين ، غرضها التوفيق بينها وبين هذا الدين ، أكثر مما كانت تقصد الى إخضاع الفلسفة للدين . وفضلا عن هذا فقد كان هناك بعض المسائل الفلسفية البحتة التي درست دراسة فلسفية خالصة ظهر فيها الاستقلال عن الدين الى حد بعيد . ومهما يكن من أمر هذا الاستقلال فان الطابع الذى طبعت به فلسفة العصور الوسطى بصفة عامة ، والفلسفة المدرسية بصفة خاصة ، كان طابعا دينيا ، ان دل على شيء فانما يدل على أن قيادة الفكر الفلسفى كانت للدين أكثر مما كانت للعقل .

### ٣ الفلسفة الحديثة

لم يكد القرنان الخامس عشر والسادس عشر للميلاد يظلان الناس فى أوروبا ، حتى كان الدين قد أسلم قيادة العقل الى العقل نفسه . وما هى الا أن استكشفت الكتب الفلسفية والعلمية والأدبية

ليونان والرومان ، كما استكشفت غيرها من الكتب التشريعية والسياسية والفنية ، لهاتين الأمتين الخالدتين ، والا أن عكف الناس على كل هذه الآثار ، فأوسعوها نقلا وشرحا وتحليلا ، وتعليقا وتفسيرا وتأويلا ، والا أن قرءوها وفهموها ، وأسأغوها وهضموها ، وطبعوها وأذاعوها ، حتى انتشرت فيهم ، وشاعت بينهم ، وآتت ثمارها فيهم . وإذا كان ذلك كذلك ، فقد نهضت الفلسفة ، وتقدمت العلوم ، وازدهرت الفنون ، وأشرقت الآداب ، وكان لابد لهذا كله من أن يعمل عمله ، ويؤتي أكله ، في الفكر الانساني بصفة عامة ، وفي الفكر الفلسفي بصفة خاصة ، كما كان هذا كله قواما لحركة الاحياء التي قامت بها النهضة الأوروبية في العصور الحديثة ، وذلك بما قصدت اليه من احياء القديم ، واخراجة للناس في صور شائعة جذابة كان لها خطرهما العظيم وأثرها البعيد فيما وصلت اليه الفلسفة وغير الفلسفة من نهوض وتقدم وازدهار واشراق ابان هذه العصور الحديثة .

وقد ترتب على هذا كله أن تطورت الحياة الفكرية ، وأن تغير معها وجه كل شيء ، وأن أصبحت الظروف الاجتماعية ، والأحوال الخاصة لحياة الفرد والجماعة في العصور الحديثة غير ما كانت في العصور الوسطى ، وفي العصور القديمة ، وأن استغلت النهضة الأوروبية هذا التراث الخالد الذي خلفه اليونان والرومان استغلالا خصباً منتجاً في حياة الفكر الأوروبي ، حتى اذا جاء القرن السابع عشر للميلاد كان كل شيء مما تركه اليونان والرومان قد درس وحلل ، وشرح وأول ، وطبع ونشر ، وحتى كانت فلسفة اليونان قد أذيعت بين الناس ، ففهموها وذهبوا في فهمها مذاهب شتى ، فمنهم من ذاد عنها وتعصب لها ، ومنهم من ازور عنها وتعصب عليها ، واذن فقد أثرت وأثمرت فلسفة القدماء في فلسفة المحدثين أثراً قويا ، وثمرات شها ، بحيث يمكن أن يقال ان الفلسفة الحديثة على ما فيها من جدة وطرافة وابتكار ، انما كانت على وجه ما ، والى



حد ما ، ثمرة يانعة رائعة من الثمرات اليانعة الرائعة الكثيرة التي أنتجتها وخلفتها ، أو غذتها ونمتها ، الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى .

على أن الفلسفة الحديثة قد انتهجت لنفسها منهجا جديدا في البحث عن حقيقة الكون وقيمة الكائنات ، ولكنها على الرغم من التجديد في هذا المنهج ، وعلى الرغم من النتائج القيمة التي وفقت إليها أكثر مما وفقت الفلسفة القديمة ، فانها لم تكن قد خلصت خلاصا تاما من تأثير القديم الذي تبنت عناصره في تضاعيف المناهج والمذاهب الحديثة . ومع ذلك فليس من الحق ، ولا من الانصاف ، أن نغلو كثيرا ، في تقديم أثر القديم من المناهج والمذاهب الفلسفية ، في الحديث عن هذه المذاهب وتلك المناهج : فمما لا شك فيه أن قد اتسع نطاق المسائل الفلسفية في العصر الحديث عما كان عليه في العصر القديم . ومما لا شك فيه أيضا أن قد تنوعت هدد المسائل تنوعا مدهشا ، بحيث ترى أن الفلسفة قد اندست في كل شيء ، وسيطرت على كل شيء ، وتقدمت لحل المعضلات في كل فرع من فروع المعرفة الانسانية : فهي التي توجه العلم ، وتمده بالمنهج القديم الذي يعينه على كشف الحقيقة ، وهي التي توجه السياسة وتمدها بقواعد الحكم وأصوله ، وبأنواع الدولة ، وبأى هذه الأنواع يجب أن تأخذ الحكومات ، وهي التي تفسر الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية تفسيرا يكشف عن حقيقة النفس الانسانية وطبيعة الملكات النفسية على أنحاء مختلفة من البحث ، ومناهج متفاوتة في طرق الدرس والتحليل والتعليل ، والفلسفة بعد هذا كله قد أثرت في الأدب ، وفي مدارس الأدب المختلفة ، وفي مذاهب النقد المتعددة . ومعنى هذا كله أن العصر الحديث في كل مجالاته ومقوماته ونزعاته هو عصر الفلسفة حقا ، وأن قادة الفكر الانساني في هذا العصر الحديث هم الفلاسفة الذين جلسوا على عرش الفكر ، وأصبح

اليهم أمر هذا الفكر ، بقدر ما أصبح لديهم القرن السابع عشر هو  
العصر الذهبي للفلسفة على الحقيقة .

## ٤ فلسفة ديكارت ومنهجه

لعلنا اذا أردنا أن نبين هنا الفرق بين فلسفة ديكارت وبين  
فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو طاليس ، باعتبار أن هذين يمثلان  
الفلسفة القديمة ، على حين أن ذاك يمثل الفلسفة الحديثة ، وجدنا  
عند ديكارت نفسه ما يغني ، ويكفي لاعطاء صورة حقيقية لما كانت  
عليه الفلسفة قديما ، ولما انتهت اليه حديثا ، وهما هو ذا ديكارت  
يحدثنا عن الفلسفة اليونانية فيقول : « ٠٠٠ وأول وأكبر من وصلت  
الينا مؤلفاتهم هما أفلاطون وأرسطو ، ولم يكن بينهما من فرق  
سوى أن أفلاطون قد سار على آثار أستاذه سقراط ، فاعترف في  
خلوص نية بأنه لم يهتد بعد الى شيء يقيني ، وأنه قد اكتفى بتحرير  
ما بدا له شيئا محتمل الصدق ، وتخيل لهذا الغرض بعض مبادئ  
حاول بواسطتها أن يفسر الأشياء الأخرى . أما أرسطو فكان أقل  
صراحة ، ومع أنه تتلمذ على أفلاطون عشرين سنة ولم يكن لديه  
مبادئ غير مبادئ أستاذه ، فقد غير طريقة عرضها تغييرا تاما ،  
وقدمها على أنها صحيحة ومؤكدة ، ولو أن الأرجح أنها لم تكن قط  
في تقديره كذلك ٠٠٠ والنزاع الكبير الذي نشب بين تلاميذهما  
انما كان مداره أن يتبينوا هل ينبغي أن توضع الأشياء كلها موضع  
الشك ، أم أن هناك أشياء يقينية ، وهو خلاف أفضى بالفريقين الى  
ضلال بعيد : لأن فريقا ممن ذهبوا الى الشك قد وسعوا نطاقه

«وجعلوه يمتد الى أفعال الحياة ، بحيث أنهم أهملوا استعمال الحيلة والتبصر في سلوكهم » . أما من ناصروا مذهب اليقين فقد افترضوا أنه يعتمد على الحواس ، فاطمأنوا اليها كل الاطمئنان ، حتى أنه يقال ان أبيقور بلغت به الجرأة في أقواله أن صرح ، خلافا لجميع استدلالات علماء الفلك ، بأن الشمس ليست أكبر حجما مما تبدو لنا . . . لكن خطأ من ماؤوا كل الميل الى جانب الشك لم يجد من تابعه زمنا طويلا . أما خطأ الفريق الآخر فقد تيسر تصحيحه شيئا ما ، حين تبين أن الحواس تخدعنا في كثير من الأشياء . غير أني لا أحسب أن ذلك الخطأ قد زال زوالا تاما ، لأن أحدا لم يبين أن اليقين ليس في الحواس ، بل في الذهن وحده حين يكون لديه مدركات بديهية ، وأنه حين لا يكون لدينا الا معارف اكتسبناها عن طريق درجات الحكمة الأربع الأولى ، حينذاك لا ينبغي أن نشك في الأشياء التي تبدو لنا حقيقية اذا كانت متصلة بسلوكنا في الحياة ، ولكن لا ينبغي كذلك أن نعدها يقينية يقينا بمتنم معه أن نغير رأينا فيها اذا اضطررنا الى ذلك بداهة من بداهات العقل . »  
( ديكارت : مبادئ الفلسفة ، الترجمة العربية للدكتور عثمان أمين ، القاهرة : سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٢ - ٥٦ ) .

ومن هنا نستطيع أن نشبه مع ديكارت أنه لا أفلاطون ولا أرسطو ، ولا الشكاك الذين وسعوا دائرة الشك حتى جعلوه يوغل في أفعال الحياة ، ولا الآخذون بمذهب اليقين حتى قصروه على الحواس ، وجعلوه محلا للاطمئنان ، قد أرضى أحد منهم ديكارت ارضاء يمكن أن يقال معه ان هاهنا عند هذا أو ذاك منهم يقينا بالمعنى الصحيح الذي يفهمه ديكارت ، وهو اليقين الذي لاشك فيه بحيث لا يمكن لأي شيء مريب أن يتسرب اليه ، ولا لأية شائبة من شوائب الغلط أو الخداع أن تخدعنا عنه ، أو أن تجد سبيلا الى تشويه معرفتنا له . واذا كان ذلك كذلك فقد ترتب عليه أنه ليس ثمة أحد بين الفلاسفة السابقين على ديكارت ، أو المعاصرين له ، قد

استطاع أن يصل إلى مبدأ يقيني أو بديهي يمكن أن يتخذ منه نقطة بدء لاستنباط نتائج بديهية ، وذلك لأن الأمر هو كما ينول ديكارت : « أن جميع النتائج التي تستنبط من مبدأ ليس ببديهي لا يمكن أن تكون بديهية مهما يكن الاستنباط من حيث صورته صحيحا . ويترتب على هذا أن جميع الاستدلالات التي أقاموها على مثل تلك المبادئ لم تستطع أن تؤيدهم إلى المعرفة اليقينية لشيء واحد ، ولم تستطع بالتالي أن تجعلهم يتقدمون خطوة واحدة في البحث عن الحكمة » ( مبادئ الفلسفة : ص ٥٩ ) .

وإذا كان ذلك مرة أخرى فقد أورد ديكارت بعد إيضاح هذه الأمور الأدلة اللازمة لاثبات أن المبادئ التي تعيننا على الوصول إلى مراتب الحكمة ، وهي قوام الخير الأسمى في الحياة الإنسانية ، هي المبادئ التي وضعها في كتابه المعروف باسم ( مبادئ الفلسفة ) . وها هنا يكتفي ديكارت بإيراد دليلين اثنين لاثبات صحة ما يذهب إليه : الدليل الأول هو أن هذه المبادئ واضحة جدا . ، والدليل الثاني هو أنه في استطاعتنا أن نستنبط منها جميع الحقائق الأخرى ( مبادئ الفلسفة : ص ٦٠ ) .

أما كيف أثبت ديكارت أن هذه المبادئ واضحة جدا ، فما أيسر ما كان ذلك عليه ، وما أظهر ما أبان به عنه ، وعن كل المبادئ والنتائج التي استنبطها منه ، وكان جماع هذا كله عنده هو قوام منهجه ومذهبه اللذين تتألف منهما فلسفته ، وذلك على الوجه الذي يظهرنا عليه في قوله : « ومن الميسور لي أن أثبت أنها واضحة جدا : أولا ، بالاستناد إلى النحو الذي وجدتها عليه ، أعني بإطراح جميع القضايا التي عرض لي فيها وجه من وجوه الشك ، إذ من المستيقن أن القضايا التي أنعمنا النظر فيها ، ووضعناها موضع الاختبار فلم نستطع أطراحها بعد ذلك ، هي أجلى وأوضح ما يستطيع الذهن الإنساني أن يعرف . ونظرا إلى أنني رأيت أن من يريد أن يشك في كل شيء لا يستطيع مع ذلك أن يشك في وجوده حين يشك ، وأن

ما سبيله فى الاستدلال هذا النحو من عدم استطاعته أن يشك  
فى ذاته ولو كان يشك فى كل ما سواه ، ليس هو ما نقول عنه  
انه بدننا بل ما نسميه روحنا أو فكرنا - بهذا الاعتبار أخذت  
كينونة هذا الفكر أو وجوده على أنه المبدأ الاول . ومن هذا المبدأ  
استنبطت بكل وضوح المبادئ التالية : أعنى وجود اله هو صانع  
ما هو موجود فى هذا العالم . ولما كان الله تعالى منبع كل حقيقة ،  
فانه لم يخلق الذهن الانسانى على فطرة تجعله يخطئ فى الحكم  
الذى يطلقه على الاشياء التى يتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا  
جدا . تلك هى المبادئ التى استعملتها فيما يتصل بالاشياء  
اللامادية أو الميتافيزيقية . ومن هذه المبادئ استنبطت استنباطا  
واضحا كل الوضوح ، مبادئ الاشياء الجسمانية أو الفيزيقية ،  
أعنى وجود الاجسام ممتدة طولا وعرضا وعمقا ، وذات أشكال  
مختلفة ، ومتحركة على أنحاء مختلفة . وهذه بالايجاز جميع  
المبادئ التى استنبطت منها حقيقة الاشياء الاخرى . والدليل  
الثانى على وضوح هذه المبادئ هو أن الناس عرفوها فى كل زمان  
وتلقوها جميعا على أنها مبادئ صحيحة ولا سبيل الى الشك فيها ،  
ولا يستثنى منها الا وجود الله ، اذ وضعه بعضهم موضع الشك ،  
بسبب اسرافهم فى الاعتداد بمدركات الحس ، وأنهم لا يستطيعون  
أن يروا الله بأبصارهم ولا أن يلمسوه بأيديهم . ولكن على الرغم  
من أن جميع الحقائق التى أضعها بين مبادئى قد عرفها الناس جميعا  
فى جميع الازمان ، غير أنى لا أعلم أن أحدا حتى الآن قد تبين انها  
هى مبادئ الفلسفة ، أى أنها من شأنها أن تستخلص منها المعرفة  
بجميع الأشياء التى فى العالم ، ولذلك يبقى على ها هنا أن أثبت أن  
هذا هو شأنها . ويبدو لى أن أفضل سبيل أستطيع به أن أثبت  
ذلك هو أن أبينه بالتجربة ، أى أن ادعو القراء الى قراءة هذا  
الكتاب . لأنى وان لم أكن قد تناولت فيه جميع الاشياء لاستحالة  
هذا الامر ، فأنى أحسب أنى قد فسرت جميع الاشياء التى عرضت .

لها في مواضعها ، بحيث أن من يقرؤه بشيء من الانتباه سيكون لديهم ما يدعوهم الى الاعتقاد بأنه لاجابة الى التماس مبادئ أخرى غير ما قررت للوصول الى أرفع معرفة أتيح للذهن الانساني أن يبلغها • فاذا قرءوا مؤلفاتي أولا ، وحرصوا على ملاحظة تفسيرها للمسائل المختلفة ، واذا تصفحوا أيضا مؤلفات غيرى لرأوا قلة ما أولوا فيها من الادله المقبولة لتفسير تلك المسائل نفسها بمبادئ مخالفة لمبادئى • وأود أن أقول لهم كيما يتيسر لهم القيام بما أدعوهم اليه ، ان أولئك الذين ألفوا آرائى يلقون فى فهم مؤلفات غيرى ، وفى معرفة قيمتها الحقيقية عناء أقل بكثير مما يلقاه من لم يالفوا تلك الآراء • ، وهذا عكس ما قلت منذ قليل عن بدءوا بدراسة الفلسفة القديمة ، من أنهم كلما زاد اشتغالهم بها قل فى الغالب استعدادهم لتعلم الفلسفة الحققة • » ( مبادئ الفلسفة : ص ٦٠ - ٦٤ ) •

وهكذا يمضى ديكارت فى عرض مبادئ فلسفته الواضحة الجلية التى نتبين معه من خلالها أى منهج جديد فى البحث قد انتهج ، وأى مذهب طريف فى الفلسفة والكشف عن الحقيقة قد ذهب اليه ، وأى أبواب من التجديد فى بناء الفكر الانسانى واقامة صرحه قد أضفى ديكارت عليه ، مما جعله فذا بين الفلاسفة ، وجعل منهجه ومذهبه بدعا بين القديم والحديث من هذه المذاهب وتلك المناهج ، حتى لقد كان يشعر هو نفسه بمقدار ما بلغه فى فلسفته من درجات الحكمة ، وما وصل اليه فيها من مراتب الكمال ، وذلك على النحو الذى يحدثنا به فى مختتم رسالته التى بعث بها الى مترجم كتابه ( مبادئ الفلسفة ) من اللاتينية الى الفرنسية ، فاذا هو يقول : « ولكن أقول فى الختام انه اذا كان الاختلاف الذى سيرونه بين هذه المبادئ وبين مبادئ أى مذهب آخر ، والموكب الكبير من الحقائق التى يمكن أن تستخلص منها ، يجعلهم يعرفون أهمية الاستمرار فى بحث هذه الحقائق ، ومدى ما يستطيع أن يوصلنا

اليه من درجات الحكمة وكمال الحياة وغبطتها ، فاني مقتنع بأنه  
 لن يوجد واحد لا يحاول أن يشغل نفسه بهذا البحث المفيد ، أو على  
 الاقل لا يؤيد ولا يعاون بكل قواه أولئك الذين يهبون أنفسهم  
 للمضى فى هذا السبيل موفقين • ان امنيتى أن يأتى يوم يشهد فيه  
 خلفاؤنا هذه العقبة السعيدة • « مبادئ الفلسفة : ص ٨٣-٨٤ »  
 على أن ديكارت لم يقف عند هذا الحد من الابانة عن منهجه  
 ومدى ارتباطه بمذهبه عندما يكون موضوع البحث عن مشكلات  
 الميتافيزيقا فحسب ، وانما هو قد تجاوز الميتافيزيقا الى العلوم  
 حيث يكون الموضوع موضوع بحث من تلك التى يبحث فيها عن  
 الحقيقة فى العلوم ، فاذا هو يضع كتابا خاصا بالمنهج ، هو هذا  
 الذى يسميه ( مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن  
 الحقيقة فى العلوم ) ، وجعل هذا المنهج مؤلفا من قواعد أربع يسلم  
 بعضها الى بعض ، ويؤدى كلها الى كشف الحقيقة فى أى من العلوم  
 لا فى الميتافيزيقا وحدها • والذى يعيننا هنا هو أن نقف معه عند  
 قاعدته الأولى ، فهى الرئيسية بين قواعد المنهج جميعا كما أنها  
 أفعل هذه القواعد فى مجال الميتافيزيقا بمقدار ما هى أدخل فى  
 مجال العلم على اختلاف فروعه ، وكما أنها أدل قواعد المنهج  
 الديكارتى على المنهج نفسه ، سواء فيما يعرض له من هذه الحقيقة  
 أو تلك من حقائق الفلسفة والعلوم ، وحسبنا أن نورد هنا منطوق  
 هذه القاعدة فى لغة صاحبها التى غير بها وجه الحقيقة فى العصر  
 الحديث ، وتغير معه وجه كل شىء فى الفلسفة ، وفى العلم ، وفى  
 كل شىء يتصل بالحضارة الانسانية من قريب أو من بعيد ابان هذا  
 العصر الحديث ، فقد قال ديكارت : « ••• وكما أن كثرة القوانين  
 كثيرا ما تهيب المعاذير للنقائص ، بحيث تكون الدولة خيرا حكما  
 ونظاما ، عندما لا يكون لديها من القوانين الا قليل جدا ، فتصبح  
 هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة ، كذلك اعتقدت أنه بدلا من هذا  
 العدد الكبير من المبادئ التى يتألف منها المنطق ، فالاربعة التالية

حسبى ، بشرط أن يكون عزمى على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما . الاولى الا أقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، والا أدخل فى احكامى الا ما يتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك . » ( ديكارت : مقال عن المنهج ، هذه الطبعة ، القسم الثانى ، ١٠ )

هذا هو منهج ديكارت فى أخص مبادئه ، وذلك هو مذهبه فى الصق عناصره ، وهما - بما هما عليه من اتخاذ الوضوح والجلاء ، وانتفاء الشك ، واتقاء الشبهة ، وحصول اليقين ، وتحصيل المعرفة اليقينية التى تنبع من ذات العارف بادىء ذى بدء ، لا من موضوع المعرفة بعد استدلالات قد تكون مقدماتها ظنية أو مشكوكا فيها - أسس للمعرفة اليقينية ، يمكن أن نخلص منهما الى أخص خصائص الفلسفة الحديثة كما جاءت على يد أبى الفلسفة الحديثة : ذلك بأن الفلسفة الحديثة - مفهومة على الوجه الديكارتنى ، وفى ضوء المنهج والمذهب الديكارتيين - كانت من غير شك خليفة أن تبحث عن الشروط التى ينبغى أن تتوافر لدى العقل حتى تتحقق له المعرفة اليقينية الحققة ، كما كانت جديرة أن تمتحن قيمة الصلات الوثيقة ، والروابط الدقيقة ما بين الاشياء والمعانى ، أو ان شئت فقل بين الاشياء وبين حقائق الاشياء ، هذه الصلات والروابط التى كانت تنظر اليها الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى ، على أنها يقينية : فالجس والعقل ، الجسم والنفس ، الطبيعة والأخلاق ، الفردية والجماعية ، العالم والاله ، كل أولئك مسائل تناولتها الفلسفة الحديثة بحثا دقيقا ، ودرسا عميقا ، وانتهت من درسها وبحثها الى اكتشاف حقيقتها ، واستخلاص الصلة التى توجد بينها وبين بعض من ناحية ، وبينها وبين الأشياء المدركة فيما بينها من ناحية ثانية ، وبينها وبين حقائق



هذه الأشياء المنطوية عليها من ناحية ثالثة . وعلى حين كانت فلسفة القدماء ترى أن نشاط الذات أو الشخص (Objet) ، وأن تمثيل الشيء أو الموضوع (Sujet) ، وكان أحدهما يوجد في الآخر ، فقد رأت فلسفة المحدثين أن توغل في أعماق الذات، وتنفذ الى باطن الشخص ، لتكشف فيه شروط الحقيقة الواقعة ، وبالأحرى قل لتكشف فيه المبادئ السليمة القويمة التي يتولد منها ادراك الحقيقة الأولى ، وبقيّة الحقائق الأخرى التي تنفرع على هذه الحقيقة الأولى ، وينبنى فهمها عليها . وفوق هذا كله فقد وفقت الفلسفة الحديثة بفضل ديكارت الى أن تضع منهجا فلسفيا دقيقا اصطنعه العلماء فانتهى بهم الى أحسن النتائج ، وأيقن المعارف ، واصطنعه الفلاسفة أنفسهم فوفقوا بفضلهم الى أكد وأوثق معرفة للحق والخير والجمال ، كما وفقوا في ظله الى أمن اليقين الذي أحسنوه ، ويجسده معهم كل مصطنع لهذا المنهج عندما يريد أن يعرف حقيقة كل من النفس الانسانية والذات الالهية والطبيعة الكونية معرفة صحيحة صادقة ولا شك فيها .

فاذا كان ذلك كذلك، وكنا قد تبينا مع ديكارت طبيعة المبادئ التي أقام عليها فلسفته ، والحقائق التي أعمل فيها منهجه ، فعمل من الخير أن نعرف ماذا كانت الفلسفة ومنهجها من العلوم والمناهج الأخرى عند مجدد الفلسفة وأبيها في العصر الحديث ؟ الحق أن ديكارت قد نظر الى الفلسفة ومنهجها نظرة كلية شاملة ، وذلك اذ جعلها لكل العلوم أشمل ، كما جعل منهجها في أبواب كل العلوم أدخل . وليس أدل على ذلك من أنه عرف الفلسفة بأنها دراسة الحكمة ، والحكمة ليست مجرد الفطنة في الأعمال ، بل هي المعرفة الكاملة بكل ما في وسع الانسان معرفته بالاضافة الى تدبير حياته ، وصيانة صحته ، واستكشاف الفنون ، ولكي تكون هذه المعرفة كذلك فلا بد من أن تكون مستنبطة من العلة الأولى . ومثل الفلسفة كمثال شجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها العلم الطبيعي، وأغصانها

بقية العلوم ، وهذه ترجع الى ثلاثة كبرى هي : الطب والميكانيكا والأخلاق العليا الكاملة التى تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى ، والتي هي آخر مرتبة من مراتب الحكمة ( مقدمة مبادئ الفلسفة ) . وإذا كانت الفلسفة كذلك ، فهى نظرية من وجه ، وعملية من وجه آخر ، والعمل فيها هو الغرض الأسمى ، كما أن العقل فى الانسان هو أهم جزء فيه ، وكما أن الحكمة هي خيره الأعظم ، وكما أن للعمل غرضا هو ضمان رفاهة الانسان وسعادته فى هذه الحياة الدنيا ، بمد سلطانه على الطبيعة، واستخدام قواها لصالحه . وها هنا يلاحظ مبادئ دى بدء ان ديدارت نم يكن مجددا للفلسفه سواء فى تعريفها أو فى تقسيمها ، ولا مخالفا فى هذا أو ذاك لما قاله القدماء من قبل ، سواء فى تلك النظرة الكلية الى الفلسفة ، أو فى ذلك الشمول العام الذى جعل منها أما للعلوم جميعا ، أو أصلا لهذه العلوم التى هي منها بمثابة الفروع لها ، أو التطبيقات العملية عليها . أما التجديد الحقيقى الذى استحدثه ديكارت فى الفلسفة فانه لم يكن فى تعريفها ، ولا فى تقسيمها ، ولا فى النظرة الكلية الشاملة اليها ، وإنما كان فى تفصيل المسائل التى عرضت لها ، وفى تحليل المبادئ التى قامت عليها ، وفى تحصيل النتائج التى وصلت اليها ، وفى غير هذا كله من الأفكار والأنظار التى لا يتسع مثل هذا التقديم لاحصائها واستقصائها ، وحسب القارئ من هذه الأنظار وتلك الأفكار ما سيقع عليه منها فى هذا المقال عن المنهج الذى يكاد أن يكون الماما عاما بكل العناصر الرئيسية التى تتألف منها فلسفة ديكارت ، فضلا عن القواعد الأساسية التى يشتمل عليها منهجه .

أما كيف كان ديكارت مجددا فى المنهج ، فذلك ما يمكن أن نتبينه معه من خلال نظراته الى المنطق بصفة عامة ، والى القياس الأرسططاليسى والاستقراء التجريبي بصفة خاصة : فالمنطق يقف عند أفعال العقل ، يحللها تارة ، ويدل على مواطن الصدق والخطأ فيها تارة أخرى ، وديكارت ويكون وأشباههما من المحدثين يرون أن

هذا التحليل عقيم ليس وراءه طائل ، ولا فيه غناء • والقياس الارسططاليسي وهو انه الاستنباط عند المعلم الاول لايسمن ولا يغنى من جوع ، لانه ليس الا طائفة متسلسلة من الحدودس تمضى بحركة متصلة من حد الى حد ، وهنسا يربط العقل بين حدود لم تكن علاقاتها واضحة بادىء ذى بدء ، وما يزال العقل ماضيا فى استنباطه حتى يبلغ من هذا الاستنباط غايته ، وهنالك يرد المجهول الى المعلوم ، والمركب الى البسيط ، والغامض الى الواضح ( قواعد تدبير العقل ) •

والاستقراء كما يعرفه المناطقة والتجريبيون بصفة عامة ، انما يصل الى معارف متفرقة ، اذا اجتمع بعضها الى بعض ، وحشد بعضها مع بعض ، وألف بين بعضها وبين بعض ماكان منها علم ملفق مهلهل ، ليس ليقين اليه من سبيل • ولا كهذا أو ذاك كان منهج ديكارت : ذلك بأن منهج ديكارت فى الفلسفة والعلم هو الحدس الذى يتناول المبادئ البسيطة ، ويستنبط من المبادئ قضايا جديدة • وهذا المنهج هو الذى يبين القواعد العملية التى يجب اتباعها لاحكام قيادة العقل فى اقامة العلم • والعلم عند فيلسوفنا استنباطى ، من حيث انه يضع المبادئ البسيطة الواضحة المتمايزة ، ويتدرج منها الى النتائج • ولعل أخص ما يمتاز به منهج ديكارت هو وضوح مبادئه ، ويقين نتائجه ، على نحو ما هو معروف فى الرياضيات التى تمضى من البسيط الواضح الى المركب الغامض بنظام محكم • واذا كان العقل واحدا ، وكانت الفلسفة جملة واحدة ، تؤلف علما كليا واحدا ، وكانت العلوم لا تتمايز فيما بينها بموضوعاتها ومناهجها ، لأنها ثمرات هذا العقل الواحد ، فقد ترتب على ذلك أن يكون المنهج واحدا ، وأن يكون هذا المنهج الواحد هو المنهج الوحيد المشروع • الذى يصطنعه العقل الواحد فى العلم الواحد ، أو فى كل علم من العلوم الجزئية المتفردة التى اذا تألفت نشأ من تألفها هذا العلم الكلى الواحد الذى هو عند ديكارت عبارة عن دراسة الحكمة ، أو هو شجرة جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها العلم الطبيعى ، وأغصانها

بقية العلوم ، وهو انما يعنى به الفلسفة على حد تشبيهه لها ،  
وتعريفه بها ، فيما سبق أن اتبناه آنفا .

على ان ديكارت لم يكن يقنع فى نتائجه باصطناعه لهذا المنهج  
الذى يمتاز بوضوح مبادئه ، ويقتن نتائجها ، على نحو ما هو معروف  
فى الرياضيات ، وانما هو قد اصطنع التجربة أيضا ، واشترك مع  
فرنسيين بيدون فى الابانه عن عمق انقياس الارسططاليسى ، ولهذا  
قد يتسرب الى بعض الأذهان أن ديكارت كان تجريبيا ، وأن مثله فى  
هذا المنهج كان كمثله بكون فى ( الأرغانون الجديد ) ، والواقع أن  
ديكارت لم يكن كذلك : لأن التجربة عند ديكارت لم تكن هى الأداة  
الوحيدة للوصول الى النتائج القاطعة ، وانما كانت التجربة عنده  
وسيلة من الوسائل المختلفة التى كان يستعين بها الفيلسوف  
الفرنسى على تحقيق النتائج التى يصل اليها فى العلوم ، بحيث يتبين  
له بعد اجرائه لهذه التجربة أو تلك ، على هذا الشئ أو ذاك ، وجه  
الدقة فى تطبيق المنهج الذى اصطنع ، ووجه اليقين فى النتائج التى  
بها اقتنع ، حتى يصبح اليقين عنده شيئا لا يأتىه الشك من بين  
يديه ولا من خلفه .

وهكذا كانت الفلسفة كل شئ فى العصور الحديثة .  
وهكذا كان منهج ديكارت تجديديا حديثا لما كان عليه الفكر الانسانى  
قدما ، كما كان تحريرها حديثا مما كان يرسف فيه هذا الفكر الانسانى  
قدما من سلاسل وأغلال ، كانت فى كثير من الأحيان عاتقة له عن  
الحرية والاستقلال ، وهكذا تهيأ لديكارت أن يقيم الفكر الفلسفى  
والعلمى على دعائم أرسخ ، وأن يؤئل بناءه على وجه اشمخ ، حتى بلغ  
من رسوخه وشموخه ، أن أصبح ديكارت وكأنه يطل من علياء هذا  
الصرح الراسخ الشامخ ، ويشير الى غيره من الفلاسفة والعلماء وأهل  
الفن والآداب ، الى غير أولئك وهؤلاء من المفكرين السياسيين  
والاجتماعيين ، ويدعوهم أن هلموا الى رحاب الوضوح والجلاء ، الى  
روض اليقين والضياء ، اليكم عن كل ماعو غامض مجهم ، وقائم مظلم ،

وعليكم بكل ما هو واضح جلي ، وبين يقيني • وليس من شك في أن ديكارت في دعائه هذا ، وفي استجابة الناس له ، واباعهم نهجه ، قد بدد الشك باليقين ، وحطم باطل المبطلين ، ودعم حق المحقين ، وإذا الخقائق في الفلسفة والعلم ، وفي غير الفلسفة والعلم من مجالات الحياة والانسانية ، قد تكشفوا واضحة جلية ، وبينة يقينية ، وتلك لعمري هي أخص خصائص الفلسفة المنهجية الديكارتية ، التي تميزها أشد التميز من فلسفة العصور الوسطى والفلسفة اليونانية •

وإذا كانت تلك هي أخص خصائص فلسفة ديكارت ومنهجه ، وكان ديكارت بهذا المنهج وتلك الفلسفة قد طلع على الناس بهما في القرن السابع عشر ، فكان مهتدنا للجديد ، ومحررا للفكر من ربتة القديم ، ومؤثرا في كل وجه من أوجه الحياة المعاصرة له ، والتالية بعده ، فقد تبين اذن لم يعد القرن السابع عشر الذي ظهر فيه ديكارت بعبقريته وبراعته ، وبما استحدث من منهج ومذهب ، وبما عرض له من مسائل ، او بما خلف من كتب ورسائل ، عصرا ذهبيا للفلسفة الحديثة التي لم يقف ازدهارها عند هذا القرن السابع عشر فحسب ، وانما تجاوزه الى مابعد ، من قرون مازالت الانسانية المفكرة العاملة تنعم بظلالها الوارفة ، وقطوفها الدانية الى اليوم •• اما كيف كان ذلك كذلك ، فذلك ما نتيبنيه من خلال الحركات الفلسفية والعلمية والأدبية والفنية التي قامت لدى امم العالم المتحضر منذ عصر ديكارت الى عصرنا هذا : ففلسفة القرن السابع عشر من أوله الى آخره في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وهولندا ، انما كانت كلها فلسفة ديكارتية الى حد بعيد عند بعض الفلاسفة ، وديكارتية الى حد ما عند بعضهم الآخر : فما لبرانش واسبينوزا وليبنز وكثير غيرهم من فلاسفة القرن السابع عشر لم يكونوا الا ديكارتيين ، يتفاوتون في ديكارتيتهم تطرفا أو اعتدالا ، وظهورا أو خفاء ، وتأريدا أو تفجيذا • وكذلك كانت الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في

القرن الثامن عشر. مرآة صادقة تتجلى على صفحاتها الآثار الباقية للفلسفة الديكارتية : ذلك بأن قيادة الفكر في كل نواحيه ، وقيادة الحياة الاجتماعية في كل مرافقها ، والتمهيد للحياة الديمقراطية الحرة في كل ثوراتها ، انما كان كل أولئك امره الى الفلاسفة الذين صعدوا كثيرا أو قليلا عن منابع ديكارتية . الحق انه لو لم يكن منهج ديكارت ومذهبه لما كانت فلسفة كانط النقدية التي انتهت الى كثير من القوة والدقة والكمال ، فيما عرضت له وتعمقت فيه من مسائل تتصل بأنظار العقل وافعال الاخلاق وأذواق الجمال . واذا كان كانط نفسه قد نقد ديكارت نقدا عنيفا في بعض الاحيان ، ورفيقا في بعض الأحيان الأخرى ، الا أنه كان على كل حال متأثرا بفلسفة ديكارت على أى من أوجه التأثير المباشر أو غير المباشر ، ناهيك بأن النقد الكانطي ، اذا حللته الى عناصره ، وأوغلت فيه الى بواطنه لا سيما فيما يتعلق بنظرية المعرفة ومصادرها ومراتبها وقيمتها ، لم يسفر هذا كله في حقيقته الا عن صورة جديدة للشك الديكارتى الذى اتخذه ديكارت له منهجا يوصله الى اليقين ، كما اتخذ كانط من النقد منهجا يبصره بالمعرفة اليقينية التى تختلف فى طبيعتها وقيمتها وخاصيتها الحسية والعقلية ، عن المعرفة الظنية ، كما يختلف الشك عند ديكارت عن اليقين الذى هو من غير شك أخص خصائص ، وأدل دلائل المعرفة اليقينية التى لا يكتنفها الغموض ، ولا يأتىها الشك من بين يديها ولا من خلفها . واذا فانت ترى أن شك الفيلسوف الفرنسى ونقد الفيلسوف الألمانى ، انما هما لغتان وان اختلفت احدهما عن الأخرى فى ظاهى اللفظ والعبارة ، الا انهما فى حقيقتهما لغتان مترادفتان تعبر احدهما عما تعبر عنه الأخرى . بمعنى أنك اذا قلت ان ديكارت يشك فكأنك تقول ان كانط ينقد ، وكل ما هنالك من فرق بين اللغتين هو أن لغة الشك الديكارتى كانت اللاتينية أو الفرنسية ، كما أن لغة النقد الكانطى كانت الألمانية .

هذا من حيث أثر المنهج الديكارتي في فلسفة القرن الثامن عشر ، أما كيف كانت الفلسفة الحديثة بصفة عامة ، وفلسفة ديكارت بصفة خاصة ، مؤثرة في حياة الفكر في كل نواحيه في مسيرة للحياة الاجتماعية في كل مرافقها ، فيكفي أن نشير هنا الى أن هذا المنهج الديكارتي في الشك ، انما كان منهجا في الفكر ، وطريقا الى تحرير هذا الفكر مما قيده من قيود حالت بينه وبين التفكير الحر والرأى المستقل عن الدين ابان العصور الوسطى .

واذا كان يقال منذ زمان بعيد ان جان جاك روسو ، وديدرو ، ومونتسكيو ، وكلهم من الفلاسفة المرموقين ، هم الذين مهدوا بمؤلفاتهم وآرائهم سبيل الثورة الفرنسية التي حققت كثيرا من مبادئ الحرية والمساواة والاخاء ، والتي لم تؤثر في فرنسا فحسب ، وانما أثرت في فرنسا ، وقلبت الحياة السياسية والاجتماعية للأفراد والجماعات رأسا على عقب ، في غير فرنسا من الأمم الحديثة ، اذا كان يقال هذا كله ، ويردد دائما حتى لقد أصبح معروفا مألوقا منذ أمد طويل ، فمن الحق أيضا أن يقال ان البذور الاولى التي نبتت منها أشجار هذه الحرية الفكرية والسياسية في العصور الحديثة ، يمكن أن تلتبس عند ديكارت في منهجه ، وفي مذهبه ، وفي موقفه من الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى ، ومن الفلسفة اليونانية في العصور القديمة ، ذلك بأن ديكارت قد جدد القديم وحرر الوسيط ، وتحرر هو من أغلال هذا وذاك ، وأخذ يفكر تفكيراً حراً لم يؤثر فيه وحده فحسب ، ولا تأثر به معه المعاصرون له فحسب ، ولا من جاء بعد معاصريه من فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين في أوروبا فحسب ، بل تأثرنا به نحن في مصر المعاصرة ، وقد تجلت آية هذا التأثير تجليا واضحا وجريئا على يد أستاذنا الجليل عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، وذلك عندما اصطنع منهج ديكارت الفلسفي العلمي في دراسة مشكلة كبرى من مشكلات الأدب العربي ، وهي مشكلة الشعر

الجاهلي ، أصحيح هو في نسبته الى أصحابه من الجاهليين الذين ترتبط أسماؤهم بقصائد هذا الشعر ، أم هو منحول عليهم . معزو زورا اليهم ، اذ هو ليس من نظم الجاهليين في شيء . وانما هو من نظم الاسلاميين في كل شيء ؟

وليس أدل على مبلغ اصطناع أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، لمنهج ديكارت في الشك ، ومدى تأثيره به في قواعده ، لا سيما قاعدته الأولى التي تعرف بقاعدة اليقين والوضوح والتمايز والجلاء ، ليس أدل على هذا كله ، وعلى أن منهج ديكارت لم يؤثر في الفلسفة والعلم والاجتماع والسياسة فحسب ، بل في الآداب أيضا ، وفي دراسة الادب العربي بنوع خاص ، من قول أستاذنا نفسه ، حين يقول عن نفسه : « أحب أن أكون واضحا جليا ، وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطربهم الى أن يتأثروا ويتحلووا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التي أرمى اليها . أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة . أريد أن أقول اني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ( ديكارت ) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث . والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما . والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث . فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول أدبنا



العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل ، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا ٠٠ » ( الدكتور طه حسين : في الادب الجاهلي ، القاهرة سنة ١٩٢٧ م ، ص ٦٦ - ٦٧ ) ، وحين يقول أيضا : « ٠٠ فأنت ترى أن منهج ديكارت هذا ليس خصبا في العلم والفلسفة والادب فحسب ، وإنما هو خصب في الاخلاق والحياة الاجتماعية أيضا ٠ وأنت ترى أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم ، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضا ٠ وأنت ترى أنى غير مسرف حين أطلب منذ الآن الى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرءون أو يكتبون فيه ألا يقرءوا هذه النصوص ، فلن تفيدهم قراءتها الا أن يكونوا أحرارا حقا » ( في الادب الجاهلي ، ص ٦٩ ) ٠

## ٥ مقال ديكارت عن المنهج

لعلك قد أدركت من خلال ما قدمت بين يديك من معلومات ، أن ديكارت قد عرض لمنهجه في الفلسفة والعلم في أكثر من كتاب من كتبه الحسبة القيمة ، وها أنت قد رأيت أنه عرض لهذا المنهج في (مبادئ الفلسفة) ، وفي (قواعد لتوجيه العقل) ، وفي (مقال في المنهج لاجادة قيادة العقل ، والبحث عن الحقيقة في العلوم ،

يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهي تطبيقات لهذا المنهج ) • وليس من شك في ان أهم هذه الكتب جميعا ، وأجمعها للمعلومات التاريخية التي تتصل بحياة ديكرات وأطوارها الفكرية والعلمية ، وأشملها للأفكار والأنظار الفلسفية والعلمية ، وأوضحها في الإبانة عن قواعد المنهج الديكراتي ، هو هذا الكتاب الذي يعرف باسم ( المقال عن المنهج ٠٠٠ ) •

على أن ديكرات لم يخرج مقاله عن المنهج اخراجا مباشرا ، ولا على الوجه الذي هو عليه الآن ، وانما هو قد أراد أن يقيم لنفسه مذهبا في الفلسفة ، وأن يجعل لهذا المذهب منهجا لا يقف في البحث عند حقائق هذه الفلسفة فحسب ، بل يتجاوزها الى حقائق العلوم جميعا ، وهي هذه العلوم التي سبقت الإشارة الى أنها تؤلف مع الفلسفة علما كليا واحدا ، وهذا يعني أن ديكرات لم يكن يأخذ الفلسفة بمعناها النظري العقلي الضيق ، وانما هو يأخذها على أوسع نطاقها ، وأشمل آفاقها ، فاذا هو يذيع في سنة ١٦٣٧ أطرافا من علمه الطبيعي ، وذلك في رسائل ثلاث قدم بين يديها بقصة يقص فيها أطوار حياته الفكرية والروحية والعملية ، كما يعطى صورة مجملة ، ولكنها متكاملة ، لمذهبه في الفلسفة والعلم . واذا هو يجمع بين الرسائل الأربع في كتاب جامع كان عنوانه بادئ ذي بدء مطولا على هذا الوجه : ( مشروع علم كلي يرفع طبيعتنا الى أعلى كمالها ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، حيث يفسر المؤلف أغرب ما استطاع اختياريه من موضوعات تفسيرها يسهل فهمه حتى على الذين لم يتعلموا ) ، ثم عدل وبدل في هذا العنوان بحيث جعله هكذا : ( مقال في المنهج لاجادة قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهي تطبيقات لهذا المنهج ) •

وبعد أن فرغ ديكرات من كتابة على هذا الوجه ، ومن اخراجه

تحت هذا العنوان ، عاد اليه مرة أخرى ، فاذا هو يعيد النظر فيما كان قد أجمله فيه من مسائل فيفصلها ، وما كان قد أوردته من غوامض فيوضحها ، واذا هو يخرج من هذا الكتاب الواحد الموجز المركز الذى أجمل فيه عناصر مذهبه ومنهجه ، كتباً عدة تتناول تناولاً مفصلاً عناصر المذهب ومبادئ المنهج . فكان من ذلك ما كان من كتاب له يعرف باسم ( تأملات فى الفلسفة الاولى ، وفيها البرهان على وجود الله وخلود النفس ) . وبدا لديكارت بعد ذلك أن يعتمد الى فلسفته وعلمه الطبيعى فيذيعهما على نطاق أوسع ، فاذا هو يشيع هذا العلم الطبيعى وتلك الفلسفة على يد كتاب مدرسى كتبه على صورة فقرات مركزة أو بنود موجزة ، ولكنها مع ذلك أوضح ما تكون عبارة ، وأبين ما تكون دلالة ، وهذا الكتاب الذى كان كذلك هو ما يعرف باسم (مبادئ الفلسفة) ، وقد كتب هذا الكتاب أول ما كتبه باللاتينية ونشر سنة ١٦٤٤ م ، ثم ترجم بعد ذلك الى الفرنسية ، ونشر سنة ١٦٤٧ م ، مع اهداء الى الاميرة اليزابث ، ورسالة الى المترجم ، عرض فيها ديكرات فلسفته عرضاً عاماً شاملاً ، لا يكاد أن يترك صغيرة ولا كبيرة تتصل بمذهبه ومنهجه ، الا ألم بها ، وأوضح مشكلها ، وتدرج منها الى غيرها ، بحيث أعطانا صورة متكاملة لكل من مذهبه ومنهجه ، كما أبان لنا عن أوجه الفرق والخلاف بين فلسفته وبين الفلسفة القديمة .

على أن كتاب ديكرات الذى يعرف باسم (المقال عن المنهج) ، ليس هو كل ما كتبه هذا الفيلسوف عن منهجه ، وانما نحن واجدون له رسالة أخرى فى المنهج لم ينمها قط ، ويرجع تاريخ البدء فى كتابتها الى سنة ١٦٢٦ . ولعل هذه الرسالة بمثابة عرض أو بسط يكاد أن يكون تاماً ومفصلاً الى حد بعيد لمنهجه ، ومبيناً لكثير من المعانى التى انطوت عليها قواعد هذا المنهج ، والمبادئ التى ركنت اليها ، وأقيمت عليها ، هذه القواعد ، وأعنى بتلك الرسالة

ما يعرف باسم ( قواعد لتوجيه العقل ) • ومهما يكن من شيء •  
 فلعل ديكارت أن يكون قد رأى أن هذه القواعد ليست مما يلائم  
 كل العقول بقدر ما هي ملائمة لعقول طائفة خاصة من العلماء ،  
 وهو يريد أن يستحدث في الفلسفة والعلم منهجا عاما يلائم عقول  
 الناس جميعا ، ولهذا أعرض عن نشر قواعده هذه لتوجيه العقل ،  
 وفكر أكثر ما فكر في تأليف كتاب آخر غير تلك الرسالة ، وهو  
 مقاله عن المنهج مبينا فيه القواعد التي أثبت تطبيقها دقته في  
 المنهج ، كما أثبت عرضه لها ، وإبانتها عنها ، براعته في التأليف •

وذكرت فيما خلف من آثار ، قد اصطنع في كتابة كتبه  
 ورسائله وخطاباته لفتين : احدهما قديمة وهي اللاتينية ، والاخرى  
 حديثة وعى الفرنسية • وكان من حظ (المقال عن المنهج) أن كتب  
 بالفرنسية ، منله في هذا كمثل غيره من الرسائل التي تقترون به ،  
 ونشترك معه ، في أنها كتبت بهذه اللغة الحديثة ، على نحو ما فعل  
 ديكارت بعدة من رسائله مثل : ( رسالة في الانفعالات ) و ( رسالة  
 في الانسان ) و ( رسالة في العالم أو في الضوء ) • أما مؤلفاته  
 الأخرى • وهي كثيرة في عدتها ، ومنها : ( التأملات ) و ( مبادئ  
 الفلسفة ) و ( رسالة في الموسيقى ) و ( الميكانيكا ) و ( قواعد توجيه  
 العقل ) ، وأكبر التذرات التي خلفها ، وثلاثة أرباع خطاباته .  
 فكل أولئك قد كتبه ديكارت باللاتينية • ولقد كان ديكارت من  
 المهارة والبراعة في الكتابة بالفرنسية واللاتينية ، حتى انه يمكن  
 القول بأن السمو الذي عرف ديكارت كيف يصوغ فيه لأول مرة  
 النشر الفرنسى في اللغة الفلسفية ، ينبغى مع ذلك ألا يجعلنا  
 ننكر عليه الخصائص الراسخة القوية لأسلوبه في اللاتينية من دقة  
 وضبط ، واحكام وشدة أسر ، وبأن النشر الفرنسى الذي كتب فيه  
 كل من دوق دي لوين Duc de Luynes وكليز سلييه Clerselier  
 نيبذوا باهتا شاحبا ، لا يكاد يكون له لون ، اذا قيس بهذا الاسلوب

اللاتينية الذى صاغ فيه ديكارت أفكاره وأنظاره الفلسفية والعلمية .  
على أن ديكارت لم يكن يصدر عن هوى عندما كان يؤثر كتابة  
هذا الكتاب أو ذاك فى هذه اللغة أو تلك ، وذلك على حد ما كان  
يلاحظه باييه Baillet ، بل كان يصدر عن فكر وروية ، وعن التزام  
مبدأ معين حين كان ينشئ إحدى رسائله بالفرنسية ، وينشئ  
الأخرى باللاتينية : ذلك بأنه كان يؤثر الكتابة باللاتينية حينما كان  
يخاطب خاصة العلماء بصفة خاصة ، على نحو ما فعل فى (النأملات)  
وفى (المبادئ) ، وكان يؤثر الكتابة بالفرنسية حينما كان يريد أن  
يخاطب السواد الأعظم من القراء ، على نحو ما هو الشأن فى (المقال  
عن المنهج) و ( الرسالة فى الانفعالات ) \* ولقد أسعفته التجربة  
فوفى ما أخرج فى اللغتين ، وفى ما وجه الى القراء من  
الطبقتين ، فضلا عن أن التجربة قد أظهرته بصفة عامة على أن  
مصنفاته جميعا ينبغي أن تكتب فى هذه اللغة وفى تلك على السواء .  
حتى يتهيأ لكل انسان أن يقف عليها ( باييه : الكتاب الثامن ،  
الفصل الثالث ) ، ومن هنا نرى أن ديكارت قد حرص أشد الحرص  
على أن تترجم مصنفاته اللاتينية الى الفرنسية ، وأن تترجم مصنفاته  
الفرنسية الى اللاتينية .

وليس من شك فى أن ديكارت حين كتب بالفرنسية ، وحين  
كتب بهذه اللغة (المقال عن المنهج) بنوع خاص ، لم يؤد واجبه نحو  
لغة وطنه وقومه على وجه أقل مما كان للفلسفة عليه من حق ، بل  
الحق كل الحق أنه ليس ثمة أصالة وجزالة فى الألفاظ والعبارات  
التي اصطنعها فى التعبير عن الأفكار يمكن أن يقال انها أقل تمثلا  
فى الأفكار نفسها التي عبر عنها بتلك الألفاظ والعبارات ، مما  
فاضت به صفحات (المقال عن المنهج) \* وحسبنا أن نشير هنا الى  
أن ألوان الجمال الأخاذة التي تترقرق من حين الى حين فى نثر  
ديكارت ، والتي بدت زمانا وكأنها مرت وبلغت أجلها دون أن

يقدرها حق قدرها السواد الأعظم من مؤرخي الادب الفرنسي ، قد اثرت فانتارت أبرز النقاد المختلفين في القرنين السابع عشر والثامن عشر : فهاهو ذا باييه Daudet قد قدر الخصائص الكبرى لأسلوب ديكارت تقديرا عظيما ، وهاهو ذا أيضا سوربيير Corbière الذي لعله أقل تعصبا لديكارت من باييه ، قد أباح لنفسه أن يقول عن (المقال عن المنهج) ان أسلوبه جميل في غير ما تناقض ، وأنه لم يقرأ ما هو أكثر منه سحرا وقوة وتركيزا في لغته الفرنسية ، وذلك في كل ما كتبه ديكارت (خطابات ومقالات : ص ٦٩١) • ، وهاهو ذا فوق هذا وذاك داجيسو Daguesseau قد أعجب بديكارت كاتباً اعجابا يعدل اعجابه بديكارت فيلسوفاً، حتى انه ليقول عنه : « ليس ثمة انسان البتة يستطيع أن يكون نسيجا أمعن في الهندسة ، وفي الوقت نفسه أشد عبقرية ، وأقوى يقينا ، فيما يتعلق بالافكار وبالصور وبالبراهين ، على نحو ما نجده عنده من غور فن البلاء مرتبطا بفن علماء الهندسة والفلاسفة » • ( الامر التكليفي الرابع لابنه ) •

ومهما يكن في أسلوب ديكارت من غلبة الجفوس والغلظة والهندسة عليه ، فما أكثر ما يترقق فيه من حياة وألوان تتجلى في صور حية قوية • ، ومهما يكن من شيء أيضا فانه ينبغى لنا - على حد ما يقوله سانت بوف Sainte Beuve - أن نأخذ أنفسنا بالثناء على ديكارت ، من حيث انه كان يكتب على سجيته ( تاريخ بور رويال : الكتاب ٦ ، الفصل ٥ ، ص ٧٠ ) • واذا كان هذا هو رأى ناقد ثقة مثند عدل كسانت بوف، فكذلك رأى فولتير Voltaire الفيلسوف الناقد اللاذع ، والكاتب الساخر ، لم يجد الى عبقرية ديكارت وطريقته في الفهم وأسلوبه في الكتابة مساغا الى السخرية به أو التهكم عليه ، مما يجعل لهذا الرأي أوجها من الطرافة والقيمة: فقد قال فولتير عن ديكارت : « لقد ولد ديكارت وله مخيلة مشرقة

قوية جعلت منه انسانا فريدا فى حياته الخاصة ، على نحو ما هو كذلك فى طريقة تعقله ، ولا يمكن لهذه المخيلة أن تستخفى حتى فى مصنفاته الفلسفية التى يرى فيها المرء فى كل لحظة موازنات بارعة رائعة » ( خطاب ١٤ ، فى الانجليز ) .

واذا كانت تلك هى آراء النقاد فى أسلوب ديكارت الفرنسى ، وفيما لهذا الاسلوب من خصائص تتجلى حية مشرقة فى (المقال عن المنهج) بنوع خاص ، فهل نحن واجدون عند ديكارت نفسه وفى هذا المقال عن المنهج بعينه ، ما يصحح أن يكون تفسيراً أو تأييداً لأقوال النقاد الذين أعجبوا بنشر ديكارت من ناحية ، وقدروا هذا النشر بحيث أحلوه فى محله من النشر الادبى فى تاريخ الادب الفرنسى من ناحية أخرى ؟ . الحق أننا واجدون عند ديكارت من هذا التفسير والتأييد لتلك الآراء ، ماله خطر وفيه غناء ، وذلك حيث يتحدث عن نفسه ، وعن موقفه من العلوم والفنون والآداب فيقول : « كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعا بالشعر ، ولكنى رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية ، لا من ثمرات الدرس . والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كى يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون الا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الاخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الاساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم » (مقال عن المنهج : القسم الأول ، ص ) .

هذه المامة عامة بما (للمقال عن المنهج) من صورة ، وما لهذه الصورة من خصائص ، وقد بقى بعد ذلك أن نقف وفقتين مع هذا الكتاب القيم على ضآلته وقلة صفحاته : احدهما عند ما فيه من مادة لها أهمية فى عرض فلسفة ديكارت ، وبيان النظام المتبع فى

هذا العرض من ناحية ، والاخرى عند ماله من أثر فى تطور الفلسفة الحديثة من ناحية أخرى :

فأما ماذا فيه من مادة لها أهمية فى عرض فلسفة ديكرت ، وبيان النظام المتبع فى هذا العرض ، فلعل أول ما يلاحظ هو أن هذا الكتاب على صألته وإيجازه قد اشتمل على كل العناصر التى تتألف منها فلسفة ديكرت كلها مركزة سائغة ، وجلية واضحة : ففى هذا الكتاب من مصنفات ديكرت الأولى ، نرى الفيلسوف قد تأمل فأطال التأمل ، وتدبر فأحسن التدبر ، فإذا هو يخلص من هذا التدبر ، وذلك التأمل ، الى أن يركز أفكار فلسفته وأنظاريها ، وقواعد منهجه ومبادئها ، على تفصيلاتها العدة ، فى هذه الصفحات القليلة ، وإذا هو يعطى صورة رائعة لمنهجه فى البحث عن الحقيقة فى العلوم كلها ، ولذهبه فى الطبيعة وفيما بعد الطبيعة ، ومن هنا كان لا بد للدارس الباحث فى فلسفة ديكرت ، الملتمس لما تشتمل عليه من عناصر ، وما تنطوى عليه هذه العناصر من أفكار ، وما تعرض له من دقائق ، وما تنتهى اليه من حقائق ، أن يتخذ سبيله الى هذا كله من (المقال عن المنهج) ، وذلك اذا أراد هذا الدارس الباحث أن يبسط فى أمانة وإخلاص الاجزاء المختلفة التى تتألف منها فلسفة أبى الفلسفة الحديثة ، اذ تتسلسل هذه الاجزاء تسلسلا دقيقا ، وتترابط فيما بينها ترابطا وثيقا : ذلك بأن (المقال عن المنهج) انما هو من صرح الفلسفة الديكرتية بمثابة الاساس الذى يقوم عليه هذا الصرح ، فضلا عن أن النظام والترتيب والتبويب مما اتبعه المؤلف فى تأليف هذا الكتاب ، انما هو خير مرشد ، وأوضح نهج ، يمكن أن ينتهجه ، ويسترشده به ، مؤرخ الفلسفة عندما يتصدى لتأريخ حياة ديكرت الفكرية والمذهبية والعملية . ، وليس من شك فى أن الدارس الباحث فى فلسفة ديكرت ، معولا على (المقال عن المنهج) ، ومستعينا بما كتبه ديكرت



ففي كتبه الاخرى وفي خطاباتاته ، سيجد في هذا التراث الذي خلفه ذلك الفيلسوف ، كنزا ليست جواهره اللآلاء بأقل تألقا في منهجه وفلسفته منها في حياته وسيرته .

وأما ماذا للمقال عن المنهج من أثر في تطور الفلسفة الحديثة بالقياس الى كل من فلسفة النهضة وفلسفة العصور الوسطى والفلسفة القديمة ، فليس من شك في أن معرفة الحال التي كانت عليها الفلسفة قبل ديكاوت ، والآثار التي خلفها الفلاسفة السابقون عليه ، والمعاصرون له ، واللاحقون به ، من شأنها أن تعين على معرفة القيمة التي لمؤسس الفلسفة الحديثة ، والاثار الذي تركه ، والتطور الذي أحدثه مقاله عن المنهج ، والتقدم الذي أحدثه هذا المنهج في الفلسفة وفي العلم ، بل في كل نواحي الفكر الانساني ، كما تعين على تقوية عبقرية هذا الفيلسوف ، ووضعه في موضعه من تاريخ ذلك الفكر الانساني بصفة عامة ، ومن تاريخ الفلسفة والعلوم بصفة خاصة . ولعل أدهش ما يدهش له المتأمل المستقرئ لتاريخ الفكر الانساني هو عندما يرى كيف خرج هذا النور المتألق الذي شاع لأول مرة من ( المقال عن المنهج ) ، وكيف كان خروج هذا النور المتألق انسلخا عن أحضان ظلمات القرن السادس عشر والعصور الوسطى التي كانت قبل ذلك : فيها هنا يتساءل الانسان فيقول : كيف كانت في الحقيقة حال الفلسفة في مطلع القرن السابع عشر؟

الحق أن الفلسفة كانت وقتئذ ما تزال مستترقة لنير السلطة، ولم تكن لتستطيع أن تجرؤ على أن تصارع القديما ، أو تخرج عليهم ، الا بالقديما أنفسهم ، وانما كانت الفلسفة وقتئذ في غمرة من نشوة الحرية التي استولت عليها دون أن يكون لها منهج ، ودون أن يكون ثمة لهذا المنهج من قواعد ، بقدر ما كانت مستترقة لأهواء المخيلة من ناحية ، ومجموع الشهوات من ناحية أخرى ، وللأحلام والأوهام التي كانت تغرق فيها ، وتترامى لها على أنها

حقائق والواقع أنها ليست كذلك فى شىء : ذلك بأن الافكار المعنونة فى الاغراب والالغاز التى انطوت عليها الافلاطونية المحدثه والكبالية والصوفية ، والمذهب التجريبي بكل ما اصطبغ به من ألوان التطرف والاسراف ، ومذهب الشك الذى كان بمثابة النتيجة اللازمة عن المقدمات التى أسلمت اليه ، والذى امتد سلطانه حتى لقد سيطر على خير العقول ، كل أولئك صور أخذتها الفلسفة فتمثلت فيها ، مساوقة لها ، أو متعاقبة عليها ، إبان السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، وذلك قبل أن يظهر ديكارت ، وقبل أن يشع أول شعاع من ضياء مقاله عن المنهج ، وما تضمنه هذا المقال من أفكار المذهب . ويمكن أن يقال بعبارة أخرى ان صورة الفلسفة فى القرن السادس عشر كانت تتمثل فى طائفة من الفرسان الضالعين الذين كانوا يذهبون من جامعة الى جامعة ، ويكسرون السهام التى كانت تصوب الى أرسطوطاليس ، دون أن يكون لهؤلاء الفرسان مستقر فى الارض ، لأن تهمة الكفر والاحاد كانت تلاحقهم من مدينة الى مدينة . ولكى يشفوا غلتهم مما كانوا يحسون نحو الحقيقة من ظمأ محرق يكاد أن يهلكهم ، نراهم قد أغرقوا فى كل المصادر من غير ما تميز : أغرقوا فى القديم ، فى الكبالية ، فى السحر ، فى صناعة الكيمياء ( الصنعة Alchimic ) ، فى أحلام مخيلتهم . ونراهم أيضا وقد دفعهم تهورهم الأرعن الى حيث زلت أقدامهم ، فاذا هم يقعون فى قبضة محاكم التفتيش والقضاة ، واذا هم يدوقون من العذاب ألوانا فيما أودعوه من سجون مظلمة رهيبه ، واذا هم يطلب اليهم أن يعدلوا أو يبدلوا من موقفهم فيأبون أن يفعلوا ، الا أن يكون ذلك على وجه يشرفهم ، ويحفظ عليهم كرامتهم ، واذا هم يساقون أخيرا الى الاعدام على مشهد من الناس ، وهذا كله على نحو ما وقع لكل من راموس Ramus وجيوردانو برونو Giordano Bruno ، وكامبانا Campanella ، وفانيني Vanini

ومهما يكن من رأى التجريبيين والشكاك فى مذهبهم ، ومن أن هؤلاء كانوا يرون فى شكهم تحريرا للفكر ، كما أن أولئك كانوا يرون فى مذهبهم تجديدا للعلم ، إلا أن الشيء الذى لا شك فيه هو أن، الملاحظة قد زاد عددهم زيادة مخيفة حتى لقد بلغ هذا العدد نحواً من خمسين ألف فى باريس وحدها ، وفى الفترة التى سبقت مباشرة ظهور ديكارت وفلسفته . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن المذهب الالحادى من حيث هو نتيجة للمذهب التجريبي من ناحية ، ومن حيث هو ثمرة لمذهب الشك من ناحية أخرى ، قد كان له انصار كثيرون فى فرنسا ، بحيث ان قد تزعزع الايمان على ايدى كثير من رجال النهضة الاوربية من الصفوة المثقفة والعلماء والفلاسفة .

وإذا صح أن يقال عن المنهج التجريبي الذى استحدثه فرنسيس بيكون ومهد له ، أو غذاه ونماه غير بيكون من فلاسفة النهضة وعلمائها ، انه أفاد العلم ، وأثمر فى دراسة ظواهر الكون، إلا أنه لا يصح أن يقال عن مذهب الشك الذى ذهب اليه مونتاني Montaigne ، وشارون Charron ، وجاساندى Gassendi ، انه قد أفاد الفكر ، أو ثبت العقيدة ، أو انه كان سبيلا الى تحرير الفكر والايان مما علق بأحدهما أو بكليهما من أوهام وأحلام ، ومن جهالات وضلالات : ذلك بأن انتشار مذهب الشك على طريقة هؤلاء قد أدى الى أن انهارت الفلسفة المدرسية ، ولم تصبح هناك فلسفة ميتافيزيقية الهية تقوم على العقل ، وتؤدى الى اليقين ، وتثبت العقيدة فى عقول المؤمنين ، ولا تتعارض مع تعاليم الدين . لقد ساد مذهب الشك حتى أصبحت مقالات مونتاني بمثابة كتاب الفروض فى الصلوات الكنسية لدى النابهين من فضلاء القوم ، وأصبح من أجمل السمات أن يزدهى الانسان بالكفر ، وأن يضفى على عقله ثوبا من القوة التى يزعم لنفسه أنه يستمدّها من شكه ، وذلك على نحو ما صورّه مالبرانش فى قوله : « ان المرء لا يعد رجلا

بارعاً ذا نخوة مائمه يتسك في كل شيء » ( البحث عن الحقيقة : فصل من مونتاني ) .

وهكذا أسدل الستك سحب ظلمته على كثير من العقول فزلت، وتغيرت القيم الروحية والخلفية في نظر كثير من القلوب فضلمت ، وأصبح أصحاب هذه القلوب ، وأرباب تلك العقول ، ممعنين في شكهم ، مسرفين على الحق والايمان واليقين وعلى أنفسهم ، حتى ظنوا ديكرات ، وصور مقاله عن المسيح ، وأقبل الناس على هذا الكتاب ، فاذا هم يقرءون فيه ما يريد ظلمة الستك بنور اليقين ، وما يريد الايمان الى قلوب المنحرفين وعقول المسرفين ، ويقر الخلق والدين على أساس من الحق المبين ، فضلاً عما يقرءون من قواعد المسيح الذي جدد به ديكرات البسحت في العلم وفي الفلسفة على وجه لم يوفق اليه أحد غيره من العلماء والفلاسفة السابقين والمعاصرين . وديكرات فيما كتب عن هذا كله ، وفي ما انتهى اليه من هذا كله ، لم يكن يصدر الا عن ذات نفسه وقلبه وعقله وضميره ، والا عما حيى فيه بملكاته هذه من حياة لا يقلد فيها غيره ، ولا يتأثر فيها برأى غيره ، ولا ينبع فيها نهجا سبقه اليه غيره ، وانما هي الحياة الفلسفية والعلمية والعملية التي ألقى بنفسه في بحارها ، وعرف بعقله كل أغوارها ، واسكنته بقلبه كل أسرارها ، واستجلى بضميره كل أنوارها ، فما يعرض هنا من قواعد ومبادئ ، ومن أفكار وأنظار ، انما هو في الحقيقة معرض لصور تلك الحياة الخصبة التي حييها ديكرات ذاتها لها ، ومفكرا فيها ، ومستيقنا منها ، ومطمئنا اليها ، وراضيا عن كل ما بلغه منها . وآية هذا كله ، هذه العبارات الرائعة التي تحدث فيها ديكرات عن نفسه ، والتي لروعتها أحب أن أسبق القارئ فأنبهه اليها ، وأضع يده عليها ، قبل أن يقرأها في متنها من هذه الترجمة العربية التي أقدمها .

فمن هذه العبارات الرائعة التي عبر فيها ديكرات عن هذه

المعاني قوله : « ... » وإذا كان عملي قد بلغ بي من الرضاء ما جعلني أشهدكم هنا النموذجا منه ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله في تقسيم فضله مقاصد أسمى ، ولكنني أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين إلا شططا في الاقدام ، ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التي اعتقد المرء بها من قبل ، مثلا يجب على كل فرد أن يحتذيه ، ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح في شيء نكليهما .

هذان الصنفان هم أولاء الذين لاعتقادهم في أنفسهم من الخندق فوق مالهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التهور في أحكامهم ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك في المبادئ التي تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم لن يقدرُوا على ملازمة الصراط الذي يجب سلوكه للسير الاقوم ، وسيظلون في ضلال كل حياتهم .

ثم آخرون أوتوا حظا من العقل ، أو من التواضع، كي يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من أناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن .

أما أنا فلقد كنت أكون بلا شك في عداد هؤلاء الآخرين لو لم يكن لي الا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذي كان في كل زمان بين آراء أكبر العلماء . . » ( المقال عن المنهج : القسم الثاني ، ص ) .

ومن هذه العبارات الرائعة أيضا ، هذه الصيغة التي صاغ فيها المبدأ الاول من مبادئ منهجه ، وهو المبدأ الذي يكاد أن يكون

أساسا لكل فلسفة ديكرت في كل نواحيها ، والذي يعبر عنه فيقول :

« الاول ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، وألا أدخل في أحكامي الا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء ونميز ، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك . »  
( المقال عن المنهج : القسم الثاني ، ص ) .

وانظر بعد ذلك فيما يتحدث به ديكرت عن نفسه . وقد وضع أفكاره موضع الشك باحثا عن اليقين ، لا مستمرا في هذا الشك ولا مغرقا فيه كاللأدريين ، ولكن واقفا به ، ومنتهيا منه ، عند حد اليقين ، وذلك حيث يقول : « وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ( ويعني بها تلك القواعد التي وضعها للأخلاق وتشتمل على ثلاث حكم أو أربع أطلق عليها اسم الاخلاق المؤقتة ) ، ووضعتها ناحية مع حقائق الايمان ، التي لها دائما المنزلة الاولى في اعتقادي ، حكمت بأن ما بقي من آرائي ، هو أن أعمل على التخلص منها . ولما كنت عظيم الامل في أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على وجه أحسن ، مما لو ظللت محبوسا في حجرتي التي وافتنى فيها كل تلك الافكار ، فقد أخذت في السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفي السنوات التسع التالية كلها لم أصنع شيئا الا الطواف هنا وهناك في العالم ، مجتهدا أن أكون فيه متفرجا لا ممثلا ، في كل المهازل التي تمثل فيه . ولما كنت أخص تفكيري في كل شيء بما يمكن أن يجعله موضعا للشك ، ويكون سببا في خطئنا ، فأنني انتزعت مع ذلك من عقلي كل الاخطاء التي استطاعت أن تتسرب اليه من قبل ، وما كنت في ذلك مقلدا للأدريين الذين لا يشكون الا لكي يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائما حياري ، فأنني على عكس ذلك ، كان كل مقصدي لا يرمى الا الى اليقين ،

والى أن أدع الارض الرخسوة والرمل ، لسكى أجد الصخر أو الصلصال ٠٠ » ( المقال عن المنهج : القسم الثالث ، ص ) .

وانظر كذلك فيما يتحدث به ديكارت عن أخلاق الناس ، وعن وضعه هذه الأخلاق موضع الشك ، كما وضع آراءه هو هذا الموضع من قبل ، وذلك حيث يقول : « فى الحق انى حينما كان جيسى مقصورا على ملاحظة أخلاق الناس ، فانى لم أجد فيها موضعا ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظته من قبل فى آراء الفلاسفة . وقد كان أكبر ما حصلته من فوائدها ، أننى لما رأيت أمورا كثيرة تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فان أمما عظيمة تجمع على قبولها والرضا عنها ، فاننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما بحكم التقليد أو العادة . ، وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الأوهام التى تستطيع أن تخمد فينا النور الفطرى ، وتنقص من قدرتنا على التعقل . ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين فى الدرس على تلك الحال فى كتاب العالم ، وفى الاجتهاد فى تحصيل بعض التجربة فاننى عزم فى بعض الأيام أن أبحث أيضا فى نفسى . وأن أصرف قواى العقلية كلها فى اختيار الطرق التى يجب أن أسلكها ، وقد لقيت فى هذا على ما يبدو لى نجاحا لم أكن لألقاه لو أننى لم أفارق قط بلادى ولا كتبى » . ( المقال عن المنهج : القسم الأول ، ص ) .

وليس من شك بعد ما قدمت بين يديك من تلك النصوص الرائعة ، التى صاغها ديكارت صياغة بارعة ، فى أن ديكارت حين عبر عن الحكم الثلاث التى انطوت عليها قواعد أخلاقه المؤقتة ، انما كان من دقة التفكير ، وبراعة التعبير ، بحيث استطاع هنا أن يقدم لقارئ مقاله عن المنهج مرآة مجلوة صادقة لما أخذ به نفسه من قواعد السلوك فى حياته العملية الفردية والاجتماعية ، وهى هذه القواعد التى كان فى اتباعه لها ، وصوله الى أسعد حياة يقدر عليها ، وبنى

هذه الحياة التى تحققت له فيها كل المعانى العليا التى سبقت الإشارة اليها ، وذلك على الوجه الذى يحدتنا فيه ديكرت عن نوع الحياة التى كان يحياها ، ونوع الضوابط التى كان يخضعها لها ، فيقول: «... ولكنى لا أحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فاننى وضعت لنفسي قواعد للأخلاق مؤقتة لا تشتمل الا على ثلاث حكم أو أربع أدلى اليكم بها :

الاولى أن أطيع قوانين بلادى وعواندها، مع ثبات فى محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى ، وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعا لأكثر الآراء اعتدالا ، وأبعدها عن الافراط ، والتى أجمع على الرضاء بها فى العمل أعقل الذين سأعيش معهم : لأننى - لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائى الخاصة أى اعتبار وذلك لأنى أردت أن أختبرها جميعا - أيقنت أنه ليس فى استطاعتى أن أعمل خيرا من اتباعى لآراء أعقل الناس، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا ، فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعا للذين أعيش معهم ، ولأجل أن أعرف ما هى حقيقة آرائهم ، كان واجبا على أن أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب فى ذلك هو أن فساد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل ما يعتقدون ، بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون .

وكانت حكمته الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزما وتضميما فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صحت عزيمة عليها ، أقل ثباتا مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا .

وكانت حكمته الثالثة أن اجتهد دائما فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجمله أن أعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة ، بحيث



أننا اذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يختص بالأمر الخارجة عنا ، فإن كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة اليها مستحيل على الإطلاق ، وهذا وحده فيما بدا لي ، كان كافيا لأن يصدني عن الطمع في المستقبل في شيء لا أناله ، ولأن يجعلني راضيا . . » ( المقال عن المنهج : القسم الثالث ، ص ) .

## ٦ المقال عن المنهج في ترجمته العربي

في عام ١٩٢٥ حولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية الى جامعة حكومية ، وكنا وقتئذ سبعة من الطلاب قد التحقنا بالسنة الأولى من قسم الفلسفة بكلية الآداب بهذه الجامعة الحكومية التي كانت الهيئة القائمة على التدريس فيها من كبار الأساتذة الأجانب في الجامعات الأوروبية ، ولم يكن بين أعضاء هيئة التدريس هذه الا أستاذ مصرى واحد وهو أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين . فلم نكن نتلقى بطبيعة الحال محاضرات بالعربية الا محاضراته التي كانت في الأدب العربي ، على حين كنا نتلقى محاضرات المواد الأخرى بلغات أصحابها من أساتذة باريس وبروكسل ولندن وغيرها ، فدرسنا الفلسفة في أول عهدنا بالدراسة الجامعية في السنة الأولى على يد أستاذ جليل القدر من أساتذة السوربون هو الأستاذ اميل برييه ، ثم على تعاقب السنين الدراسية حتى آخر مرحلة الليسانس على أيدي الأساتذة الأجلاء لالاند وربى واسرتييه وروجييه وبواييه ، الا الفلسفة الاسلامية التي أبى أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين الا أن يقوم بتدريسها أستاذ مصرى مسلم فعميت

لها المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق في عام ١٩٢٧ ، كما كان قد عين من قبل في عام ١٩٢٦ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمي أستاذاً لعلم الأخلاق ، فكانت الفلسفة الإسلامية والأخلاق النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرسان باللغة العربية من بين المواد الفلسفية جميعاً .

ولعل من أطرف ما أذكر أننا ونحن طلاب للفلسفة في السنة الأولى لم نسمع عن ديكارت ، ولم نعرف شيئاً من فلسفة ديكارت ومنهج ديكارت ، من أستاذنا الفرنسي اميل برييه الذي كان يحاضرنا وقتئذ في تاريخ الفلسفة اليونانية ، وإنما كان ذلك من أستاذنا الدكتور طه حسين ، وفي محاضراته عن الشعر الجاهلي ، وفي كتابه الذي كتبه بعد ذلك عن هذا الشعر الجاهلي ، وذلك حيث كان يحدثنا عن منهجه في البحث ، وأنه آثر أن يكون هذا المنهج هو منهج ديكارت في العلم وفي الفلسفة ، كما سبق أن أثبت هذا آنفاً بصدد الحديث عن أثر منهج ديكارت ، لا في الفلسفة والعلم فحسب ، ولكن في الآداب والفنون أيضاً ، ولا في أوروبا وحدها فحسب ، ولكن في مصر أيضاً ( أنظر ص من هذا التقديم ) .

على أننا لم تكد تمضي علينا سنة وسنة حتى أصبحنا طلاباً متخصصين في الفلسفة بالسنة الثالثة ( عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ) ، وإذا نحن بين يدي أستاذنا لالاند الفيلسوف الفرنسي ، وإذا هو يحاضرنا في تاريخ الفلسفة الحديثة ، لا سيما فلسفة ديكارت وتلاميذه من فرنسيين وغير فرنسيين ، وإذا هو يدرس معنا ، ويفسر لنا ، نصوصاً مما خلف الفلاسفة المحدثون ، وكان في مقدمة هذه النصوص وعلى رأسها نص لديكارت ، وآخر لديبنز ، وثالث لباركلي ، ولم يكن نص ديكارت إلا ( المقال عن المنهج ) . ومن هنا عرفنا ديكارت على وجه أوسع ، ووقفنا على منهجه ومذهبه في صورة أجمع ، بحيث تبيننا لماذا آثر أستاذنا الدكتور طه حسين

عنهج ديكارت بأقباله عليه ، واعجابه به ، واصطناعه له ، فضلا عما بلغنا من الأعماق ، وما استوعبنا من التفاصيل ، التي لم يكن حديث الدكتور طه عنها الا لمناسبة دعت الحاجة الى الالمام بها ، والاشارة اليها ، والتطبيق على دراسة الشعر الجاهلي في صورة جديدة ليس له سابق عهد بها .

وفي عام ١٩٢٩ تخرجنا نحن الطلاب السبعة من قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، وحصلنا على درجة الليسانس في الآداب من هذا القسم ، وكان الزميل الصديق المرحوم الاستاذ محمود محمد الحضيرى أحدنا نحن السبعة من طلاب الفلسفة ؛ وكان رحمه الله من مطلع شبابه يأخذ سميت العلماء المحققين في كل شيء يتصل بالبحث عن الحقيقة بحثا جديا ، كما كان قد توفر له من ادوات هذا البحث الجدى طائفة من اللغات القديمة والحديثة التي هيأته أحسن تهيئة لأن يكون مترجما مدققا ، ومعلنا محققا ، ومستوعبا مستعمقا ، فاذا هو يستغل ما أتاحه الله له من هذا كله استغلالا منتجا موفقا ، كانت ثمرته الناضجة هي هذه الترجمة العربية الأمانة لمقال ديكارت عن المنهج ، وهذه المقدمة الرصينة التي قدمها بين يديها ، وهذه التعليقات المستفيضة التي علق بها عليها وكل أولئك ان دل على شيء فأنما يدل على أنه الزميل الصديق رحمه الله قد اصطنع في ترجمته هذه من الدقة اقصاها ، بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما ورد في النص الفرنسى الا احصاها ، واستقصاها ، والا عرض لها ، وانعم النظر فيها ، والا شرحها وعلق عليها ، ووازن بينها وبين ما يقابلها عند المتقدمين والمتأخرين ، من فلاسفة اليونان والمسيحيين والمسلمين ، فبلغ من هذا كله مبلغا حسبه ان جعله في حياته العلمية والعملية محلا لعجاب اساتذته وزملائه به ، وتقدير أولئك وهؤلاء له ، كما جعله بعد وفاته اهلا لرضا ربه عنه ، واسباغ رحمته عليه .

لها المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في عام ١٩٢٧ ، كما كان قد عين من قبل في عام ١٩٢٦ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمي أستاذنا لعلم الأخلاق ، فكانت الفلسفة الإسلامية والأخلاق النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرسان باللغة العربية من بين المواد الفلسفية جميعا .

ولعل من أطرف ما أذكر أننا ونحن طلاب للفلسفة في السنة الأولى لم نسمع عن ديكارت ، ولم نعرف شيئا من فلسفة ديكارت ومنهج ديكارت ، من أستاذنا الفرنسي اميل برييه الذي كان يحاضرنا وقتئذ في تاريخ الفلسفة اليونانية ، وانما كان ذلك من أستاذنا الدكتور طه حسين ، وفي محاضراته عن الشعر الجاهلي ، وفي كتابه الذي كتبه بعد ذلك عن هذا الشعر الجاهلي ، وذلك حيث كان يحدثنا عن منهجه في البحث ، وأنه أثر أن يكون هذا المنهج هو منهج ديكارت في العلم وفي الفلسفة ، كما سبق أن أثبت هذا آنفا بصدد الحديث عن أثر منهج ديكارت ، لا في الفلسفة والعلم فحسب ، ولكن في الآداب والفنون أيضا ، ولا في أوروبا وحدها فحسب ، ولكن في مصر أيضا ( أنظر ص من هذا التقديم ) .

على أننا لم تكد تمضي علينا سنة وسنة حتى أصبحنا طلابا متخصصين في الفلسفة بالسنة الثالثة ( عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ) ، وإذا نحن بين يدي أستاذنا لالاند الفيلسوف الفرنسي ، وإذا هو يحاضرنا في تاريخ الفلسفة الحديثة ، لا سيما فلسفة ديكارت وتلاميذه من فرنسيين وغير فرنسيين ، وإذا هو يدرس معنا ، ويفسر لنا ، نصوصا مما خلف الفلاسفة المحدثون ، وكان في مقدمة هذه النصوص وعلى رأسها نص لديكارت ، وآخر لليبنز ، وثالث لباركلي ، ولم يكن نص ديكارت الا ( المقال عن المنهج ) . ومن هنا عرفنا ديكارت على وجه أوسع ، ووقفنا على منهجه ومذهبه في صورة أجمع ، بحيث تبيننا لماذا أثر أستاذنا الدكتور طه حسين

منهج ديكارت باقباله عليه ، واعجابه به ، واصطناعه له ، فضلا عما بلغنا من الأعماق ، وما استوعبنا من التفاصيل ، التي لم يكن حديث الدكتور طه عنها الا لمناسبة دعت الحاجة الى الامام بها ، والاشارة اليها ، والتطبيق على دراسة الشعر الجاهلي في صورة جديدة ليس له سابق عهد بها .

وفى عام ١٩٢٩ تخرجنا نحن الطلاب السبعة من قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، وحصلنا على درجة الليسانس فى الآداب من هذا القسم ، وكان الزميل الصديق المرحوم الاستاذ محمود محمد الحضيرى أحدنا نحن السبعة من طلاب الفلسفة ؛ وكان رحمه الله من مطلع شبابه يأخذ سميت العلماء المحققين فى كل شىء يتصل بالبحث عن الحقيقة بحثا جديا ، كما كان قد توفر له من ادوات هذا البحث الجدى طائفة من اللغات القديمة والحديثة التي هيأته أحسن تهيئة لأن يكون مترجما مرققا ، ومعلقا محققا ، ومستوعبا مستعمقا ، فاذا هو يستغل ما أتاحه الله له من هذا كله استغلالا منتجا موفقا ، كانت ثمرته الناضجة هي هذه الترجمة العربية الأمانة لمقال ديكارت عن المنهج ، وهذه المقدمة الرصينة التي قدمها بين يديها ، وهذه التعليقات المستفيضة التي علق بها عليها وكل أولئك ان دل على شىء فانما يدل على أن الزميل الصديق رحمه الله قد اصطنع فى ترجمته هذه من الدقة اقصاها ، بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما ورد فى النص الفرنسى الا احصاها ، واستقصاها ، والا عرض لها ، وانعم النظر فيها ، والا شرحها وعلق عليها ، ووازن بينها وبين ما يقابلها عند المتقدمين والمتأخرين ، من فلاسفة اليونان والمسيحيين والمسلمين ، فبلغ من هذا كله مبلغا حسبه ان جعله فى حياته العلمية والعملية محلا لاعجاب اساتذته وزملائه به ، وتقدير أولئك وهؤلاء له ، كما جعله بعد وفاته اهلا لرضا ربه عنه ، واسباغ رحمته عليه .

واذا كان ذلك كذلك ، وكنت مراجعا لهذه الترجمة العربية لمقال ديكارت عن المنهج ، وهى هذه الترجمة التى بها علينا زميلنا الصديق الراحل الاستاذ محمود الحضيرى - أحسن الله مثواه - منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، حين كان لا يزال فى مستهل شبابه الغض ، وفى ابله حياته فى طلب العلم ، سواء فى مصر أو فى فرنسا ، فقد آثرت أن تظل هذه الترجمة على ما هى عليه من مادة الفها صاحبها منها ، ومن صورة صاغها عليها ، يبحث تكون نموذجاً لعمل علمى رائع ، قام به شاب عربى بارع ، كما رأيت ان أضيف إليها هذا التقديم الذى ضمنت به بعض المعلومات التى تتصل بالفلسفة ومنهجها قديما وحديثا ، فلعل فى ذلك ما يلقي بعض الأضواء على بعض المسائل التى تتصل بموضوع (المقال عن المنهج) من قريب أو من بعيد .

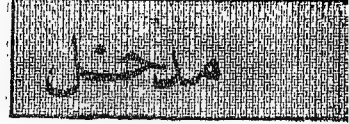
وانا اذ أقدم اليوم هذا ( المقال عن المنهج ) الذى وضعه بالفرنسية فيلسوف عظيم هو رينيه ديكارت ، وترجمه الى العربية مترجم دقيق هو محمود محمد الحضيرى ، فانما أقدم الى قراء العربية بصفة عامة ، وإلى طلاب الفلسفة والعلم الباحثين عن الحقيقة بصفة خاصة ، كتاباً من امهات الكتب الفلسفية ، عمل عمله ، وآتى أكله ، فى نواحي الحياة الانسانية كلها ، وذلك فى طبعته الجديدة هذه التى عنيت بها واصدرتها الدار المصرية للتأليف والترجمة بوزارة الثقافة ، محمود مشكورة ، على ما تنهض به من احياء لتراث ماضى مع الزمن ، ولكنه سيظل ابقى على الزمن الباقي من الزمن .

القاهرة - الروضة فى ٣ أبريل سنة ١٩٦٦

الدكتور محمد مصطفى حلمى



رئيه ديڪارت



## - ١ -

### حياة ديكارت.

من المستطاع أن تبسط نظريات علم مثل علم الطبيعة ، وأن يعترف في هذا البسط لكل من اشترك في تكوينها بما له من أثر ، أو أن يهمل هذا الاعتراف ، بل وأن يعرض عن ذكر الشخص الذي جاء للعالم ببعض هذه النظريات ، دون أن يختلف فهم الناس لها ، ونظرهم فيها ؛ ولكن ليس من المستطاع أن نفهم النظريات الفلسفية فهما واضحا متميزا بدون أن نعرف موضعها من مذاهب القائلين بها ، ومن غير أن نلم بالتاريخ العقلي للذين اشتركوا في تكوينها . والتاريخ العقلي لاي فيلسوف هو جزء من تاريخ حياته ؛ واذن فمن المفيد أن نستعين على فهم ديكارت بالوقوف على موجز لتاريخ حياته ؛ وسنرى في هذه الفذلة التالية مبلغ تفرغه لتحقيق مقاصده ، وهي البحث عن منتهى ما يستطيع أن يصل اليه العقل من أشرف المعارف وأنفعها للإنسان .



ولد رينيه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ ميلادية في مدينة صغيرة اسمها لاهاي تقع على الشاطئ الأيمن لنهر لاكريز Le Creuse وهو يصب في نهر آخر يدعى Veinne يمد نهر اللوار أكبر أنهار فرنسا . ولاهاي من أعمال اقليم توران Touraine ، ولكن أصل أسرة الفيلسوف من اقليم يواتو ، واليه ينتسب عندما انتقل الى هولندا (١) .

وكانت أسرته من طبقة النبلاء المنوسطين ، اذ كان أبوه يواقيم ديكارت مستشارا في برلمان اقليم بريتانيا ، وكان جده من جهة أبيه طبيبا ، أما جده من جهة أمه فقد كان حاكما لبواتيه .

وقضى الفيلسوف سن الطفولة في لاهاي مسقط رأسه ، وعنيت بتربيته جدته اذ أن أمه ماتت بعد ولادته بنحو عام ، وانتقل أبوه مع ولديه شقيقى الفيلسوف الى بريتانيا . وفي سنة ١٦٠٤ ألحق بمدرسة لافلش La Flèche وهي مدرسة أسسها اليسوعيون سنة ١٦٠٣ وكان ملك فرنسا هنرى الرابع (٢) قد وهبهم دارا لها فأطلقوا عليها اسم المدرسة الملكية ، وعنى اليسوعيون بأمور التعليم فيها واختاروا لها خير الرؤساء والمدرسين ، حتى أصبحت ، كما يقول ديكارت « من أشهر مدارس أوربا » وانها خير مكان تعلم فيه الفلسفة (٣) .

---

(١) ذكر في سجل جامعة ليدن الهولندية في ٢٧ يونيو سنة ١٦٣٠ على الوجه التالى Renatus Descartes Picto 33 Math أى رينيه ديكارت أصله من يواتو عمره ٣٣ عاما ، رياضى . ويلاحظ أن عمره هنا يقل سنة من عمره الحقيقى اذ انه ولد في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فيكون عمره اذ ذاك ٣٤ عاما وربع عام تقريبا . انظر شارل أدام حياة ديكارت وأعماله ١٨ ص ١٢٤ هامش حرف C (٢) عاش من سنة ١٥٥٣ - سنة ١٦١٠ وتولى الملك سنة ١٥٨٩ واعترضته فتن لم ينته منها الا بعد عناء وصبر ، ولما استقر له الأمر نهض باصلاح افاد مملكته وفي سنة ١٦١٠ اغتاله أحد المتعصبين ضده . (٣) المقال عن المنهج ص ٧ من الترجمة التالاية والتعليق في ص ٧ و٨

وقد تلقى فيها علومه الاولى كما رتبها فى المقال عن المنهج فى صفحاتى ٨ و ٩ بادنا بالقصص ومنتها بالبلاغة والشعر ، وفى السنوات الثلاث الاخيرة درس الفلسفة وكانت تنقسم الى أقسام ثلاثة المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة ، وكان علم الاخلاق يعلم مع المنطق والرياضيات مع الطبيعيات وكان أستاذة فى الفلسفة راهبا يدعى الاب فرانسوا فيرون François Véron وهو رجل صالح تقى بارع فى المناقشة والجدل ، أما أساتذته فى الرياضيات فقد كانوا على فضل وعلم ، وكان أحدهم يلقب باقليدس الجديد (١) وعرف فى المدرسة أنه كان متمسكا بالدين ، مخلصا للملك ، نابغا فى الرياضيات حتى لقد كان يعجز أساتذته بعض الاحايين ٠٠ وكان أحد مديرى الكلية يمت بالقراة الى أسرة أمه فحاطه بالعناية .

وقد ذكر بابيه فى كتابه عن حياة ديكارت أنه صنع وهو لا يزال فى الكلية منجبا للمناقشة الفلسفية شبيها بطريقتة الرياضيين فى استدلالاتهم (٢)

وانتهى من الكلية سنة ١٦١٢ ، ولا يعرف على وجه التحقيق كيف أنفق السنوات السبع التالية بالتفصيل ، ولكن الذى لاشك فيه أنه نال شهادة البكالوريا واليسانس فى القانون الدينى

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٢٣ و ٢٤

(٢) انظر ص ٥ حيث يقول «الفيت نفسى منذ الحداثة فى بعض الطرق التى قادتنى الى انظار حكم ، ألفت منها منهجا ، به يبدو لى ان عندى وسيلة لزيادة معرفتى بالتدريج ، الخ » وانظر الهامش رقم ٣ فى نفس الصفحة وبابيه BAILLET المذكور هو صاحب كتاب حياة السيد ديكارت La Vie de Monsieur Descartes الصادر فى باريس سنة ١٦٩١ وهو كتاب غنى بالوثائق لا يزال يرجع اليه الباحثون فى ديكارت ، وقد ولد بابيه فى سنة ١٦٤٩ ومات سنة ١٧٠٦ كان راهبا واشتغل امينا لمكتبة وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه عن حياة ديكارت وكتاب حياة القديسين فى سبعة عشر مجلدا .

والمدينة من جامعة بواتيه في ٩ و ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ (١) ومن المحتمل أنه درس قليلا من الطب أثناء اقامته في بواتيه . وبعد أن أتم دروسه على هذا الوجه ، وانتهى من الدور الذي يأخذ فيه العلم عن غيره ، وأصبح يشق أنه حر في تفكيره وعمله ، وبعد أن وقف على العلم الذي كان يعلم في المدارس ويحفظ في الكتب ، ورأى أنه ليس العلم الذي تستطيع الانسانية أن تقنع به اذا بلغت رشدها ، صمم على أن يطلب علما أجل من ذلك العلم من مصادره الاولى وهي العقل والعالم . وفي ذلك يقول في **المقال عن المنهج** : « من أجل هذا فأننى ما كدت أن تسمح لى السن بالتحليل من رتبة معلمى حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب واذ صممت على ألا ألتمس علما الا ما اشتملت عليه نفسى ، أو ما كان فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فأننى أنفقت بقية شبابى فى السفر ، وأن اتصل بقصور وبيوش وأغشى اناسا من مختلف الامزجة والدرجات ، وفى جمع التجارب المختلفة ، وأن أبتلى نفسى فيما ساق الى الحظ من مصادفات وأن أفكر أينما كنت فى الامور التى كانت تعرض لى تفكيرا يمكننى أن أستخلص منها فائدة الخ (٢)

ورأى أبوه ان يهيبه له مستقبلا حربيا ، فنصحته أن يتطوع فى جيش هولندا ، اذ أنه كان أتم جيوش أوروبا نظاما بعد انتصاره على الاسبان واجلائه اياهم عن بلد ظلوا يحكمونه ويظلمون أهله زمنا طويلا . وكان شبان أوروبا من أبناء النبلاء يعتبرون هذا الجيش خير مدرسة حربية فكانوا يلتحقون به ويعدون عدتهم كلها على نفقاتهم ويستصحبون معهم تابعا على الاقل ليكون فى خدمتهم . وكان لديكارت من اليسار ما يمكنه من ذلك ، اذ أنه ورث عن أمه

(١) انظر نص شهادة الجامعة فى كتاب ادام حياة ديكارت ص ٤٠ هامش

حرف A

(٢) ص ١٤ ، ١٥ وانظر التعليقة رقم ١ ص ١٥

وجدته وبعض حالاته ثروة لا يستهان بها ، وقد جعلته يقول فيما بعد فى المقال عن المنهج ( ٠٠٠ لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، أننى فى حالة تضطرنى الى ان أجعل من العلم صنعة » (١)

وفى أوائل سنة ١٦١٨ سافر الى هولندا وكان يدعى اذ ذاك سيد برون باسم ضيعة آلت اليه عن طريق الميراث (٢) . وقد ألهاه هذا الوسط الحربى عن شغفه بالعلوم ، على أن الصدف جمعته بطبيب هولندى اسمه اسحق بيكمن Beekman كان ينوى السفر الى فرنسا فارتاح الى ان يعرف شابا فرنسيا ذا مكانة . وكان بيكمن متبحرا فى كل أنواع العلوم والمعارف فائتلف الاثنان وتمكنت بينهما أسباب الصداقة ، وكان لبيكمن الفضل فى بعث ديكارت الى درس علم الطبيعة والرياضيات والبحث فى تأسيس روابط بينهما ، وكان له على العموم كما يكون المعلم أو الاخ الاكبر ، وقد اعترف ديكارت بماله عليه من فضل فقال «كنت نائما فأيقظتنى» (٣) . واليه أهدى فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦١٨ أول كتبه موجز فى الموسيقي (٤) Compendium Musicae . وكانا يدرسان الرياضيات معا لكي يطبقاها على علم الطبيعة وكذلك كانا يدرسان علم الطبيعة لكي يرداه الى الرياضيات .

وغادر ديكارت هولندا فى ابريل سنة ١٦١٩ ثم ذهب الى ألمانيا وحضر تتويج القيصر فرديناند الثانى فى فرانكفورت فى ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ ثم ألجأه بدء الشتاء الى قرية لم يذكر اسمها ولكن المرجح أنها قرية بجوار أولم Ulm (٥) الواقعة على نهر

(١) ص ١٤

(٢) M. du Perron على نحو ما يدعى النبلاء باسماء أملاكهم

(٣) أعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٥١ و ١٦٢ من مطبوعة آدام وتانرى

(٤) شارل آدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٥

(٥) راجع كلامه فى مطلع القسم الثانى ص ١٨ والتعليقتين الاولى والثانية

فى نفس الصفحة .

الدانوب ، وقد اعتزل هناك فى حجرة دافئة كان يقضى فيها اليوم كله وحده ، منصرفا الى التفكير . وكانت أولم مشهورة بمن أنجبت من الرياضيين حتى لقد كان يقال فى بعض جامعات ألمانيا « من أولم يأتى الرياضيون Ulmenses sunt Mathematici » (١) والمرجح أنه زار الرياضى المشهور فاولهابر .

وقد حدث فى هذه الفترة حادث ذو شأن كبير فى حياة الفيلسوف وقد أفرد له رسالة صغيرة سماها Olympica (٢) ومعناها عند اليونان الوطن الالهى الذى هو فوق وطن المعقولات وآلهة الشعر وفوق وطن المحسوسات والتجريبات . ذلك أنه بعد استغراقه فى التأمل والتفكير وجد فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد علم يستحق الإعجاب وهو يسجل ذلك بقوله « X novembris 1619, cum Plinus forem Enthousiasmo, et mirabilis, scientiae fundamenta reperirem »

ويقول باييه بعد وصفه لعناء ديكارت فى البحث عن طريق يؤدى الى الحقيقة حتى اهتدى الى « قواعد علم يستحق الإعجاب » ، « بلغ به التعب والاعياء ان كاد يشتعل مخه ، وقد أصابه نوع من الحماس والحمية سما به الى حيث يرى الرؤيا » (٣) ثم يقول باييه ان الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعبته فى هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله ، ولما استيقظ قرأ فى مجموعة شعر كان يحتفظ به (٤)

Quod vitae sectabor iter ? أى سبيل من سبيل الحياة تتبع ؟

(١) شارل آدم الكتاب المذكور ١٨ ص ٤٧

(٢) أعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٧٩ - ١٨٨ مطبوعة آدم وتانرى

(٣) أى « فى ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلىء حماسا قواعد علم يستحق الإعجاب » فى المكان المذكور .

(٤) باييه حياة المسيو ديكارت La Viede Monsieur Des-Cartes

والظاهر أن الفيلسوف قد أخذه شيء من التصوف على أثر استكشافه الكبير ؛ لأن الرجل العظيم إذا قام بعمل جليل لم يسبق إليه ، وأبصر في لحظة واحدة مدى ما وصل إليه وما يمكن أن يصل إليه عمله ، نسي نفسه وفنى في ذات أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل في نجاحه إنما هو لله (١) .

ولكن أى استكشاف اهتدى له ديكارت في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ؟ لم يتفق الباحثون في ديكارت على رأى واحد ؛ ذلك بأن الكونت فوشيه دى كارى Foucher de Careil ، وهو أول من نشر رسالة أولمبيكا ، لا يشك في أن المقصود بهذا الاستكشاف هو المنهج الديكارتي بأكمله (٢) . والاستاذ ميه Millet يقول بأن ديكارت استكشف في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد منهجه وهندسته التحليلية (٣) . وكذلك الاستاذ كينوفنشر يقو بأن ديكارت استكشف في نيوبرج (٤) في هذا التاريخ منهجه وقواعد فلسفته (٥) . والاستاذ ليارد Liard يرى أن ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ هو تاريخ استكشاف ديكارت لمنهجه (٦) . والاستاذ هملان يذهب هذا المذهب ويقول : ان الذى اهتدى اليه ديكارت في هذا التاريخ هو هندسته التحليلية باعتبارها وجها من وجوه منهجه

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٩ و ٥٠ وميلو أزمة صوفية عند ديكارت سنة ١٦١٩ والتعليق في ص ١٧ و ١٨

(٢) أعمال ديكارت غير المطبوعة المقدمة والمدخل .

(٣) تاريخ ديكارت قبل سنة ١٦٣٧ ١٦٣٧ Histoire de Descartes avant ١٨٦٧ ص ٧٤ باريس سنة ١٨٦٧

(٤) ذلك لأن الاستاذ فيشر يرى أن عزلة ديكارت الحقيقية كانت في نيوبرج وهى بالقرب من أولم حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٧٥

(٥) الكتاب المذكور ١٠ ص ١٨١ وما بعدها

(٦) ديكارت ص ١٠٧

العام (١) • ولا يختلف عن ذلك رأى الأستاذ ينجم (٢) •  
أما الاستاذ أدام فهو لا يجارى هؤلاء العلماء ؛ ويقول : ان هذا  
النص « فى يوم ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وجدت وأنا ممثلى حماسا  
قواعد علم يستحق الاعجاب » لا يفيدنا فى تحديد هذا العلم ، واذن  
فلا سبيل لنا الى معرفته الا مجرد الظنون ، اذ أن ديكارت اهتدى  
حوالى هذا التاريخ الى علوم كثيرة تستحق الاعجاب ، وهى : الرياضه  
العامة ، واصلاح الجبر ، والتعبير عن المقادير بخطوط ، وعن  
الخطوط برموز جبرية (٣) واذن فنحن فى حيرة فى اختيار أحدها  
والجزم بأنه مقصود ديكارت (٢) •

والاستاذ ميلو يتفق مع الاستاذ أدام فى الخروج على رأى  
الكثرة وله رأى خاص به ؛ ذلك بأنه يذهب الى أن يوم ١٠ نوفمبر  
سنة ١٦١٩ ليس تاريخ استكشاف المنهج ، أو اصلاح الجبر ، أو  
الاهتداء الى الهندسة التحليلية ، أو تاريخ غيرها من تجديدات  
ديكارت العلمية ، وإنما هو يوم وصل فيه الى حالة صوفية سامية ،  
فرأى رؤيا « ليس للنفس الانسانية فيها أى نصيب » كما يقول  
ديكارت نفسه ، ويرى الاستاذ ميلو أن الاولى تفسير هذه الرؤيا  
مع ما عقبها من أحلام بأن الفيلسوف سمع صوتا الهيا يأمره « انهض  
وأقم هيكل العلوم جميعها بنفسك ، واحذافى هذا حذو الشعراء »  
وخذ بما تلهم كما يأخذون بما يلهمون ، واعرض عن تعليم الكتب ؛  
اذ سوف تنمو بذور العلوم الموجودة فى نفسك من تلقاء ذاتها ،  
ولسوف تهتدى الى الانسانية العلم العام الذى يسع كل شيء » •

(١) مذهب ديكارت ٣ ص ٤٤ !

(٢) ينجم JUNG MANN رينيه ديكارت ١٦ ص ٢ ، وهو يقول أيضا  
ان الاستكشاف كان فى نيوبرج

(٣) أى الهندسة التحليلية راجع المقال المنهج ص ٣٣ - ٣٥

(٤) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٩ الى ٥٥

وينتقد الاستاذ ميلو التأويل المشهور لنص **الاوليمبيكا** ، ورأيه أن ديكارت اهتدى في يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ الى ان ينحو في حياته العقلية نحواً جديداً « أى طرق الحياة تتبع ؟ Quod vitae sectabor iter ? وذلك بأن يعرض عن تحصيل علوم السابقين ومعرفة مقالات المتقدمين وان يقتصر على البحث عن العلم الذى تشتمل عليه نفسه ، وألا يستفيد الا من الكتاب الكبير ، كتاب العالم (١) .

ولكننا رأينا أن ديكارت هجر دراسة الآداب كل الهجر وعزم على ألا يلتبس من العلم الا ما اشتملت عليه نفسه وصمم على أن ينفق بقية حياته في السفر وجمع التجارب في سنة ١٦١٦ أى بعد انتهائه من جامعة بواتييه مباشرة (٢) وقبل أن يبدأ السفر في سنة ١٦١٨ ، أما نص **الاوليمبيكا** فقد كتبه في منزله بألمانيا في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ كما ورد في مطلع النص . واذن فنحن نرى أن قول الاستاذ ميلو ليس من القوة بحيث يجوز لنا قبوله والاخذ به ، ولا يسعنا الا أن نأخذ برأى الكثرة ، أى أن ديكارت استكشف منهجه في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، وليس هذا لمجرد قول الكثرة به ، اذ أن ديكارت نفسه يقول انه أرجح ان يجد الحقيقة شخص واحد من ان تجدها أمة بأسرها ، لاننا نرى أن كل ما استكشفه ديكارت في العلوم انما يقوم على أساس منهجه ، وليس لديكارت الا منهج واحد هو قواعد كل العلوم ، وهى قواعد تستحق كل إعجاب .

وفى اليوم التالى نذر ان يحج الى كنيسة العذراء فى لورت - Notre Dame de Lorette حمداً لله على أن وفقه لهذا الاستكشاف ، وان يسعى اليها من البندقية سيرا على قدميه ، وكان

(١) ميلو أزمة صوفية عند ديكارت فى سنة ١٦١٩ (٩)

(٢) المقال عن المنهج ص ١٤ و ١٥ انظر التعليقة رقم ١ ص ١٥ والمقدمة



يريد أن يفى بهذا النذر قبل انتهاء شهر نوفمبر ولكنه لم يف به  
الا بعد خمس سنين (١) .

وغادر منزله الذى وافته فيه قواعد فلسفته قبيلا ان ينتهى  
الشتاء أى فى سنة ١٦٢٠ وقضى التسع السنوات التالية فى السفر  
هنا وهناك فى العالم مجتهدا ان يكون فيه متفرجا لا ممثلا فى كل  
المهازل التى تمثل فيه (٢) . وقد ياع أملاكه فى يوانيه التى ورثها  
من جهة أمه فى سنة ١٦٢٣ ويظهر من ذلك أنه كان قد صمم رأيه  
على ألا يستقر فى وطنه (٣) . وذهب الى إيطاليا وطاف فيها وحج  
الى لوريت سنة ١٦٢٤ موفيا بنذره القديم وحضر احتفالا دينيا  
كبيرا فى رومة فى السنة التالية وبعد عدة أسفار فى إيطاليا عاد  
الى وطنه وفكر أبوه فى أن يوطد له مركزا فى فرنسا فعرض عليه  
ان يشترى وظيفة حاكم عسكري Lieutenant général فأبى  
الفيلسوف ، ونصحه بالزواج ولكنه لم يتزوج لانه رأى استحالة  
العثور على ضالته بين النساء ثم لانه كان يفضل جمال الحقيقة على  
الجمال الانسانى (٤) وقد ذكر باييه أن أقارب ديكارت أرادوا ان  
يزوجوه بفتاة من أسرة طيبة وعلى كثير من الجمال ، وكانت هذه  
الفتاة تجتمع مع الفيلسوف فى أحياء كثيرة وقد روت فيما بعد أن  
ديكارت كان يؤثر الفلسفة على كل جمال وأن كل ما قاله لها من  
العبارات التى يعتاد الشبان على قولها للفتيات اللاتى سيصبحن لهم  
زوجات انه لم يجد قط جمالا من المستطاع مقارنته بجمال  
الحقيقة (٥) .

(١) انظر كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ٢٠ ص ١٨٢

(٢) المقال عن المنهج ص ٤٥

(٣) شارل آدم حياة ديكارت ١٨ ص ٦٣

(٤) نفس الكتاب ١٨ ص ٦٩ و ٧٠

(٥) حياة المسير ديكارت ج ٢ ص ٥٠١ مقتبس فى أذنان الكتاب المذكور ١٨٠

ص ٧٠ تعلية حرف ب

وكان وهو فى فرنسا يؤثر العزلة فى الاقاليم واذا ذهب الى باريس أخفى نفسه عن أصحابه واعتزل ليفرغ للقراءة والتفكير والكتابة وروى بآييه أن أحد أقاربه استدعاه ليقضى عنده زمنا فى باريس ، وكانت شهرة ديكارت قد بدأت تضيع فى الاندية ، فأصبح بيت مضييفه كأنه ناد علمى زاهر بالرواد ، ولم يطق الفيلسوف صبرا على هذا ، وهو الذى يؤثر الراحة والعزلة على كل شىء ؛ فاختمى فجأة ولم يعلم أحد شيئا من أمره ، وقلق مضييفه غاية القلق ، واتفق ان عثر بعد زمن غير قصير على خادم الفيلسوف ، فسأله عن مقر سيدة فأفاده بعد تردد .

ثم قضى فى باريس أعواما ثلاثة من سنة ١٦٢٦ - ١٦٢٨ ، وكان فيها كسائر شباب النبلاء يلهو ويغشى الاندية والمجتمعات ويكثر من قراءة القصص والاشعار .

وكان الالحاد ذائعا فى فرنسا ذلك العهد وكان للشعراء الملحدون الاباحيين حظوة عند الشباب وشهرة بين جمهور القراء والمتأدبين ، ولم يكن ما يلقاه الملحدون من علماء الدين ومن البرلمان من أنواع المقاومة العنيفة وألوان التعذيب الا ليزيد الناس تعلقابهم وتوفرا على قراءة آثارهم . ولكن ديكارت الشاب الذى أبى عليه عقله وذكاؤه ان ينحو فى تفكيره نحو سابقيه مع ما لهم فى نفوس أهل العلم من قداسة أيدتها القرون الطويلة ، أبى عليه عقله أيضا ان يجارى معاصريه ، بل لقد كان أكثر من ذلك حرية وشجاعة فقد عزم على ان يحارب الالحاد ، وكان هذا العزم من الاسباب التى بعثته الى الكتابة .

ومما هو جدير بالذكر لوصف الحياة العقلية فى ذلك العصر  
١ هو مشهور عن ثلاثة من العلماء عقدوا اجتماعا كبيرا فى ردهة من جمل ردهات باريس ليدحضوا بعض آراء أرسطو فى الطبيعيات ، وشهد الاجتماع نحو الالف ، وقبل أن يبدأ الكلام أمر أولو الامر

باخلاء المكان وان ينصرف الحاضرون ثم أصدر البرلمان أمرا باعدام مقالاتهم وان يغادروا باريس في ٢٤ ساعة وآلا يكونوا في أى بلدة تدخل في اختصاص محكمة التفتيش التي حكمت عليهم وحرمت عليهم ان يعلموا الفلسفة في أى جامعة وهددت كل من يتناقش في هذه المقالات أو ينشرها أو يتجر فيها بأن يعاقب عقابا بدنيا مهما كان مركزه . ولم يفت البرلمان ان ينص في قراره على تحريم اذاعة الآراء التي تخالف آراء المؤلفين القدماء الذين تقرهم الكنيسة لاسيما أرسطو ، وأن كل من يرتكب هذا الاثم يحكم عليه بالاعدام . وقد علم ديكارت بكل هذا ، وربما كان ذلك مما حجب له الابتعاد عن فرنسا .

واتفق ان شهد الفيلسوف اجتماعا عند سفير البابا في باريس ، وقام أحد العلماء ببسط آراءه فأعجب به الحاضرون كل الاعجاب ماعدا ديكارت ولما دعى للكلام نهض وانطلق يتكلم بفصاحة وأثبت عكس ما قاله العالم بحجج قوية واضحة ورأى أحد الحاضرين من أولى الشأن أن ديكارت لم يكن مجددا فحسب بل كان مصلحا أيضا فأخذ يطلب اليه ان يفرغ لاصلاح الفلسفة وقال له انه يعقد عليه أمله في النهضة بفلسفة حديثة . ورأى ديكارت أن الكثيرين أخذوا يضعون هذا الأمل فيه فشجعه ذلك على ان يصمم العزم على كتابة مذهبه فيما بعد الطبيعة ورأى أن تدوين طبيعياته لن يكلفه بعد ذلك الا شهورا عدة (١) .

وهكذا انقضت التسع سنين من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ وهو ينتقل من بلد الى بلد ويغشى النوادي المختلفة ويتصل بالجيوش ويبتلى نفسه في مصادفات الحياة ، وفي هذه المدة كان يفكر ، فرأى ان ينتزع من عقله كل الآراء التي وجد أنها موضع للشك ، وآلا يدخل في اعتقاده الا ما يتمثل أمام عقله في وضوح ،

---

(١) شارل ادم حياة ديكارت ١٨ ص ٩٥ الى ٩٨

وكان يروض نفسه على تطبيق منهجه على معضلات العلوم الرياضية وكان يجتهد فى تخليص معضلات العلوم الاخرى من مبادئها وتحويلها الى ما يشبه معضلات الرياضيات ، وهو يعترف أنه لم يستقر حتى هذا العهد على رأى نهائى فى المعضلات التى هى فى العادة موضوع الخلاف بين العلماء ، وعلى العموم لم يصل الى فلسفة جديدة بدل الفلسفة التى كانت ذائعة فى العصور الوسطى والتى كان حجتها وامامها الاول أرسطاطاليس (١) .

وقد رأى أنه لا يستطيع ان ينهض بالواجب الذى اضطلع به الا اذا ابتعد عن معارفه ، وانفرد حيث يجد من الراحة ما يعينه على النظر والتفكير ولم يجد مقاما أوفق له من هولندا فرحل اليها فكان فيها فى خريف سنة ١٦٢٨ .

وكانت هولندا اذ ذاك فى أوج مجدها ، اذ أنها كانت قد انتصرت على اسبانيا القوية واستخلصت منها استقلالها . وكان جيشها مدرسة أوروبا الحربية يقصد اليه أبناء النبلاء ويلتحقون به ، وكانت لها تجارة رائجة مع الهنود والعرب والاتراك ، وازدهرت فيها العلوم والآداب فأخذت جامعة ليدن فى الترقى حتى أصبحت فى القرن السابع عشر تضارع جامعات ألمانيا العتيدة ، وكذلك تأسست فى المدن الكبيرة جامعات أخرى ، وأخذت معاهد العلم ونواديها تنتشر فى البلاد . وتبع هذا الرغد فى الحياة والنور ازدهار الفنون الجميلة ، ولا تزال المدينة ليدن شهرتها فى الطباعة حتى الآن وكان فن التصوير على شئ من الكمال كثير ، ومن آثاره صورة ديكارت التى نشرناها فى مطلع هذا الكتاب وهى من رسم فرانس هالزبنكس Franz Hals Px وكانت الحرية والتسامح مبسوطين هناك ، حتى لقد كان يطبع فى هولندا من كتب العلماء الاوربيين مالا يمكن طبعه فى بلادهم مثل كتب غاليليه التى تولى

طبعها آل الزفير Les Elzviens أهل الشهرة العريضة في  
تاريخ الطباعة .

وليس السبب الرئيسي في تفضيله هولندا على غيرها لكي  
يقيم فيها هو أن فيها من الحرية ما ليس في أي بلد آخر . إذ أنه  
كان كاثوليكي المذهب والهولنديون بروتستانت وكان العداء بين  
علماء المذهبين قويا ولم يتوان ديكارت في مناصرة أساتذته  
المسوعيين فاعتبره علماء الدين الهولنديون ملحدا . وكذلك لم  
يكن جو هولندا ، وأكثر العام فيها شتاء ، ليجذبه إليها ولكن  
السبب الرئيسي لاختياره الإقامة هناك هو ما أبداه في قوله :  
« ..... حملتني تلك الرغبة على أن ابتعد عن كل الأماكن التي أجد  
فيها بعض من أعرفهم ، وأن أنعزل هنا في بلد فيه طول استمرار  
الحرب نظما (جيدة) ، حتى أن الجيوش التي بها في هذا البلد  
تبدو كأنها لا تستخدم الا في أن ينعم الناس بثمرات السلام في  
كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت في غمرة شعب كبير جم  
النشاط ، يعنى بأعماله عناية أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ،  
بدون أن أحرم أي رخاء مما يوجد في المدن الغاصة بالنازلين ، أن  
أعيش منفردا ومنعزلا كما لو كنت في أقصى الصحارى (١) » .

ورأى للمرة الثانية صديقه بيكن واستمرت بينهما صلة  
العلم والصداقة واتصل ببعض الاطباء وأساتذة جامعة ليـدن  
والمستشرقين والرياضيين والأدباء والأعيان وعلماء الدين  
الكاثوليكين والبروتستانت ، وتنقل في مبدأ إقامته في هولندا بين  
فرانكيز وليدن وأمستر دام .

وفي آخر سنة ١٦٢٩ ، بدأ ديكارت في كتابة رسالته « العالم

Le Monde (١) « ولكن حدث في ٢٣ يونيه سنة ١٦٣٣ أن دانت محكمة التفتيش في رومة غاليليه لاصداره كتابه المشهور عن مذهبي بطليموس وكوبرنيك في سنة ١٦٣٢ ، وذلك لان السلطة الدينية أحست بالخطر الذي يتهدها من نقض القول القديم بأن الارض ثابتة وسط العالم ، وأن الفلك يدور حولها . وقد علم ديكارت بهذا الحكم ، وكان يريد أن يبعث بمخطوطة رسالته للعالم الذي اشتغل فيه من سنة ١٦٢٩ الى ١٦٣٣ الى صديقه الاب مرسن فبلغ به الفزع مبلغا كبيرا لانه قال بدورة الارض في رسالته وورد في كتاب له أرسله اليه في ٢٢ يولييه سنة ١٦٣٣ « أدهشني هذا الى حد كدت معه أن أصمم على احراق أوراقى ، أو على ألا أظهرها لأحد على الأقل ٠٠٠ واني لأعترف أنه اذا كانت ( حركة الارض ) باطلة ، فان كل أصول فلسفتى باطلة كذلك ، اذ أن هذه الاصول تثبتها اثباتا واضحا ، وأنها من الاتصال بكل أجزاء رسالتي بحيث لا أستطيع فصلها عنها دون أن أصيب كل ما يبقى بنقص . ولكن لما كنت لا أريد أن يصدر عني قول يمكن أن توجد فيه كلمة واحدة لا تقرها الكنيسة ، فأننى أقضل ان ألغى هذا القول على ان أظهره مشوها » (٢) .

والسبب في امتناعه عن نشر رسالته هو رغبته الشديدة في راحة البال ، وقد كان شعاره الدائم « عاش سعيدا من أحسن في الاختفاء Bene vixit qui bene latuit (٣) . ثم انه كان يطمع في أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو ، أى ان تعلم في المدارس ، واعتقد أن هذا ليس من المستطاع ما لم يقرها رجال.

- 
- (١) انظر كتابه الى صديقه مرسن في ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ في ج ١ ص ٨٤ و ٨٥ من الاعمال طبعة آدام وتانرى  
 (٢) أعمال ديكارت ج ١ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ مطبوعة آدام وتانرى  
 (٣) كتابه الى مرسن ١٠ مارس سنة ١٦٣٢

الدين ، كما أنه اعتقد أن ما تستنكره محاكمهم مقضى عليه بالفناء .  
ولكن آراء غاليليه لاقت من النجاح ما لم يكن يتصوره ديكرت  
فترجم كتابه الى اللاتينية ونشر في هولندا ، وشرح مذهبه في  
فرنسا كما نقلت أيضا الى الفرنسية بعض كتاباته ، وكان من  
المدافعين عن آرائه والعاملين على نشرها في فرنسا الأب مرسن  
صديق ديكرت . كما أن البعض كتب ضد قول غاليليه بحركة  
الارض حول محورها في أربع وعشرين ساعة في الفضاء ، ونقتبس  
من كتابة هذا البعض الأخير الفقرة التالية من كتاب لأحد أساتذة  
الكوليج ده فرانس في هذا العهد ليتبين للقارى تنازع وجهات  
النظر في القرن السابع عشر واختلاف الانحاء العلمية في أوروبا في  
هذا العصر » بما أن الله قد أرسل ابنه لينقذنا بموته ، فلا ينبغي  
ان يستغرب اذن لو أنه جعل السموات تدور من أجلنا ، ولو أنه  
خلق العالم الجسمي كله لفائدة الناس ولذتهم » (١) .

ولكن ديكرت لم يكن ليرتاح الى عزمه في سنة ١٦٣٣ على ألا  
ينشر شيئا ، ذلك لأن الكثيرين كانوا ينتظرون شيئا من هذا  
الفيلسوف الذى هجر بلاده واعتزل الناس في هولندا ليفكر في  
راحة واطمئنان . صمم على ان ينشر للناس بعض ما انتهى اليه ،  
ورأى أن يقدم لهم نماذج من فلسفته حتى اذا قرأوها اشتاقوا الى  
أن يطلعوا على مذهب الفيلسوف بأكمله . وما كاد يستقر على هذا  
الرأى حتى عكف على العمل ، وفى قليل من الزمن كان قد أتم ثلاث  
رسائل هي انكسار الأشعة والانواء والهندسة ووضع لها مقدمة هي  
المقال عن المنهج وعزم على نشرها جميعا في سفر واحد دون ان يذكر  
فيه اسمه وفى سنة ١٦٣٦ قصد ليدين لطبع هذا الكتاب ، وبعد  
اتمام الطبع غادرها وأخذ يتنقل بين مدن هولندا ، ثم عاد الى ليندن  
فلبث فيها من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٦٤٣ .

(١) نص مقتبس في شارل ادام حياة ديكرت ١٨ ص ١٧٣

واتصل بالأميرة اليزابيث البلاتينية (١) ، وكانت مثقفة  
 بالثقافة الفرنسية ، وتعرف لغات كثيرة ، وواسعة الاطلاع فى علوم  
 عصرها ، وقد عرفت الفيلسوف من كتبه فبدأت بمراسلته فرحب  
 ديكارت بهذه الصلة الجديدة ، وتمكنت بينهما الصداقة فكانت  
 تستشيريه فى كل شئونها حتى فى مصير أسرتها الملكية وأعجب هو  
 بذكائها وحبها للعلوم فأهداها كتابه مبادئ الفلسفة سنة ١٦٤٤ ،  
 وكان يشرح لها أصول مذهبه ويطلعها على استكشافاته الرياضية .  
 وقرأ معها كتاب الحياة السعيدة de vita beata للفيلسوف الرومانى  
 الرواقى سنيكا SENECA . ثم أخذ يكتب اليها بعد ذلك فى  
 الأخلاق . وبعد سنة ١٦٤٦ شرع يكتب اليها عن كتاب ميكافلى  
 الأمير ويستنتج الاستاذ أدام من ذلك أن ديكارت يرى أن درس  
 واجبات الحياة المدنية يعقب درس واجبات الحياة الخاصة وبتعبير آخر  
 أن علم السياسة يأتى بعد علم الأخلاق . وقد اتفق الفيلسوف مع  
 الأميرة على مخالفة ميكافلى فى آرائه ، ولم يريا معه أن الغاية تبرر  
 الوسيلة ، بل ذهبا الى أن الشر لا يعقب غير الشر ، والعنف لا يجلب  
 الا العنف ، وأن الكذب لا يولد سوى الكذب ، واذن فمن الخير أن  
 تتجنب هذه السياسة منذ المبدأ (٢) . واستمر تبادل الكتب بينهما  
 حتى مات ديكارت فى السويد فحفظ السفير الفرنسى شانو Chanut  
 مسودات رسائل ديكارت مع ردودها عليها ، وطلب اليها أن تأذن  
 له بنشر رسائلها مع رسائل الفيلسوف فأبت عليه ذلك ، لأنه كان

---

(١) هى ابنة الناحب البلاتينى فريدريك الخامس كان ملك بوهيميا وخسر  
 تاجه وعرشه فى سنة ١٦٢٠ ثم انتقل الى هولندا ومات سنة ١٦٣٢ وظلت  
 الاميرة مع أمها فى هولندا وقد عاشت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٨٠ .

انظر تفاصيل تاريخها وعلاقتها مع ديكارت فى كتاب كينوفشر حياة ديكارت  
 وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٩٩ وما بعدها

(٢) حبة ديكارت ١٨ ص ٤٢٦



قد عارض في بعض الظروف في سفرها الى السويد ، وطلبت اليه أن يرد اليها رسائلها ففعل وظلت محفوظة لديها ثم عشر عليها الكونت فوشيه دي كارى Foucher de Careil في مكاتب بعض النبلاء فنشرها لأول مرة سنة ١٨٧٩ وقد أدمجت فيما بعد في مطبوعة أدام وتانرى بعد مراجعتها بالمخطوطة التي اعتمد عليها دي كارى نفسه . أما الاميرة فقد اعتزلت في آخر حياتها في دير وقضت بقية عمرها في التنسك وماتت سنة ١٦٨٠ بعد أن ذاعت شهرتها بين الجميع بعلو كعبها في العلوم وبسمو أخلاقها وفضائلها .

وقد سافر ديكارت الى فرنسا سنة ١٦٤٤ بعد غيابه الطويل . عنها ليسوى فيها بعض مصالحه ، ثم غادرها راجعا الى هولندا في سنة ١٦٤٧ . وكانت شهرته اذ ذاك قد ذاعت فعزم ملك فرنسا في سبتمبر من نفس العام على أن يفرض له راتب سنوي مقداره ٣٠٠٠ جنيه ، وجاء في الوثيقة الرسمية التي اقتبسها مترجم حياته باييه عن ذلك أن هذا الراتب قد قرر له « نظرا لفضائله الكثيرة وللفادة التي تحصلها للنوع الانساني فلسفته وبحوثه في دراساته الطويلة ، وكذلك معانته له على مواصلة تجاربه الجلية التي تستلزم النفقات » (١) ولكنه غادر باريس على غير علم بهذا لأنه لم يسع الى ذلك ولم يطلب شيئا . ويظهر أنه لم يعلم الا في يناير سنة ١٦٤٨ فعزم على مغادرة هولندا وأخذ يودع أصدقاءه وداعا نهائيا وترك منزله في مايو من نفس السنة .

ولكنه لم ينل شيئا من هذا الراتب ، بل لقد دفع نفقات الصك الملكي من ماله ، وكان مكتوبا على الرق الثمين ، وقد اشتكى غلاء ثمنه فيما بعد الى صديقه شانو السفير الفرنسي في السويد . ولم يطمئن للبقاء في باريس ، ذلك لأن الحرب الداخلية كانت

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٥٨ و ٤٥٩

قائمة في فرنسا اذ ذاك ، ولم يستقبله العلماء الفرنسيون على نحو ما كان ينتظر ، وكانت الحرب الخارجية تهدد فرنسا كذلك ، ولما كان السلام والطمأنينة أحب شيء لديكارت فقد عجل بمغادرة وطنه في أغسطس سنة ١٦٤٨ بعد أن ودع صديقه القديم الأب مرسن الذي كان في مرض الوفاة وعاد الى منزله في اجموند Edmond في هولندا .

وكان مرسن أوفى أصدقائه ، عرف عنه التبحر في العلوم والاخلاص في التمسك بالدين ، وكرم الأخلاق ، وقد مات في سبتمبر سنة ١٦٤٨ وطلب الى أطبائه قبيل وفاته أن يشرحوا جثته كي يعرفوا علته دائه ، ولم يكونوا قد اهتموا اليه في حياته ، ليتيسر لهم فيما بعد أن يعالجوا من يصاب بما أصيب به .

واهتم ديكارت في منزله بأخبار وطنه وكان شديد الجزع على فرنسا من الحروب والأخطار التي تتهددها ولما علم بزحف الارشيدوق ليوبولد على باريس ، دعا الله في صلاته « أن يجعل حظ فرنسا يعلو على سعى الذين يريدون بها السوء (١) » . وظل ديكارت في منزله هادئاً مطمئناً الى أن دعت ملكة السويد لزيارة استوكهلم .

كان للسويد في هذا الزمن شهرة واسعة بفضل ملكها العظيم جستاف أودلف الذي أدهش العالم بشجاعته وانتصاراته في الحروب ، ورثت عنه الملك ابنته فأرادت أن تحتفظ لمملكتها في أيام السلم بما أكسبها من مجد في أيام الحرب فشرعت تستدعي العلماء لبلادها ، وكان أشهر من استدعت هو رينييه ديكارت ، وكان السفير الفرنسي في بلاطها صديق ديكارت قد عرفها بفضلها فرغبت في دعوته كما أنه اجتهد في حمل الفيلسوف على قبول هذه الرحلة .

(١) شارل آدم حياة ديكارت ١٨ ص ٤٧٣ - ٤٧٤

وقد استدعته في ٢٧ فبراير سنة ١٦٤٩ لزيارة استوكهلم قاعدة ملكها ثم بعثت بأمرال سويدي الى هولندا ليستصحب الفيلسوف في سفينته (١) . وقد تردد في قبول الدعوة ، ولم يأنس من نفسه في بادئ الأمر ميلا للنزوح الى السويد وكان يسميها بلد الدببة Pays des ours ووصل اليه القائد البحري في ابريل من نفس العام وأبلغه طلب الملكة فاعتذر بأنه لا يستطيع فراق منزله . وعلم السفير الفرنسي بذلك وكان يريد أن يسافر الى فرنسا فعجل بالسفر ومر به وأقنعه بضرورة الذهاب الى الملكة فقبل وسار في أول سبتمبر سنة ١٦٤٩ ووصل الى عاصمة السويد بعد شهر . وفي أثناء السفر في البحر دهش قائد السفينة من سعة اطلاعه بفنون الملاحة وأحوال البحر فقال للملكة عندما قدمه اليها : « ليس الذي أقدمه لصاحبة الجلالة رجلا ، بل هو نصف اله (٢) » . ولم يرتج للبقاء في السويد ؛ اذ أنه شعر بالوحدة ووحشة الغربية ، وكان أكثر ما يعنى به البلاط السويدي هو علوم اللغات والشعر ، فعزم على العودة ، ولكنه رأى أن يبقى أثرا في السويد . فرسم للملكة مشروع مجمع علمي ، واشترط ألا يكون للاجنبي حق العضوية فيه ، وقيل أنه اشترط هذا الشرط حتى لا يستبقى في السويد .

وفي أوائل سنة ١٦٥٠ كانت الملكة تختلف اليه في حجرة عملها للتحدث معه في الفلسفة ثلاث مرات في الاسبوع في الساعة الخامسة من الصباح . ولم تكن هذه الساعة المبكرة ملائمة له ؛ اذ أنه اعتاد منذ حداثة أن يستيقظ في ساعة متأخرة ؛ ثم انه كان يتعرض لبرد الشمال القارس لا سيما في فصل الشتاء فصابه .

(١) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٢١

(٢) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣٥ .

التهاب في صدره ، ورفض معاونة الأطباء وأبى الاصغاء لنصائحهم ، وأخذ يعالج نفسه بنفسه ، واشتد عليه المرض حتى بلغ رثتيه وأدركته المنية في الساعة الرابعة من صباح ١١ فبراير سنة ١٦٥٠ .

وأرادت الملكة أن يدفن في مقابر الاسرة الملكية فرفض صديقه السفير شانوا أن يدفن مع من هو على غير دينه ، لأن السويد بروتستنتية المذهب ودفنه في قبر مؤقت ثم أقام له قبرا في مايو سنة ١٦٥٠ ، وفي ١٦٦٦ ألح أصدقاؤه والمعجبون به من الفرنسيين أن تنقل رفاته الى باريس ففعلت الحكومة ذلك واحتفل بدفنه في ٢٤ يونيو سنة ١٦٦٧ ونقلت رفاته في مدافن عدة وهي الآن في كنيسة سان جرمان ده بره Saint-Germain des-Prés

## - ٢ -

### شخصية ديكارت

ان أظهر نزعة في خلق ديكارت هي حبه للراحة والسكينة وولعه بالعزلة والهدوء ، ولقد رأينا أنه هجر وطنه وهو شاب لانه رأى أن السلطات في فرنسا لا تطبق أن ينهض فيها داع لمذهب يخالف الفلسفة الرسمية التي كان معلمها الاول ارسطاطاليس ؛ ثم لانه أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيش في وطنه منعزلا عن الناس منقطعا للتأمل والتفكير كما ينعزل الرهبان والمنتصوفة في الصوامع والكهوف ورؤوس الجبال والصحارى للنسك والعبادة ؛ فهاجر الى هولندا مع قسوة بردها وطول شتائها وذلك لانه عرف أنه يقدر على أن يعيش فيها آمنا على حياته مطمئنا على متاعه اذ أن هذه البلاد تحتفظ بجيش كبير ، يقوم على حفظ الأمن ورعاية

السلام (١) ، ويجب أن ينتبه القارئ الشرقي ؛ كي يقدر هذا ، الى أن قطع الطرق ، واعتيال المسافرين ، والسطو على الآمنين ، كانت حوادث مألوفة الوقوع في بلاد مثل ايطاليا وفرنسا في هذا العهد .

وقد دفعه شغفه بالهدوء والاطمئنان الى أن يجزع جزعا شديدا عندما بلغه خبر الحكم على غاليليه ، ولم يجزع اشفاقا على هذا العالم الهرم ، ولكنه جزع لانه رأى رأى غاليليه ، وانتهى بمنهجه الى اثبات أن الارض كوكب سيار تتحرك حول محورها وتتحرك حول الشمس ، وكان على وشك أن ينشر رسالته العالم Le Monde التي يشرح فيها هذا الرأي ، ولكنه ما كاد يعرف أن السلطة الدينية في روما رأت أن قول غاليليه مخالف لقول الانجيل وقول أرسطو بأن الأرض مركز العالم وأنها ثابتة لا تتحرك وأنها من أجل هذا لم تتوان في مؤاخذته وادانته ، حتى اضطرب واتهم نفسه وشك في أصول فلسفته ، وكاد يحرق أوراقه . ونحن نعرف أنه كان في هولندا البروتستنتية أى في منأى عن أذى محاكم روما وتعذيبها ، ثم انه مع ذلك كان على ثقة من أنه ليس في القول بحركة الارض شيء يتعارض مع العقيدة الدينية في شيء (٢) ، الا أنه خشى أن يقال عنه انه خارج على رجال الدين (٣) وأقل مافى هذا هو ازعاج راحته ، واقلقه في حياة صمم على أن يمضيها متخذاً هذا الشعار :

«عاش سعيداً من أحسن الاختفاء Bene vixit, qui bene latuit»

(١) انظر ص ٤٨ .

(٢) انظر كتابه الى مرسن ١٠ يناير سنة ١٦٣٢ والمقال عن المنهج ص ٩٩

(٣) بلغ من تديره للمحققين في روما أن قال عنهم « لهم من السلطة على

اعمالى مالا يقل عما لعلى من السلطة على أفكارى » انظر ص ٩٩

ويبلغ به الفزع والخوف الى أن قال في مطلع القسم السادس من المقال « لا أريد أن أقول اننى كنت على هذا الرأى » ولكنه عندما اضطر الى التعرض لمسألة حركة الارض فى كتابه مبادئ الفلسفة أخذ يدور ويلف ويعرف الحركة تعريفا غريبا (١) ، وبالاختصار قال بحركة الارض بتعبيرات بالغة فى الغموض والالتواء لتحمية من غضب السلطة الدينية عليه . وقد عد الكثيرون هذا جبنا من الفيلسوف ، ولكننا نرى أنه جبن اضطر اليه فى سبيل غاية جريئة هي أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو فى التعليم وهذا كان مستحيلا بدون رضا الكنيسة .

\*\*\*

ومن صفات ذكارت البارزة أيضا شدة تمسكه بدينه ومذهبه، وقد رأينا كيف نذر أن يحج الى كنيسة العذراء فى لورت بايطاليا Notre-Dame de Lorette شكرا لله على أن هداه الى أصول فلسفته فى ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ م ورأينا كيف أوفى بنذره، وانضم الى جانب أساتذته اليسوعيين فى نزاعهم الدينى مع علماء هولندا البروتستنت مع أنه كان نزيلهم وضييفا فى بلادهم .

ولم يمنعه تمسكه بمذهبه من أن يحمل السلاح فى جيوش هولندا البروتستنتية التى حاربت اسبانيا الكاثوليكية فى سبيل حريتها وخلاصها من أشهر ضروب الاستعباد فى التاريخ .

ويضاف الى تمسكه بالدين حبه لوطنه فقد رأينا أنه بعد أن غادر فرنسا لآخر مرة ، وكانت فريسة للحروب الاهلية ومهددة بالخطر الخارجى ، كان كثير الاهتمام بأخبار وطنه ، وكان يدعو الله فى صلاته أن ينجيه من كيد أعدائه . وروى الطبيب الذى عني به أثناء مرض الوفاة فى السويد ، وكان ألمانى الجنس أنه رأى أن

(١) انظر الجزء الثانى الفقرات رقم ٣١ و ١٣ ٤ ٢٥ .

يفصده له ، فرفض ديكارت رفضا شديدا وقال له : « لا تقرب الدم الفرنسي » (١) .

وكان ديكارت جهم التواضع ، يشهد له بذلك كثير من تعابيره في كتبه ، وفي المقال من هذه التعابير الشيء الكثير مثل قوله « أما أنا فلم أدع قط أن نفسي أكمل من نفوس الغير ، بل كثيرا ما تمنيت أن يكون لي من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس » (٢) ، أو كقوله : « ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسي . الخ . الى أن يقول : مع أن أنظاري كانت ترضيني كثيرا ، فإني كنت أعتقد أن لغيري أنظارا قد يكونون بها أشد إعجابا » (٣) .

ومما يجدر ذكره أنه بعد أن تم طبع المقال والرسائل الثلاث سنة ١٦٣٧ ، أرسل الكتاب الى صديقه مرسن ليحصل له من السلطات الفرنسية على الاذن بتداوله في فرنسا ، وأراد صديقه أن يقوم له بعمل لجذب الكتاب اهتمام الجمهور ، فقصد الى مستشار يمت بصلة الرحم الى بعض أصدقاء ديكارت ، وكان المستشار محبا للآداب والعلوم ، فلما شرح له مرسن غايته وأطلعته على رغبته ، أوردف الاذن بنشر الكتاب باطراء المؤلف ومدحه والاشارة الى ما ينتظر منه في سبيل تقدم العلوم والفنون ورسم اسمه في الاذن Des-Cartes ( ده كارت ) اظهارا له بمظهر النبلاء (٤) ولكن ديكارت لم يستبق من كل هذا الا المعالم التي لا يمكن تداول كتابه في فرنسا اذ ذاك بدونها وأظهر كتابه دون أن يظهر عليه اسمه .

(١) شارل ادام حياة ديكارت ١٨ ص ٥٥١ والهامش رقم ١

(٢) ص ٤

(٣) ص ١٠٠

(٤) شارل ادام حياة ديكارت ١٨ ص ١٨٤

وجمع الى تواضعه ابناء وشمما • أرسل اليه في هولندا الكونت دافو d'Avaux مبلغا كبيرا من المال ليستعين به على صنع التجارب التي أشار اليها في القسم السادس من المقال فرده واعتبر هذا اهانة له (١) • وفكرت كرسيتين ملكة السويد في أن تقطعه ضيعة من أملاكها في ألمانيا ، التي آلت اليها بفضل معاهدة وستفاليا ، ولكن ديكارت علم أن هذه الضيعة منتزعة من أوقاف بعض الاديرة فأبى هذه المنحة الملكية (٢) •

ونو شئنا احصاء النواذر التي يتبين مبلغ ما كان عليه ديكارت من سمو في الاخلاق يضارع سموه في التفكير ، لطال الكلام ولكن قبل أن نغادر هذا المجال يحسن بنا أن نعرض لما قال عنه خصومه ففي هذا تكميل للصورة التي نريد اظهارها لديكارت أمام القراء •

\*\*\*

لم ينج ديكارت من خصوم حقدوا عليه واتهموه شتى التهم، فقال البعض عنه انه ملحد مع أن الرجل يضع نظريته في المعرفة على أساس وجود الله وكونه متصفا بكل الكمالات • والدافع الى هذه التهمة غضب المتعصبين للقديم عليه ، لأنه جاء بفلسفة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن فلسفة أرسطو ، التي أصبحت مع توالي الزمن مقدسة ، وأصبح رجال الدين في أوروبا يفسرون بها الانجيل وقواعد الدين المسيحي •

ومن طبيعة الانسان أن ينفعل ويغضب اذا صدم فيما ألفه وتعود عليه • ذلك لانه لكي يغير ما تعود عليه ، يحتاج الى قوة لم يكن يحتاج لها لو أنه ظل بدون تغيير ، ويشتد انفعال المرء اذا أصيب في معتقداته أو آرائه التي عاش عليها طول حياته ، وعاشت عليها من قبله أجيال يتصل بها أوثق اتصال ، اذ أن هذه المعتقدات

(١) نفس الكتاب ص ٤٦٩

(٢) نفس الكتاب ص ٥٤٧



والآراء تصبح بعد رسوخها فى العقل وتأثيرها فى العواطف أعز ما يمتلكه الانسان فى حياته وأقوى ما يكون شخصيته .

ويجب ، لكى نتصور مقدار هذا الانفعال ، أن ننتبه الى طول الزمان الذى مر على الانسانية وهى تعتبر أرسطو استاذها الاول، والى أن أهل العلم فى العصور الوسطى قد اعتادوا فى تفكيرهم طريقة شاذة وهى اعتبارهم قول هذا المعلم الاول الحجة وفصل الخطاب ، عنده يقف العقل مصدقا مؤمنا وان تجاوزه انسان أو خالفه اعتبر جاهلا أو انهم بالزيف فى العقيدة والفسق عن الدين . بل وبلغ من قوة سلطته على العقول أنه عندما اخترع المنظار المقرب (التلسكوب) وأمكن بواسطته رؤية بعض البقع على وجه الشمس، أن الكثيرين من العلماء لم يصدقوا هذا وشكوا فى الذى تبينه لهم الحواس ، وذلك لأن أرسطو لم يشر فى كتبه الى بقع على الشمس .

لم يخضع ديكارت لسلطة أرسطو ، بل كان يؤمن بما يقتنع به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى ، وقد اشتد تحقيره للذين لا يؤمنون بما يقنعه به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى ، وقد اشتد تحقيره للذين لا يؤمنون بالأشياء الا اذا قال أرسطو بها وكتب فى هذا المعنى فى المقال عن المنهج « . . . وانى لوائح أن أكثر متابعى أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . انهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعدا لانه يرتفع الى ما فوق الاشجار التى تسنده ، بل وكثيرا ما يهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لأنه يبدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أى انهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل الخ الخ » (١) .

واذن فقد كان من حظ ديكارت أن يناله من السوء ما يناله الذى يغير ما ألفه الناس زمنا طويلا وارتاحوا لتعوده ، ولو كان

باطلا ، وكانت له أسوة بالسابقين من المصلحين البائسين الذين  
يعنيهم جويته بقوله :

« ان القليلين الذين عرفوا منه شيئا ، والذين كانوا من  
الحماقة بحيث لم يحفظوا ما في صدورهم ، وكشفوا للعامة عن  
عواطفهم وآرائهم ، صلبوا وصلوا النار » (١) .

ويكفي القراء ليتبينوا كذب اتهمه بالاحاد أن يقرأوا المقال  
عن المنهج وأن يطلعوا على ما كتبناه في تاريخ حياته .

وننتقل الآن من هذه التهمة ، بعد أن فندناها ، الى تهمة  
أخرى سنرى أنها ليست أقل من السابقة تهاوتا وضعفا ، وهي  
دعوى الذين قالوا عنه انه نسب لنفسه كل الفضل في بعض  
الاستكشافات العلمية التي استكشفها معاصروه وأهم هذه  
الاستكشافات قانون انكسار الاشعة الذي اهتمدى اليه اسنليوس  
Snellius قبيل ديكارت .

والدافع الى هذا النوع من الاتهام هو أن الفيلسوف لم يهتم  
بحركة العلوم في عصره ، وأهمل تقدير معاصريه بعض الاهمال ،  
ومع أن فيهم من له بعض الشأن في تاريخ التقدم العلمي ؛ الا أنه  
كان اذا ذكر هذا البعض لاسيما ممن عاجلوا من المسائل العلمية  
ما عاجله ، لم يذكره باحترام يرضيه ويرضى أتباعه ، ولم يعترف له  
بفضل ، وهذا كاف لاغضاب الكثيرين وجعلهم خصوما له ، واذن  
فماذا يكون مبلغ عدائهم له اذا رأوه ينسب الى نفسه كل الفضل في  
كل استكشاف علمي يصل اليه ؟ واذا اعترضوا عليه بأن غيره سبقه  
الى بعض هذه الاستكشافات ، أجابهم بأنه لم يقرأ ما كتبه هذا  
البعض ، ويشرح كيف وصل اليها بفضل منهجه الذي لم يسببه  
اليه احد ، وكيف تبرهن عليها اصول فلسفته الخاصة به .

وعلى كل حال فإن كل ماوجه اليه من تهم من هذا النوع إنما يعتمد على التشابه بين نتائج ونتائج غيره من بعض البحوث العلمية (١) . ومن الهين دفع هذا الاتهام بقول يشبه التاريخ وهو أن تقدم العلوم في أى عصر ، اذا وصل الى درجة معينة يهيم الفرص لاستكشافات لا بد من الانتهاء اليها . ثم انه مما لا ريب فيه أن الثقافة قد يسودها في زمن من الأزمان تيار فكري واحد ، فتتفق نزعات العلوم ، ويصل العلماء الى حقائق مشتركة ونتائج متشابهة دون أن يتعاونوا في البحث ، أو يكون بينهم أى اتصال . وقد اتهم ديكارت بعد وفاته بالاختلاس العلمى لبينتز ونيوتن ، ومن أعجب المصادفات أن البعض اتهم لبينتز باختلاس استكشاف نيوتن في الرياضة وأن البعض الآخر ينكر على نيوتن فضل التقدم ويعزو الاستكشاف الى الفيلسوف الألماني ، مع أننا اذا تأملنا في حركة العلوم الرياضية في القرن السابع عشر أيقنا أنها كانت لا بد أن تنتهي الى هذه الاستكشافات (٢) ثم ان نظرة واحدة الى ما يقوله ديكارت عن هارفي في المقال عن المنهج (٣) تكفى لنفي القول بأنه كان كثير التحقير لمعاصريه .

ورأينا اذن ، هو رأى كل العلماء الباحثين في ديكارت أى أنه لم يختلس الاستكشافات العلمية القليلة العدد التي استكشفها أيضا معاصروه ، اذ أنه انتهى اليها بفضل منهجه ، وبرهن عليها بأصول فلسفته . ثم ان نظرة منتبهة في تاريخ حياته وأخلاقه ، بل في نفس صورته ، تستطيع أن تقنعنا أن الرجل لم يكن من أهل المهازل ، وهيهات أن يقع الرجل الذي حبس حياته على البحث عن علم يرقى بالطبيعة الانسانية الى أسنى مرتبة لها في الكمال أن

(١) ميلو Milaud مسألة صدق ديكارت ص ٣٠٢ و٣٠٣

(٢) ميلو نفس الموضع ص ٣٠٤

(٣) ص ٨٦

يقع في خطأ خلقى هو من أدنى ما تنحط اليه الطبيعة الانسانية من درجات النقص .

### نظرة في فلسفة ديكارت

يطلق ديكارت كلمة الفلسفة على مجموع العلوم ويشبهاها بشجرة ؛ أصلها علم ما بعد الطبيعة؛ وساقها علم الطبيعة ؛ والفروع الخارجة من هذه الساق هي سائر العلوم التي يمكن حصرها في ثلاثة هي : الطب والميكانيكا وعلم الأخلاق « (١) » .

والتوجب علينا اذن لكي نعرض فلسفته ، ان نبسط آراءه في هذه العلوم وما يتشعب منها ، وان نشبت للقراء ما كان ديكارت يد العناية باثباته ؛ أى كيف تقوم نظرياته العلمية على أنظاره في علم ما بعد الطبيعة ، وكيف يسير في الاستكشاف والبرهان وفقا لتواعد منهجه ، ولكننى أكتفى ، تواضعا، فى شرح فلسفته بالكلام عن مذهب في علم ما بعد الطبيعة ، لانه فى نظره أول العلوم وأساسها ؛ ثم أتبع هذا بتحليل منهجه ، ثم انتهى بشرح آرائه فى علم الاخلاق لانه تبعا لتصنيفه للعلوم نهاية الفلسفة ويعتمد على معرفة كاملة بكل العلوم .

## ما بعد الطبيعة أو نظرية المعرفة

- ٣ -

### المبدأ الأول

بحث ديكارت عن مبدأ عقلى لا يكون موضع شك ليقوم عليه فلسفته وعلمه ، وقال « ان ارشميدس لم يطلب الا نقطة ثابتة غير متحركة ليزحزح الكرة الارضية من مكانها ولينقلها الى موضع آخر ،

(١) مبادئ الفلسفة ٦ المقدمة

وعلى هذا النحو يكون لى الحق فى أن تصور آمالا سامية اذا كنت من التوفيق بحيث أجد شيئا واحدا يقينيا لا يقبل الشك « (١) .  
واذا كان من المستحيل أن توجد فى الكون هذه النقطة الثابتة غير المتحركة التى تصلح ان تكون تكأة ، أو محور ارتكاز كما يقال ، لنقل الكرة الارضية من مكانها على نحو مائيل أرشميدس ، فانه لم يكن مستحيلا على ديكارت ان يجد هذه الثكأة العقلية التى استطاعت ان تكون قاعدة قام عليها علم ثابت قوى .

من المعروف أن من الفلاسفة من قال بنفى كل معرفة يقينية، وهؤلاء هم اللأدريون الذين ذهبوا الى أنه يستحيل على العقل الانسانى أن يدرك الحقيقة الجازمة . وكان مذهبهم شائعا فى فرنسا فى عصر الفيلسوف وقد اطلع على مقالاتهم وعنى بها جد العناية وقرأ منتانى (٢) وتأثر به الى حد بعيد ، وقد بين الاستاذ جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج وجوه الشبه بين كثير من عبارات ديكارت وعبارات منتانى ، وقال الاستاذ برنشفيك فى ذلك انه يقتبس عبارات منتانى دون ان يشعر بحاجة الى ذكر مصدرها كما كان يفعل عند اقتباس عبارات التوراة أو الانجيل (٣) ، وكما نفعل نحن عند اقتباس آيات القرآن .

وشاء ديكارت أن يبدأ بالشك فى البحث عن مبدئه العقلى، وأن يجارى اللأدريين فى غلوهم ، فاعترف بأنه شاهد أن الحواس قد خدعته فى بعض الاحايين « ومن الحزم ألا نشق البتة تمام الثقة فى الذين خدعونا مرة واحدة » (٤) ، ثم أقر بأننا نتصور فى الحلم

#### (١) التأملات الثانية ١٣

(٢) هو ميشيل ده منتانى Montagne الكاتب الفرنسى صاحب الرسائل المشهورة . كان فيلسوفا وعنى عناية كبيرة بعلم الاخلاق وهو مشهور بلا أدريته ومع ذلك كان مخلصا فى دينه عاش من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٩٢ ميلادية

(٣) الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ ص ٣٧٩

#### (٤) التأملات الاولى ١٢

أشياء نحسبها اذ ذاك حقيقية فاذا استيقظنا تبدد الحلم وتبين لنا أن ما رأيناه أثناء النوم لم يكن من الحقيقة في شيء ، ومعنى هذا أن كثيرا من الصور والافكار التي تتوارد أمامنا في اليقظة ترد علينا بنفسها أثناء النوم دون أن تكون اذ ذاك حقيقية ، واذن ما الذى يمنع أن تكون تصوراتنا في اليقظة مثل تصوراتنا في النوم كلها خيالات وأوهام ؟ وفرض فرض اللادريين أن الذاكرة ، وهى خزانة التجارب والمعارف ، لا يمكن الاطمئنان اليها ، وقال أيضا : « ٠٠ ولأن من الناس من يخطئون في التفكير ، حتى في أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات ، فاني لما حكمت بأننى كنت عرضة للزلل مثل غيرى ، نبذت فى ضمن الباطلات كل الحجج التى كنت أعتبرها من قبل فى البرهان » (١) .

يتبين من هذا أنه شاطر اللادريين فيما لهم من أسباب التشكك ، ومع ذلك ذهب الى أبعد مما ذهبوا اليه وفرض أن شيطاننا خبيثا مضللا قويا يستعين بكل ما فى وسعه من الخيل على تضليله ، وقال : ان السماء والهواء والارض والالوان والاشكال والأصوات وسائر الاشياء الخارجية لا تكون اذن الا أوهاما وأحلاما استخدمها فى سبيل تضليلي وان ما أعتبر نفسى حاصلًا عليه من أيد وعيون ولحم ودم ليس الا مجرد اعتقاد باطل (٢) .

ومن طبيعة المذهب اللادرى انه لا يقيم علما ، وقد عرف ديكارت ذلك خير معرفة وقال : انا اذا سلمنا بهذه الفروض السابق ذكرها تصبح العلوم الطبيعية محضى خيالات لأن موضوعها يقع فى ميدان المكان والحركة وهما مع هذه الشكوك لا يكونان الا من أوهام النفس . ولكن ديكارت لم يكن قط لا أدريا ، لان مقصده ، هو كما عرفنا ، البحث عن قاعدة أمينة يقيم عليها صرح العلم ،

(١) المقال عن المنهج ص ٥٠

(٢) التأملات الاولى ١٢

أى ايجاد مبدأ ضرورى لا يقبل الشك ، وفى ذلك يقول « ماكنت فى ذلك ( الشك ) مقلدا للأدرية الذين لا يشكون الا لكى يشكوا، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى ، فاننى على العكس ، كان مقصدى لا يرمى الا الى اليقين ، والى أن أدع الارض الرخوة والرمل ، لكى أجد الصخر او الصلصال » (١) \*

يصل ديكارت الى مبدأ يقينى عندما يقول ان هذا الشيطان الخبيث مهما بلغ من القوة لا يستطيع منعى من التوقف فى التصديق ولا يقدر على أن يفرض على شيئا (٢) ، واذن فأنا حر غير مجبر على الاخذ بتضليله ولا خاضع لسلطانه ، ولا يقدر على أن يمنح كونى موجودا ما دمت أرى اننى شئ من الاشياء (٣) ، ولكن أى شئ أكون ؟ اننى انتهيت بنفسى الى حقيقة كونى موجودا بمجرد التفكير واذن فأنا شئ مفكر ، وبعبارة أخرى أنا أفكر ، اذن فأنا موجود Je pense, donc je suis

«ولما انتهت الى أن هذه الحقيقة : أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ، كانت من الثبات والوثاقة ( واليقين ) بحيث لا يستطيع اللأدريون زعزعتها ، بكل ما فى فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أنى أستطيع مطمئنا ان آخذها مبدأ أول للفلسفة التى كنت أنحراها » (٤) . وقد بينت فى صفحة ٥١ التعليقة حرف ( ا ) ماذا يقصد ديكارت بكلمة التفكير . وبينت فى التعليقة حرف (ب) ص ٥١ و ٥٢ أن القضية ليست قياسا ، كما أن مجرد شرح استدلالاته للوصول اليها على نحو ما شرحتها الآن معتمدا على التأملات يكفى لعدم اعتبارها قياسا ، ويجب ان يضاف الى كل هذا أن الفكر يشتمل على عمليتي

(١) المقال عن المنهج ص ٤٥ و ٤٦

(٢) التأملات الاولى ١٣

(٣) التأملات الثانية ١٢

(٤) المقال عن المنهج ص ٥١ و ٥٢

البدهاءة التى تشتمل على الأوليات الضرورية والقياس الذى يطلقه ديكارت على النظريات (١) ، واذن تصح ان تكون القضية مبدء أول وسنرى كيف وفق ديكارت الى أن يقيم عليه كل فلسفته .

## - ٤ -

### التمييز بين النفس والبدن

أول شىء يستنتجه ديكارت من مبدئه أنا أفكر ، اذن فانا موجود هو تمييزه بين النفس والجسم . والنفس عنده هى الجوهر الذى يحل فيه الفكر مباشرة (٢) ، والجسم هو الجوهر المتحيز الذى يتخذ شكلا ووضعا (٣) . وله فى التمييز بين النفس والبدن حجج ثلاث نبدأ فى بسطها بالحجة التى وردت فى المقال عن المنهج ؛ ومجملها أنه بعد أن تأكد أنه موجود مفكر قال انه يستطيع أن يفرض أن لا جسم له ، وأن يفغل وجود السماء والأرض والهواء وكل شىء يقع فى المكان ، ولكنه مع ذلك يظل واثقا من وجود نفسه واذن تكون الأنية أو النفس موجودة مع فرض أن البدن غير موجود، واذن فهى شىء متميز عنه ، لا يستلزم وجودها مكانا ولا تتوقف على أى مادة (٤) .

وقد اعتبر الكثيرون هذه الحجة خاصة بديكارت ، أى انه أول من ذكرها ؛ وقد أثبت من أقوال هؤلاء قول هملان . ولكنى أثبت

(١) انظر الفصل الخاض بالعرفه وص ٣ التعليقة ١

(٢) الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ الحد السادس وانظر فى ص ٥٦

التعليقة الاولى تعريف الجوهر

(٣) التأملات الثانية والردود على الاعتراضات الثانية ١٢ الحد السابع

(٤) انظر ص ٥٢ وما بعدها مبادئ الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة الثامنة



فى التعليقات نصوصا لابن سينا يتبين من مقارنتها بكلام ديكارت أن الفيلسوف العربى سبق أبا الفلسفة الحديثة الى هذه الحجة (١) ومع أن المستشرق فورلانى بين امكان اطلاع ديكارت على كلام ابن سينا ، الا أننا لا نشك أقل شك فى أن الفيلسوف انما وصل الى هذه الحجة منتقلا من مبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود انتقلا منطقيا وهذا واضح جد الوضوح فى المقال عن المنهج ، وفى مبادئ الفلسفة حيث يشرح فى الفقرة السابعة من الجزء الاول مبدأه الاول ويبسط هذه الحجة فى الفقرة الثامنة تحت عنوان « بيان أن التمييز بين النفس والبدن يعرف بعد هذا مباشرة » بل ان نفس المبدأ ينطوى فى الواقع على هذه الحجة بحيث لا يبقى أى داع للارتياح فى أن ديكارت لم يأخذها عن سابقه .

وموجز الحجة الثانية فى التمييز بين النفس والبدن أن البدن مثل كل الأجسام قابل للقسمة ولكن النفس واحدة لا تتجزأ ؛ ونحن نورد فيما يلى ترجمة للنص الذى يودعه هذا الحجة :

« .. ان الاختلاف عظيم بين النفس والبدن فى أن البدن بطبيعته قابل دائما للقسمة ، وان النفس غير قابلة للقسمة على الإطلاق اذ أنه فى الواقع عندما أنظر فيها ، أى عندما أنظر فى نفسى ، من جهة أننى شىء يفكر ، فاننى لا أستطيع أن أميز فى نفسى أجزاء ما ، ولكننى أعرف وأتصور تصورا جد واضح أننى شىء واحد تام على الإطلاق . ومع أن النفس كلها تبدو متحدة مع البدن كله ، فانه اذا فصلت عنه ساق أو ذراع أو أى جزء آخر ، فاننى أعرف خير معرفة ، أنه لم يفصل ، من أجل هذا ، أى شىء من نفسى . وان قوى الارادة ، والاحساس ، والتصور الخ لا يمكن أن يقال عنها قولا صحيحا انها أجزاء النفس ، لان النفس التى تتصرف بتمامها فى الارادة ، وتتصرف بتمامها فى الاحساس والتصور ،

(١) انظر التعليقات ص ٥٣ - ٥٥

هى واحدة بعينها • ولكن الامر على نقيض هذا فيما يتعلق بالاشياء  
الجسمية أو المتحيزة لاننى لا أقدر على أن أتخيل منها شيئاً واحداً،  
مهما كان صغيراً ، لا يسهل على تجزئته فى الوهم ، أو لا يقسمه  
عقل بسهولة كبيرة الى أقسام كثيرة وبالتالى لا أعرف أنه غير قابل  
للقسمة » (١) •

ويوجد ما يشبه هذه الحجة عند أفلاطون الذى يقول بأنه من  
الضرورى ، لجمع الصور الحسية المختلفة والمعانى والمقارنة بينها ، أن  
يوجد مبدأ واحد بسيط هو النفس (٢) • وكذلك لم تكن الحجة  
مجهولة عند العرب فى العصور الوسطى ، اذ أن ابن سينا كتب  
فصلاً عن وحدة النفس ، يظهر فيه تأثير أفلاطون وهو يقول فيه ان  
قوى النفس المختلفة يجب ان تجتمع كلها عند ذات واحدة هى  
المبدأ لها ، وأن قوى الشهوة أو الحس والغضب ( وهذه لغة أفلاطون  
فى تقسيمه قوى النفس ) تؤدى الى مبدأ واحد ، وليس المراد من  
قولنا اننا أحسسننا فغضبنا أن شيئاً منا أحس وشيئاً منا آخر قد  
غضب ولكن المراد أن الشيء الذى أدى اليه الحس هذا المعنى عرض  
له ان غضب (٣) •

وكذلك حكى ابن حزم عن بعض الفلاسفة أن « النفس عند  
هؤلاء جوهر قائم بنفسه حامل لاعراضه لا متحرك ولا منقسم  
ولا متمكن أى لافى مكان » (٤) •

وكذلك عرض الغزالي عشرة براهين للفلاسفة فى القول بأن

---

(١) التأملات السادسة ١٢

(٢) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٨

(٣) النجاة ص ٣١٠ - ٣١٥ طبعة القاهرة ١٣٣١

(٤) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٢٧ طبعة القاهرة ١٣٤٧

النفس جوهر غير متحيز ولا منقسم (١) . ومع أنه لا ينكر هذا المذهب « انكار من يرى أن الشرع جاء بنقيضه » الا أنه ينكر على الفلاسفة « دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه » وأهم ما في هذه البراهين العشرة هو أنه قد يحل في النفس من العلم ما لا يقبل القسمة مثل الكليات المجردة واذن يكون محله وهو النفس غير منقسم .

والحجة الثالثة هي قوله بوجود معقولات خالصة غير محتاجة لتدركها النفس الى وجود مادة ، ومعنى هذا استغناء النفس في هذا الادراك عن الصورة التي تدركها الحواس ( وهي آلات جسمية ) ويحفظها الخيال ( وله عند علماء العصور الوسطى وعند ديكارت آلة جسمية أيضا أنظر ص ٩١ و ٩٢ ) . وانما تدرك النفس هذه المعقولات بالنور الفطري . وهو يعنى بهذه المعقولات الأوليات البسيطة مثل هذه القضية : اذا ساوى شيئان كل منهما شيئا ثالثا كانا متساويين (٢) . واذن يكون هذا برهانا على استقلال النفس عن البدن .

وأقواله في هذه الحجة قليلة وهو ينقض فيها دعوى الماديين القائلين بأن الفكر من عمل المخ (٣) . وكانت هذه الحجة هي حجة الروحانيين في العصور الوسطى وقد استعان بها كما استعان بسابقتها ليثبت تميز النفس عن البدن . ويلاحظ أنه صبغهما بصبغة مذهبه ، ولم يأخذهما على صورتيهما الأولى ويكفى أن يتأمل القارئ مقدار الفرق بين الثانية على نحو ما يبسطها وبينها على نحو

---

(١) مقاصد الفلاسفة ص ٢٩٢ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ وتهيافت الفلاسفة ص ٣٠٤ وما بعدها من طبعة بويج Bouyges بيروت سنة ١٩٢٧ وص ٧١ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٢١

(٢) راجع القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية عشر

(٣) صملان مذهب ديكارت ص ٢٦٠ لاسيما التعليقة الثانية

ماهى عليه عند أفلاطون وفلاسفة العرب ليتبين مقدار عمل ديكارت •  
ويستنتج من هذا التمييز بين النفس والبدن أنها ليست  
عرضة للفناء مثله وانها خالدة لا تقبل الموت معه (١) • وهو لا يبرهن  
على خلود الروح ببراهين خاصة ، مع عنايته الشديدة بهذه المسألة  
حتى انه ليجعلها من الموضوعات التي تكون علم ما بعد الطبيعة (٢) ،  
وذلك لانه يرى أنها من اختصاص الدين والوحي ، ومن رأيه أن  
الحقائق الدينية التي يأتي بها الوحي هي فوق الفهم ، ومن الحكمة  
الا تسلم الى ضعف الاستدلالات العقلية (٣) •

- ٥ -

## اثبات وجود الله

بعد أن يثبت ديكارت تميز النفس عن البدن بالحجة الأولى ،  
ينتقل الى البحث عما ينبغي لقضية من القضايا لتكون يقينية ، أى  
الى البحث عن معرفة ما يتكون منه اليقين • يقول انه وجد قضية  
عرف أنها يقينية ويعنى بها مبدأه الأول أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ،  
ثم يلاحظ أنه لا شيء فيها يجعله يشق من أنه يقول الحق الا كونه يدرك  
ما يقول ادراكا واضحا متميزا (٤) ، واذن فهو يستطيع الاطمئنان  
الى أن يتخذ قاعدة عامة أن الأشياء التي تتصورها تصورا قوى  
الوضوح والتميز هي جميعا حقيقية (٥) ، أى واقعية سواء من

(١) المقال عن المنهج ص ٩٨

(٢) مبادئ الفلسفة ٦ :للمقدمة

(٣) المقال ص ١٢

(٤) انظر حده للمعرفة الواضحة والمعرفة المتميزة في ص ٣١ التعليقة الاولى

(٥) المقال ص ٥٨ ومطلع التأملات الثالثة ١٢

جهة الوجود أو الماهية ( التعقل ) ، اذ أنه يرى أن الماهيات والصور  
الذهنية على العموم هي موجودات لانها تقوم في الذهن وتفكر في  
النفس (١) .

بعد ذلك ينتقل الى اثبات وجود الله ويختص . في البرهان  
على هذا حجج ثلاث نوجز شرحها على حسب ترتيبها في المقال (٢) .

الأولى : فكر في شكوكه واستنتج منها أنه ليس تام الكمال،  
لأن المعرفة شيء أكمل من الشك ما دام الشك قصورا عن ادراك  
الحقيقة ، ولكن معرفته أنه ليس تام الكمال تفيد تفكيره في شيء  
تام الكمال (٣) ، واذن فهو يريد أن يعرف أنى جاء هذا التفكير .  
هنا يستعين ديكرت بمبدأ العلية ويقول ان علة تفكيره في شيء  
أكمل منه يجب أولا - أن تكون موجودة ، ثانيا - أن يكون فيها  
من الكمال أكثر مما في المعلول (٤) . واذن يستحيل أن تكون  
الصورة الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم ، كما يستحيل  
أن تكون مستمدة من نفسه ، واذن لابد أن تكون قد أُلقيت اليه  
بواسطة كائن طبيعته أكثر كمالا ، بل ولها من ذاتها كل الكمالات .  
هذا الكائن هو الله .

الثانية - بما أنه عرف أنه موجود غير تام الكمال ، اذن وهو  
ليس الكائن الوحيد في الوجود ، اذ لا بد لوجوده من علة ، لانه لو  
كان هو علة وجود نفسه ، لكان يستطيع أن يحصل من نفسه على

---

(١) انظر ص ٧٠ والتعليقة الثانية في نفس الصفحة وفي الصفحة التالية  
(٢) انظر القسم الرابع من ص ٥٨ الى ص ٦٥ مع التعليقات عليها  
(٣) أو غير منتهية . انظر ص ٦١ التعليقة الثانية لبيان سبق معنى غير  
المتناهي على معنى التناهي

(٤) يقرب من هذا قول السهروردي « المعلول لا يكون أشرف من العلة »  
اقتبسها الاستاذ هرتن HORTEN في كتابه Die spekulative u. positive  
Theologie des Islam ص ١٨٣ لبيزج سنة ١٩١٢

كل ما يعرف أنه ينقصه من الكمالات ، لان الكمال ليس الا محمولا  
من محمولات الوجود ، وادى يستصيح ان يهب ،وجود يستطيع ان  
يهب الكمال . واذن تكون علة وجوده ذاتا لها كل ما يتصور من  
الكمالات وهذه هي ذات الله .

الثالثة - نظر الى الهندسة ولاحظ أن كل ما يعزوه الناس الى  
براهينها من يقين انما يقوم على أنها تتصور بوضوح وتميز تبعاً  
لقاعدته العامة . ولكن لا شيء في هذه البراهين يؤكد لنا وجود  
موضوع الهندسة الذي هو الكم المتصل المتحرك ، فمثلاً اذا فرضنا  
مثلاً نستطيع أن نشق بفضل البرهان الهندسي أن زواياه الثلاث  
مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن هذا لا يستطيع أن يجعلنا على ثقة  
من أن في العالم مثلثاً ، على حين أنه عند امتحان ما عندنا من صورة  
ذهنية لموجود تام الكمال ، نرى أن الوجود داخل فيها على نحو  
ما يدخل في الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مساوية  
لقائمتين . ومحصل هذا كله أن معنى الكمال المطلق ، أو معنى غير  
المتناهي يشتمل على معنى الوجود . واذن يبيح لنا القول بأن الله  
حاصل على كل الكمالات أن نستنتج أنه موجود وان نشق من ذلك  
أكثر من ثقتنا في أى برهان هندسي .



بعد ذلك يقول ديكارت ان قاعدته العامة : الأشياء التي نتصورها  
تصوراً جرد واضح وجد متميز هي جميعاً حقيقية ، ليست ثابتة الا  
لأن الله كائن أو موجود (١) ، وأنه على نحو ما أثبت ، مصدر الجود  
والصدق ، ومن المستحيل أن يخدعنا ، ويقول أيضاً « ان معرفة الله  
والنفس جعلتنا على ثقة من هذه القاعدة » (٢) . ولكننا لاحظنا أنه

(١) المقال ص ٧٠

(٢) المقال ص ٧١

أثبت وجود الله معتمدا على قاعدة وضوح المعاني وتميزها ، ومعنى ذلك أنه ارتكب ما يسمى في المنطق بالدور •

لم يفت معاصرو ديكارت أن يلاحظوا ذلك، وكان ممن انتقدوه جاسندي الذي كتب اليه «انك تسلم بأن الصورة الذهنية الواضحة المتميزة حقيقية ، لأن الله موجود ، ولأنه خالق هذه الصورة وهو ليس خادعا ، وأنت تسلم من جهة أخرى أن الله موجود وبأنه خالق حق لانك حاصل على صورة ذهنية له متميزة واضحة • ان الدور واضح » (١) • وقد رد الفيلسوف على كل المعارضين بما لا يتعدى المعنى التالى « ثم اننى بينت بوضوح لا بأس به فى ردودى على الاعتراضات الثانية ، أننى لم أقع فى الخطأ المسمى بالدور ، عندما قلت اننا لسنا على ثقة من أن الأشياء التى نتصورها تصورا شديدا الوضوح والتميز هى جميعا حقيقية الا لأن الله كائن أو موجود ، وأننا لسنا متأكدين من أن الله كائن أو موجود الا لأننا نتصور ذلك بوضوح وتميز شديدين ، وذلك بتمييزى بين الاشياء التى نتصورها فى الواقع تصورا واضحا جدا وبين الاشياء التى نتذكر أننا تصورناها فيما سبق بوضوح شديد ذلك لأنه ، أولا ، نحن على ثقة من أن الله موجود لأننا نوجه انتباهنا الى الحجاج التى تثبت لنا وجوده • ولكن يكفى بعد ذلك أن نتذكر أننا تصورنا شيئا تصورا واضحا لتكون على ثقة من أنه حقيقى ، وهذا لا يكون كافيا اذا لم نعرف أن الله موجود ، وأنه لا يمكن أن يكون خادعا » (٢) •

ومعنى هذا أنه يميز بين المعرفة البديهية وبين المعرفة النظرية التى تحتاج الى الذاكرة، والاخيرة هى التى لايمكن أن تكون صحيحة الا لأن الله موجود وأنه حق • ونحن نكتفى فى نقض اتهامه بالدور

(١) الاعتراضات الخامسة ١٢

(٢) الردود على الاعتراضات الرابعة ٧٢

بدفاعه عن نفسه ويضطرنا تعتمد الايجاز الى اغفال دفاع غيره والمسائل  
التي يثيرها الجدل في هذا الموضوع .

— ٦ —

## منهج ديكارت

### ( أ ) تحليل المعرفة أو البداهة والقياس

بحث ديكارت عن منهج واحد من المستطاع استخدامه في كل  
البحوث ، مهما اختلفت موضوعاتها ، لأجل الوصول الى الحقيقة .  
ومن أجل هذا نظر في العلوم التي درسها ووازن بين حججها  
وبراهينها فوجد أن أكثرها تأكيداً وبقينا هي براهين الرياضيات  
ولما كان يعتقد بأن العقل الانساني واحد ، فإنه لم يجد سبباً لهذا  
الاختلاف بين العلوم في مراتب اليقين ، الا اختلاف المناهج التي  
يسلكها الباحثون في العلوم المختلفة ، وأيقن أنه لو طبق على كل علم  
المنهج الذي يتبعه الرياضيون في الوصول الى براهينهم ، لبلغت  
العلوم درجة الرياضة من حيث استقرار النتائج ولم يبق شيء يبرر  
اختلاف العلماء ومجادلاتهم .

صمم ديكارت عزمه على أن يعرف كيف يتصرف العقل في  
طريقة البرهان الرياضي ، أي أنه عزم على أن يحلل المنهج الرياضي  
الى عناصره العقلية ، فام يتعسر عليه أن يشاهد أنه ينحصر في  
استنباط النتائج استنباطاً عقلياً ، أي في القياس *Dédution*  
ولكن القياس لا يبدأ من غير أن يسبقه عمل عقلي آخر ، اذ أنه لكي  
يكون يقينياً وبرهانياً بالمعنى الصحيح ، يجب أن يبدأ سيره من  
أشياء بسيطة يسلم بها العقل ، والعمل الذي به يفرض العقل على



نفسه هذه الاشياء البسيطة يسمى البداهة intuition (١) وهو يرى أنه ليس للمعرفة الصحيحة غير سبيلين هما البداهة والقياس (٢) . وهو يقول في حده للبداهة : « لا أعنى بالبداهة الاعتقاد في شهادة الحواس المتغيرة ، أو أحكام الخيال الخادعة . . . ولكنني أعنى بها تصور النفس السليمة المنتبهة تصورا هو من السهولة والتميز بحيث لا يبقى أى شك فيما نفهمه ، أى التصور الذى يتولد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الانوار العقلية » وعلى

---

(١) يستعمل بعض أساتذة الجامعة المصرية كلمة « الحدس » ترجمة لكلمة Intuition . ونحن لم نأخذ بهذا الاستعمال لسببين : الاول لأن كلمة الحدس تشير كثيرا من الشبهة اذ أنها تفيد عند منطقة العرب « حركة الى اصابة الحد الاوسط اذا وضع المطلوب أو اصابة الحد الاكبر اذا اصاب الاوسط » وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول كمن يرى تشكل استنارة القمر عند احواله قربه وبعده عن الشمس فيحدس أنه يستنير من الشمس » ( ابن سينا النجاة ص ١٣٧ ) . وهذا مخالف كل المخالفة لما يعنيه ديكرت بال intuition كما سيأتى بيانه عن قريب . وقد ترجم الاستاذ هرتن HORTEN كلمة الحدس في معناها المذكور بكلمة Scharfsinn أى الامضاء فى الفهم ، كما أن الاستاذ اورد معانيها المختلفة واورد مايقابل هذه المعانى من كلمات فى اللغة الألمانية ولم يترجمها بكلمة intuition الا عندما يكون المقصود بها « النفس القدسية » أى عندما تصبح الكلمة من لغة الصوفية الذين يخالفون الفلاسفة فيما هم من معان ومقاصد ( انظر Die spekulative u. positive Theologie des Islam ص ١٤٨ و ٢٩١ وراجع أيضا الجرجاني التعريفات عند كلمة النفس القدسية ) . والسبب الثانى أن لكلمة intuition فى الفلسفة الاوروبية معانى متعددة ويعنى ديكرت بها معنى خاصا رأينا أنه يطابق مفهوم كلمة « بداهة » فى اللغة العربية واستعملناها باعتبارها العمل العقلى الخاص بإدراك البديهي ، وهو كما يعرفه صاحب كشاف الاصطلاحات « يطلق على معان منها مرادف للضرورى المقابل للنظري . ومنها القدمات الاولى وهى ما يكفى تصور الطرفين والنسبة في جزم العقل به وبعبارة أخرى ما يقتضيه العقل عند تصور الطرفين والنسبة من غير استعانتة بشئ » ج ١ ص ١٥٨

(٢) القواعد لقيادة لعقل القاعدة الثانية عشرة

هذا النحو يستطيع كل انسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وأنه ليس للكرة الا سطحاً واحداً ، وغير ذلك من الحقائق المشابهة التي هي أكثر عدداً مما يعتقد في العادة » (١) •

وتختص البديهة بأدراك الأشياء البسيطة ، والبسيط عند ديكارت ما ليس له أجزاء فاما أن يعرف كله أو يجهل كله ، وعلى ذلك تكون البداة هي العمل الذي به نعرف المبادئ الأولى (٢) • ويفيد القياس عنده النظر على العموم أى كل أنواع الاستنباط وهو يعرفه بأنه العملية التي يستنبط بها شيء من شيء آخر (٣) ومعنى ذلك المرور من حد الى حد آخر يتلوه أو ينتج عنه مباشرة وبالضرورة •

ويلاحظ أنه بالبداهة تعرف الطبائع البسيطة ، ولكن المركبة تدرك بالقياس ، ثم ان القياس متتابع ، ولكن البداة وقتية (٤) ، والقياس يستمد ماله من يقين من الذاكرة ، بينما تمتلك البداة يقينا حاضرا (٥) • ثم ان البداة لا غنى عنها في القياس عند الانتقال من حد الى حد ، بل ويرى الاستاذ هملان أن استنباط النتيجة هو بداة وهو يذهب في ادماج القياس بالبداة الى حد قوله ان نظرية ديكارت في المعرفة تتلخص في القول بأن المعرفة هي ادراك طبائع بسيطة ببداة لا تضعف وادراك الروابط بين هذه الطبائع البسيطة ، التي ليست في ذاتها الا طبائع بسيطة (٦) •

(١) نفس الكتاب القاعدة الثالثة

(٢) نفس الكتاب القاعدة الثانية عشرة وهناك منهج ديكارت ٢ ص ٧٦٢

(٣) القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية

(٤) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٨٠

(٥) هناك منهج ديكارت ٢ ص ٨٦١

(٦) هملان الكتاب المذكور ص ٨٢ و ٨٧ و ٨٨

## (ب) القواعد الأربع

بعد أن أوجزنا شرح التحليل الديكارتي للعمليات اللتين يقوم بهما في سبيل المعرفة : العقل بأقوى معناه Le Bon Sens نريد الآن أن نلم بقواعد منهجه التي سردها في القسم الثاني من **المقال عن المنهج** •

يعني ديكارت بالمنهج «قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس الى المعرفة الصحيحة بكل الاشياء التي تستطيع ادراكها ، دون أن تضيق في جهود غير نافعة ، بل وهي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج » (١) •

وهو يرى أنه كلما اتجهنا نحو البساطة وكلما اقتصرنا في نشاطنا العلمي على النور الفطري كان وصولنا للحقيقة آمن وأيسر • وذلك لأنه يقول ان النفس تشتمل على شيء الهى أودعت فيه البذور الأولى للأفكار النافعة ، واذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة ، لم يجن منها الا ثمرات غثة لا يرجى منها نفع دائم أو خير مقيم (٢) • ومن هذه الناحية قال انه شاهد أن تعدد القوانين في الدولة كثيرا ما يهيء المعاذير للنقائص (٣) ، وعلى ذلك رأى أن يستبدل بتعليمات المنطق الكثيرة المعقدة أربع قواعد سهلة بسيطة من المستطاع تطبيقها بنجاح في كل أنواع البحوث النظرية •

الاولى وتسمى قاعدة اليقين ونصها هو « ألا أقبل شيئا على أنه حق ، ما لم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، وألا أدخل في أحكامي الا

(١) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الرابعة

(٢) نفس الموضع وراجع للوقوف على مراده ببلور الافكار صفحة ١٠٣

من المقال مع التعليقة الواردة في نفس الصفحة •

(٣) أنظر صفحة ٢٩ و ٣٠ والتعليقة الواردة في تينك الصفحتين

ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدى أى مجال  
لوضعه موضع الشك » (١) .

وفى اعتقادى أن المعرفة التى تنطبق عليها هذه القاعدة هى  
البداهة لأن المعرفة البدئية تمتاز بالبساطة والوضوح والتمييز ،  
ثم لأنها ، كما سبق القول فى القسم الاول من هذا الفصل ، تشتمل  
على يقين حاصر ، أى الاعتقاد الجازم بأن موضوع المعرفة هو كذا مع  
الاعتقاد فى نفس الوقت بأنه لا يمكن أن يكون الا كذا (٢) ، مثل  
القول بأن للمثلث ثلاثة أضلاع ، وأنه اذا تساوى شيئان كل منهما  
ساوى شيئا ثالثا كانا متساويين وغير ذلك . .

**القاعدة الثانية** تسمى بقاعدة التحليل وبها ينبغى أن تقسم  
المعضلة التى تدرس الى أجزاء بسيطة على قدر ماتدعو الحاجة الى حلها  
على خير الوجوه (٣) والواقع أن هذه القاعدة متصلة بالتالية ، حتى  
ان ديكارت جعلها فى القواعد ( وهى مكتوبة قبل المقال ) قاعدة  
واحدة حيث قال « ينحصر المنهج بأجمعه فى أن نرتب وننظم الاشياء  
التي ينبغى توجيه العقل اليها لاستكشاف بعض الحقائق » ونحن

---

(١) انظر ص ٣٠ و ٣١ وراجع التعليقات فى تينك الصفحتين لشرح مايقصده  
ديكارت بالتهور والسبق الى الحكم قبل النظر والجلاء والتميز  
ومما يجدر بالذكر أننى اخترت كلمة التهور ترجمة لكلمة Précipitation  
لأننى راعيت الاصل التاريخى لهذا المعنى ، اذ ان القديس توماس الا كينى سبق  
ديكارت الى هذا المعنى فى علم الاخلاق فقال عنه انه رذيلة تقابل فضيلة التروى  
والمشورة التى هى تابعة لفضيلة الحزم . وعلى ذلك يكون التهور عند القديس  
توماس من عيوب الارادة وعند ديكارت من عيوب العقل انظر جلسون **التعليق ٤**  
ص ١٩٨ و ١٩٩

(٢) انظر لتعريف اليقين **كليات أبى البقاء** ص ٢٥ طبعة القاهرة سنة  
١٢٨١ هـ وكشاف الاصطلاحات صفحة ١٥٤٧ وقارن ذلك بما جاء فى معجم  
الفلسفة ١١ للاستاذ لالاند تحت كلمة Evidence  
(٣) **القال** ص ٢١

نتبع هذا المنهج خطوة خطوة ، اذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المهمة الى قضايا أبسط ، واذا بدأنا من الادراك البديهي لأبسط الاشياء كلها *ex omnium simplicissima rum intuitu* فاننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات الى معرفة سائر الأشياء » (١) •

**القاعدة الثالثة** تسمى بقاعدة التأليف أو التركيب ويعبر عنها بقوله : « أن أسير أفكارى بنظام ، بادئا بأبسط الامور وأسهلها معرفة كى أتدرج قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيبا ، بل وأن أفرض ترتيبا بين الامور التى لا يسمي بعضها الآخر بالطبع » (٢) • وقد ذهب الاستاذ هملان الى أن هذه القاعدة هى أساس المنهج الديكارتى ، وأنها أظهر القواعد آتيا عند تطبيق ديكارت لمنهجه على المعضلات (٣) ، كما أن الاستاذ برنشفيك ينبه الى أن كل الذين درسوا ديكارت ومثهم جلسون لم يعنوا بقوله « كى أتدرج قليلا قليلا » العناية الواجبة اذ ما الذى يميز المعادلات الرياضية غير التدرج شيئا فشيئا ؟ ويرى أن ديكارت يقصد من هذه العبارة التعبير عن أمنيته الكبيرة وهى تطبيق المنهج الرياضى على كل العلوم • ثم ان ديكارت نفسه، كما رأينا فى النص الذى اقتبسناه من القواعد يشير بأهمية هذه القاعدة حتى ليقول ان المنهج بأجمعه ينحصر فيها • وهو يرى أيضا أن العالم الذى لا يتبع هذه القاعدة فى الترتيب مثله كمثّل الرجل الذى يريد أن يرقى منزلا من أسفله الى أعلاه فيحاول أن يشب وثبة واحدة ، ضاربا الصفح عن السلم المجهول لهذه الغاية، أو غير مبصر اياه (٤) •

**والقاعدة الأخيرة** تسمى بقاعدة الاستقرار التام أو الاحصاء أو

(١) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الخامسة

(٢) المقال ص ٣١ و ٣٢ مع التعليقات عليها

(٣) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٧٠ و ٧١

(٤) القواعد ١ الخامسة

التحقيق ، وهو يعرضها في هذه العبارة الموجزة : « أن أعمل ففى كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من أنى لم أغفل شيئا » (١) .

والغرض من هذه القاعدة تكميل العلم وذلك بأن نمر بحركة فكرية متصلة على كل الموضوعات التى تتصل بغرضنا ، وأن نحيط بها فى احصاء كاف ومنهجى (٢) وفى الواقع انه قد تتعدد حدود الاستدلال فى مسألة من المسائل بحيث يصبح من المستحيل أن نصل بالبداهة الى اقامة علاقة بين الحد الاول والحد الاخير أى أن الوصول الى النتيجة لا يكون من عمل البداهة . واذن فوظيفة هذه القاعدة هى مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التى تكون سلسلة الاستدلالات ، فإذا تأكدنا من وثاقة اتصالها جاز لنا أن نحكم حكما صحيحا ويصبح هذا الحكم بالغا من اليقين ما تبلغه البداهة . ويجب أن تكون عملية الاستقراء التام متصلة غير منقطعة ، اذ لو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التى تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة ولما تبقى شىء من اليقين . ثم يجب أن يكون الاستقراء التام وافيا حتى نستطيع به أن نبليغ اليقين ، اذ أننا فى هذه القاعدة عرضة لتضليل الذاكرة ، واذن يجب مع احاطتنا بكل سلسلة القضايا أن ننتبه الى تميز كل واحدة عن الأخرى حتى لا يتطرق الغموض والابهام الى معرفتنا (٣) .

ويرى مما سبق أن قواعد المنهج الثلاث الاخيرة كلها متصلة بعضها مع بعض ففى عملية الاستقراء التام نجد التحليل والتركيب

---

(١) المقال ص ٢٢ والتعليقة الثانية فى نفس الصفحة . وأنا أنه هنا الى انه يعنى بقوله « كل الاحوال » حالتى التحليل والتركيب ، أى فى القاعدة الثانية والثالثة .

(٢) القواعد ٦ عنوان القاعدة السابعة

(٣) القواعد ٨ القاعدة السابعة

كما أن الاستقراء التام يحقق التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف . وكذلك رأينا أنه أدمج التحليل والتركيب في قاعدة واحدة في كتابه القواعد .

## - ٧ - الأخلاق

بعد أن شرحنا مذهب ديكارت في علم ما بعد الطبيعة ، الذي هو في رأيه أول العلوم ، لأنه يشتمل على مبادئ المعرفة الصحيحة ، وبعد أن تكلمنا عن منهجه الذي يحتوى على تحليل وسائل المعرفة ، وبيان الطرق التي تؤدي بالعقل الى بلوغ الحقيقة في كل بحث ، على نحو ما يفعل الرياضيون في الوصول الى أوثق براهينهم ، نريد الآن أن نتكلم قليلا عن مذهبه في علم الاخلاق الذي هو عنده آخر مراتب الحكمة والعلوم ، اذ يستلزم البحث فيه احاطة تامة بسنائر أنواع المعرفة . ونحن ، في سبيل الایجاز، نعذر للقارئ على تركنا الكلام عن رياضياته وطبيعياته في هذه المقدمة ، مكتفين بالقليل الذي كتبه عنها في **المقال عن المنهج** وبتعليقاتنا عليها .

نحن نعرف الآن مبلغ حماسة ديكارت في رغبته أن يجدد الفلسفة والعلوم ، وقد رأى الفيلسوف أن يبنئها على أساس جديد قوى بدل أن يكتفى بترقيع البناء القديم القائم على أساس ضعيف . وفي سبيل هذا تخلص من كل الآراء القديمة التي وجد أنها موضع شك ، حاشا ما يختص بالدين لأن حقائقه موحى بها ، وأخذ يبحث بعد هذا عن قواعد قوية للعلم وعن طريقة قوية لتكوينه . ولكنه تمثل بالحكمة القديمة : **الحياة أولا ثم الفلسفة** Primo vivendi, deinde philosophare . وقال اننا اذا شئنا تجديد المسكن الذي نقيم فيه ، وجب علينا قبل هدمه أن نجد منزلا آخر نأوى اليه أثناء العمل في مسكننا . وكذلك لما كانت السعادة والنجاح في الحياة

العملية لا يجتمعان مع الشك والتردد ، فقد رأى أن يضع لنفسه قواعد للاخلاق مؤقتة (١) .

وقد بينت في تعليقاتي على مطلع القسم الثالث من **المقال** ماذا يقصد ديكارت بقوله **قواعد مؤقتة** . ومما يؤسف له أن الكثيرين فهموا من هذا التعبير أنه كان ينوى العدول عنها ، والواقع مخالف لذلك ، إذ أنه يسميها أخلاقا مؤقتة لأنه لم يكن قد انتهى من بنائه لهيكل العلوم بعد ، وهو يرى ان موضع الاخلاق في قمة هذا الهيكل . واذن لو أنه كتب شيئا عن الاخلاق قبل أن ينتهي من كل العلوم لكان اسم هذا الشيء مؤقتا . وتعتبر هذه القواعد مؤقتة أيضا لأنها كافية للإنسانية قبل أن تبلغ علومها غاية الكمال . وقد كان ديكارت على ثقة من أن ما بقي له من الحياة لن يتسع لتطبيقه منهجه على كل العلوم ، أى لتجديدها ، ولكنه مع ذلك كان شديد العناية بعلم الاخلاق حتى قال صديقه كليرزليه « ان نصيب الاخلاق من تفكيره كان أكبر الموضوعات نصيبا » (٢) .

تتلخص أخلاق ديكارت المؤقتة في ثلاث قواعد (٣) :

**الأولى :** أن يطيع الإنسان قوانين بلاده وأن يحترم عاداتها ، مع الثبات على الديانة التي نشأ عليها ، وأن يدبر شئونه في سائر الأمور تبعا لأكثر الآراء اعتدالا ، التي أجمع على الرضاء بها أعقل الذين يعيش معهم .

**الثانية :** أن يكون أكثر ما يستطيع ثباتا في أعماله ، وأن يتجنب الشك والتردد في سياسته ، مثله في هذا مثل المسافرين الذين يضلون في غابة ، اذا اتبعوا وجهة واحدة في سيرهم خرجوا

(١) المقال من المنهج ص ٣٧ ، والتعليقات في ص ٢٧ و ٢٨

(٢) باييه حياة السيد ديكارت BAILLET La Vie de Monsieur

Descartes ج ١ ص ١١٥

(٣) المقال من ص ٢٧ الى ٤٣



من الغابة ونجوا ، أما اذا ضربوا فيها ههنا مرة ، وها هنا مرة أخرى .  
أو وقفوا فيها ضعف أملهم في النجاة والسلامة .

**الثالثة :** أن يجتهد في مغالبة نفسه ، وحد رغباته وشهواته  
لا في مغالبة الحظ أو مقاومة القدر . لأن أفكارنا ملك لنا نستطيع  
أن ننحكم فيها كما نشاء وبهذا نستطيع الا نأسف لحرماننا من  
الاشياء التي لا نقدر على نوالها . وعلى هذا النحو نستطيع أن ننع  
بالغنى والقوة والحرية وكل أنواع السعادة .

ولا أريد أن أكرر هنا ما كتبته تعليقا على هذه القواعد .  
ولكنني أنبه الى تمييز ديكرات بين عمل العقل في النظريات وعمله  
في الاخلاق والاشياء العملية : في انظريات يطرح كل ما يحتمل  
أقل شك ويتخلص من كل ما ليس الا محتملا . أما في الاخلاق .  
فانه اذا عزم على عمل واتضح له وهو في أثناء تنفيذه أنه مخطئ .  
في رأيه فان العقل يأمره أن يستمر في عمله حتى ينتهي الى  
النتيجة (١) . واذا تساوت الآراء أمامه في الرجحان عليه أن يتمسك  
ببعضها وألا يعتبرها بعد هذا موضعا للشك باعتبارها متصلة بالعمل .  
بل علينا أن نعتبرها جد حقيقية ووثيقة لأن العقل الذي ألزما بها .  
هو نفسه كذلك (٢) .

كنا نريد أن نتكلم عن تأثير ديكرات في العمران وكيف صدرت  
عن فلسفته كل المذاهب الفلسفية الحديثة ولكن المجال لا يتسع لمثل  
هذا ونرجو أن نقدر على ذلك في عمل آخر ان شاء الله . والآن .  
فلنقدم للقراء كتابه **المقال عن المنهج** .

---

(١) المقال ص ٤٠

(٢) ص ٤١

## المقال عن المنهج

في سنة ١٦٣٧ ظهر في ليدين ، احدى مدن هولندا الكبيرة ، كتاب مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم . ويليه علم انكسار الأشعة وعلم الأنواء والهندسة وهي تجارب لهذا المنهج .

وكان نص العنوان كما يلي :

DISCOURS DE LA METHODE  
Pour bien conduire sa raison et chercher la vérité  
dans les sciences  
plus  
LA DIOPTRIQUE, LES METEORES  
ET LA GEOMETRIE  
Qui sont des essais de cette METHODE

ولم يظهر اسم المؤلف على الكتاب ، لانه كان عدوا للشهرة ، ثم لان خلو الكتاب من اسم مؤلفه كان أمرا مألوفاً في هذا الزمن ، ولكن الظاهر أن الكتاب لم يقرأه قارئ في هذا العهد دون أن يعرف أن مؤلفه رينه ديكرت الفيلسوف الفرنسي الذي هجر وطنه ، واعتزل أهله ومعارفه ، وطلب الوحدة في هولندا ليفكر في هدوء واطمئنان لا يكدرهما أحد . وكان ديكرت ينوى ان يجعل عنوان المقال ، مشروع علم شامل يستطيع ان يرقى بطبيعته الى أعلى مرتبة لها من مراتب الكمال ، ولكنه شم رائحة الغرور تنبعث من هذا العنوان فعدل عنه وآثر الذي ظهر به الكتاب .

ولكن المقال عن المنهج لم يكن الا مدخلا للرسائل الثلاث التي تتلوه ، لهذا ما كاد معاصرو ديكرت ينتهون منه على نحو ما ينتهي القراء من مقدمة أى كتاب ، حتى تخطوه الى ما بعده فاستفادوا من

الرسائل ما يستفيد أهل العلم من أحدث البحوث التي تمد المعارف بجديد ، وتزيد في الشروة العقلية للإنسان . على أن الطبيعيات التي أمدتها فيلسوفنا ببحثيه عن انكسار الاشعة وعن الانواء ، والرياضيات التي اشترك في بنائها بهندسته ، قد تجاوزت الآن تصوراتها ولم يعد لهذه البحوث أكثر من قيمتها التاريخية أما **المقال** فقد تحول انتباه الناس اليه ، وأخذ يبدو لهم كلما تهذب الفكر الحديث وترقى في وعيه بنفسه ، أنه يشتمل على أصح حد للفلسفة ، وتعيين غاياتها في العمران ، وبيان ما تختص به من أنحاء وطرق . وما زال **المقال** ، كلما أمعن في درسه طلاب العلم ، يجدون فيه أشياء جديدة ؛ حتى لقد قال عنه عالم ألماني هو الدكتور ينكمن Jungmann ك. عندما يقرأ الإنسان **فاوست** جويته لا بد أن يتذكر **المقال عن المنهج** لديكارت اذ يظهر في العملين نفس النزعة غير المنتهية التي تطمح في النفس الانسانية الى مزيد من الرقى والكمال » (١) .

وعزا الكثيرون الى هذا الكتاب الذي لم يكن الا مجرد مقدمة كل النهضة الفلسفية في القرنين السابع والثامن عشر ، وذهب البعض الى أنه أساس المدنية الحديثة اذ جعلوا منه أصل الثورة الفرنسية فقال الاستاذ اميل بوترو E. Boutroux ان الثورة الفرنسية وليدة **المقال عن المنهج** لان المجتمع قد تجدد في سنة ١٧٨٩ باسم مبدأ اليقين العقلي الديكارتى (٢) وكذلك استشهد الكاتب الكبير بول بورجيه Bourget على أن الافكار تحكم العالم بأن الثورة الفرنسية تصدر بأجمعها عن تصور الفلسفة الديكارتية للإنسان (٣) . والمقصود بهذا التصور تحديد ديكارت للإنسان بأنه شيء يفكر .

(١) رينه ديكارت بحث في عمله ١٦ ص ٨ من الترتيب الرومانى

(٢) دروس في تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٢ و ٢٩٣

(٣) قصة التلميذ Le Disciple ص ٤٩

ومنذ صدر المقال في ليدن سنة ١٦٣٧ الى الآن وهو يعاد طبعه  
ويترجم الى اللغات المختلفة حتى لقد ترجم الى اللغة التركية • بل  
ان اللغات الاوربية الكبيرة تحتوى في آدابها على أكثر من ترجمة  
واحدة له • وكثرت عناية العلماء والباحثين بشرحه والتعليق عليه •  
وأوفى هذه التعليقات هو ما نشره الاستاذ جلسون سنة ١٩٢٥ اذ  
يقع في نحو الخمسمائة صفحة من القطع الكبير لا يشغل منها النص  
الا ثمانيا وسبعين ، طبعت بحروف كبيرة بخلاف التعليق فحروفه  
عادية • ومن الادلة على قيمة المقال أنه يدرس في كل جامعات  
أوربا في حجات الدرس وهو مقرر أيضا على طلبة السنة الثالثة  
من قسم الفلسفة في جامعتنا المصرية •

ولما رأيت عظيم العناية في مصر وفي الشرق العربي بالاطلاع  
على الثقافة الغربية ، وشاهدت رغبة العقلاء في مشاركة الأمم التي  
فاقتنا في الحضارة في المعارف التي يعتمد عليها هذا التفوق ،  
اقتنعت أن من الواجب علي أن أنقل الى العربية هذا الكتاب الصغير  
في حجمه ، الكبير في قيمته ، العظيم في آثاره • وكان من الاسباب  
التي بعثتني على اختيار هذا الكتاب والنهوض بترجمته مع صعوبة  
عبارته وتعسر نقله الى لغة أخرى هو رغبتى في أن أعرض لقراء  
العربية نموذجا واضحا للفلسفة الصحيحة ولن يرى قراء العربية  
غموضا في معاني ديكارت ، لأن فلسفته مثل للوضوح ، ثم انه لم  
يكن يكتب لطبقة معينة ، أو أمة خاصة ، أو جيل واحد ، بل كان  
يكتب فلسفة للجميع « حتى للأتراك (١) » كما يقول •

\*\*\*

وأحب أن أنبه هنا الى أنني أخذت في الترجمة والتعليق

---

(١) أعمال ديكارت مطبوعة أدام وتانرى ج ٥ ص ١٥٩ وتدل كلمة الامراك  
في لغة هذا العصر على المسلمين عموما

بمبدئين : **الاول** : محافظتى على وحدة اللغة العربية وأعنى بهذا أننى استعملت فى ترجمة الاصطلاحات الفلسفية الاوربية عين الاصطلاحات التى استعملها من قبل فلاسفة الاسلام للدلالة على نفس المعانى ، وأما الاصطلاحات الديكارتية فاننى بحثت لها عن كلمات عربية خالصة تؤدى معناها ، ثم أردفتها فى التعليقات بتحديد ديكارت نفسه لمفهومها • **والمبدأ الثانى** : المحافظة على تجانس الادب العربى . وأقصد بهذا أننى اجتهدت فى أن لا أدع الكتاب الذى أنقله الى العربية غريبا فى الادب العربى الفلسفى ؛ ذلك بأننى اجتهدت فى أن أقرب بين كثير من المعانى الواردة فى **المقال عن المنهج** وبين معان لفلاسفة الاسلام فيها قول • وليس هذا من الغرابة فى شئ ؛ اذ أن ديكارت لم يخلق الفلسفة جملة واحدة ، بل استمد فى بنائه الفلسفى بعض الانقراض القديمة من فلسفتى الاغريق والعصور الوسطى ؛ وقد عرف العرب فلسفة الاغريق وترجموا ما وصلهم منها الى لغتهم ؛ وشرحوه ونقدوه وزادوا عليه وكذلك فعل علماء العصور الوسطى بما أخذوه عن العرب •

\*\*\*

وأخيرا أقول اننى اعتمدت فى الترجمة على مطبوعة الاستاذين آدم Adam وتانرى Tannery لأعمال ديكارت التى نشرت فى باريس من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩١١ برعاية وزارة المعارف الفرنسية ويقع **المقال عن المنهج** فى الجزء السادس منها من ص ١ الى ص ٧٨ وقد احتفظت بترقيم هذه الصفحات ووضعها على هامش الترجمة ، وأذكر أيضا أننى تصفحت الترجمة اللاتينية التى قام بها أتين دى كورسل Etienne de Courcelles (١) وقد راجعها

---

(١) ظهرت هذه الترجمة للمقال وانكسار الأشعة والانواء فى امستردام سنة ١٦٤٤ وعنوان المقال كما يأتى =

ديكارت بنفسه وزاد فيها على النص الفرنسي بعض الزيادات أكتب  
منها الكثير ووضعت بين قوسين هكذا ( ) ، وكذلك راجعت آثني  
النقل ، الترجمة الانكليزية للاستاذ فيتش Vietch (١) والترجمة  
الالمانية للدكتور بوشناو Buchenau (٢) ، أما التعليقات والكت  
التي استقلت منها فهي مذكورة في بيان المراجع والذي لم ير  
وصفه في هذا البيان لقلة وروده في الكتاب وصفته عند ذكره ف  
التعليقات أو في النهاية مع المراجع .

واني أرجو من الله أن يوفقني في خدمة اللغة والوطن بأن أنقل  
الى العربية ما أقدر على نقله من أهم ما كتبه أبطال الفلسفة الحديثة.

القاهرة في : ١٤ شوال سنة ١٣٤٨

١٥ مارس سنة ١٩٣٠

محمود محمد الخضيرى

---

Benati Descartes specimena philosophia. Dissertatio de  
Methodo recte regendae rationis, & Veritatis in scientiis in-  
vestigandae

وهو منشور في المجلد السادس من الاعمال الكاملة  
(١) Discourse on Method ومعها ترجمة لكتب أخرى لديكارت نشرت  
في لندن وادنبرة عند William Blackwood وأولاده ، الطبعة السادسة عشر ١٩٢٥  
(٢) Abhandlung uber die Methode في المجلد الاول من ترجمة أعما  
ديكارت الفلسفية التي نشرها في ليبزغ Felix Meiner

# مقال عن المنهج

للأستاذ فريدة العفلى والبحث  
عن الحقيقة في العلوم..

## مقدمة

إذا بدأ هذا المقال طويلا جدا بحيث لا يقوى  
 كله دفعة واحدة ، فمن المستطاع تقسيمه إلى  
 ستة أقسام : في القسم الأول أنظر في العلوم  
 مختلفة • وفي الثاني أصول القواعد للمنهج  
 الذي بحث عنه المؤلف • وفي الثالث بعض  
 قواعد الأخلاق التي استنبطها من ذلك المنهج •  
 وفي الرابع الأدلة التي يثبت بها وجود الله  
 والنفس الانسانية وهي أركان مذهبه فيما بعد  
 الطبيعة • وفي الخامس ترتيب مسائل  
 الطبيعيات التي بحث فيها ، لا سيما تفسير  
 حركة القلب وبعض معضلات أخرى تختص  
 بالطب ثم التفرقة بين نفسنا ونفس الحيوان •  
 وفي القسم الأخير بيان الأمور التي يعتقد  
 المؤلف بالحاجة إليها للتفسير بدراسة الطبيعة إلى  
 أبعد مما انتهت إليه ، وبيان الأسباب التي  
 بعثته إلى الكتابة •



## القسم الأول

العقل (١) هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس (بالتساوى) اذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية ، حتى الذين لايسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شيء غيره ، ليس من عادتهم الرغبة في (٢) ، الزيادة لما لديهم منه . وليس براجح أن يخطئ الجميع فى ذلك ، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الاصابة فى الحكم ، وتميز الحق من الباطل ، وهى فى الحقيقة التى تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وانما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا فى طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا فى نفس ما ينظر فيه الآخر لانه لا يكفى أن يكون للمرء عقل ، بل المهم هو أن يحسن

---

(١) التعبير الفرنسوى الذى استعمله ديكارت هو Bon sens وتصد به القوة اللازمة لاجادة الحكم أى لتمييز الحق من الباطل فى النظرى والعملى . وللعقل عملان فكريان أساسيان وهما البدهاه Intuition والقياس Dédution ( راجع القاعدة الثالثة من القواعد لقيادة العقل (١) وهانكان : منهج ديكارت (٢) فى مجلة ما بعد الطبيعة وعلم الاخلاق نوفمبر سنة ١٩٠٦ ص ٧٦٠ وانظر فى مقدمتنا شرح معنى البدهاه والقياس عند ديكارت ) . ومما يجدر بالذكر أنه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كتيب عنوانه Studium bonae mentis أى درس العقل وقد نقل هذا العنوان الى الفرنسية مترجم حياته باييه BAILLET كما يأتى L'étude du bon sens ou de l'art de bien comprendre . أى درس العقل أو فن اجادة الفهم ، ويرجح أن تلك الكتابة كانت مشروع المقال عن المنهج ( راجع هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٦ )

استخدامه • وإن أكبر النفوس لمستعدة لأكبر الرذائل مثل استعدادها لأكبر الفضائل ، والذين لا يسيرون الا جده مبطلين يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيرا من يعدون، ويتعدون عنه •

أما أنا فلم أدع قط أن نفسى أكمل من نفوس الغير ، بل كثيرا ما تمنيت أن يكون لى من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس • ولست أعرف فضائل غير هذه تعين على تكميل النفس : لانى أميل الى الاعتقاد بأن النطق ، أو العقل ، مادام هو الشيء الوحيد الذى يجعلنا أناسا ويميزنا عن سائر الحيوان ، هو بأكمله فى كل انسان ، وانى أميل فى ذلك الى اتباع رأى الشائع بين الفلاسفة الذين يقولون انه لا زيادة ولا نقصان الا فى الاعراض (١) ، ودون انصور الجسمية (٢) أو طبائع (٣) الافراد (٤) من نوع واحد (٥) • ولكنى لا أخشى أن أقول ما أعتقده من أننى كنت كثير التوفيق،

---

(١) جمع عرض وهو ما يتعلق بذات ما دون أن يلزمها فى تعريف ماهيتها  
(٢) جمع صورة وينصد بها ديكارت « مبدأ بالحاده مع المادة يتكون جسم طبيعى ويحل فى نوع معين » (جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج (٤) ص ٨٩)  
(٣) جمع طبيعة ، وهى مبدأ أول وعلة لكل حركة وسكون ذاتيين للذى تكون فيه تلك الطبيعة ( انظر تعريف ارسطو للطبيعة المقتبس فى تعليق (٤) جلسون ص ٩٠ وتعريف ابن سينا لها فى رسالة الحدود وهى فى مجموعة تسع رسائل فى الحكمة • وتعريف أعم « هى القوة التى فى الشيء فتجرى بها كيفيات ذلك الشيء على ما هى عليه ، وإن أوجزت قلت هى قوة فى الشيء يوجد بها على ما هو عليه » ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧  
(٤) جمع فرد وهو مالا تنطبق كل صفاته مجتمعة على غيره

(٥) يقصد ديكارت بالنوع هنا الكلى المقول على كثيرين مختلفين فى العدد دون الحقيقة فى جواب ما هو ، وذلك هو النوع الحقيقى

اذ ألفت نفسي منذ الحادثة (١) فى بعض الطرق التى قادتنى الى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجا ، به يبدو لى أن عندى وسيلة لزيادة معرفتى بالتدريج ، وان أسمو بها قليلا الى أعلى درجة (٢) يسمح ببلوغها ما فى عقلى من ضعف ، وما فى مدى حياتى من قصر ، ذلك لأنى جنيت من ثمرات ذلك المنهج (٣) ما جعلنى أحاول دائما فى الاحكام التى أكونها عن نفسى أن أميل الى جهة الخذر ، أكثر من ميلى الى جهة الغرور ، ولما نظرت بعين الفيلسوف الى فعال الناس ومقاصدهم لم يكده يظهر لى أن شيئا منها عبث وعديم النفع ، على أن التقدم الذى أظننى تقدمته فى البحث عن الحقيقة ، قد بلغ بى غاية الرضا ومهد لى فى المستقبل آمالا تجعلنى أرى أنه اذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس (٤) ما هو خير وذو خطر ، فى أن أجرو على القول بأنه هو العمل الذى تخيرته \*

(١) يقول باييه فى كتابه عن حياة ديكارت : انه صنع - وهو لا يزال فى كلية لافليس - منهجا غريبا للمناقشة الفلسفية ، وهذا المنهج - على حسب بسط المترجم له - هو منهج رياضى صرف ينحصر فى معالجة المسائل كما يفعل أصحاب الهندسة وذلك بتقديم البديهيات ثم الانتقال الى تعريفات ثم ايراد البراهين . ( راجع نص باييه المقتبس فى كتاب هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٤ ) وهذه بعض محاولات ديكارت ، قبل شتاء سنة ١٦١٩ ، للبحث عن منهج للاختراع ( انظر المقدمة )

(٢) كان العنوان الذى يريد ديكارت وضعه على المقال هو مشروع علم شامل يستطيع أن يرفع طبيعتنا الى أعلى درجة لها فى الكمال ( راجع كتابه الى صديقه مرسن Mersenne فى مارس سنة ١٦٣٦ فى المجلد الاول من الأعمال الكاملة طبعة ادم وتارنى ص ٣٣٩ )

(٣) يقصد استكشافه للهندسة التحليلية وهى توفيق بين علمى الهندسة والجبر وكذلك اثباته وجود الله بالبراهين التى سيدكرها فى القسم الرابع وكذلك آراءه فى الطبيعيات وسيشير اليها فى القسم الخامس

(٤) يقصد الافراد العاديين الذين يهيم الله قدرة فوق ما لغيزهم من بنى الانسان بحيث يقومون بالمعجزات

وعلى كل حال فقد أكون مخدوعا ، وقد لا يكون الا قليلا من النحاس والزجاج ذلك الذى أعتبره ذهباً وماساً • فأننى لأعلم مبلغ الخطأ الذى نحن عرضة له فيما يمسننا من الامور ، ومبلغ الحذر الذى يجب أن تكون أحكام أصحابنا موضعاً له ، عندما تكون فى مصلحتنا • (٤) ولكننى سأجتهد أن أبين فى هذا المقال ، ما هى الطرق التى نبتعتها ، وأن أمثل حياتى فيه كأنها فى لوح تصوير ، حتى يستطيع كل أن يحكم فيها حكمه ، وحتى يكون علمى بمختلف الآراء فيها بما يصل الى من صدق ، وسيلة جديدة لتعليمى ، أضيفها الى ما اعتدت أن أستعين به من الوسائل •

واذن ليس غرضى أن أعلم المنهج الذى يجب على كل فرد اتباعه لكى يحكم قيادة عقله ، ولكن غرضى هو أن أبين على أى وجه حاولت أن أقود عقلى • وان الذين ينصبون أنفسهم لاسداء النصائح ، يلزمهم أن يعتبروا أنفسهم أذق ممن يسدونها اليهم ، واذا زلوا فى أدنى الامور ، استحقوا الملام • ولكن ، لما لم يكن غرضى من هذا الكتاب الا ان أجعله تاريخاً ، وان شئت فقل قصة ، قد يكون فيها أمثلة تحتذى ، وقد تلقى فيها ايضا أمثلة غيرها كثيرة يحق للمرء ألا يقتدى بها ، فانى آمل أن يكون هذا الكتاب نافعا للبعض ، من غير أن يضر أحداً ، وان يرضى عنى الجميع لصراحتى •

غذيت بالآداب منذ طفولتى ، وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم بين يقينى بكل ما هو نافع فى الحياة ، فاشتدت رغبتى فى تعلمها • ولكننى ماكدت أنتهى من تلك المرحلة من الدراسة ، حيث كانت العادة قبول الانسان عند نهايتها فى مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيى كل التغيير • ذلك بأننى وجدت نفسى يجبرنى من الشكوك والضلالات ، مابداً الى معه أننى لم أكتسب من اجتهادى فى التعليم ، الا تبينى شيئاً فشيئاً جهالتى • على أنى كنت مدرسة من أشهر (٥) مدارس أوروبا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء ، اذا كان فى

أى موضع من الأرض علماء (١) \* ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيرى ، بل اننى لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ماوصل الى من كتب فى العلوم التى يعتبرونها اعجب العلوم وأندرها (٢) وكنت أيضا أعرف ما يحكم به الآخرون على ، ولم أشهد قط انهم ينزلوننى دون منزلة رفاقى مع أن بعضهم كان يعد لأن يشغل مناصب أساتذتنا \* ثم انه كان يخيل الى أن عصرنا فى ازدهاره وفى خصبه بالعقول القوية ، لا يقل عن أى عصر من العصور السالفة \* وهذا أورثنى حرية فى أن أحكم بنفسى فى كل من عداى وان ارى ان ليس فى الدنيا من العلم ما ينطبق على ماكنت قد صيرت من قبل الى القصد اليه (٣) \*

وعلى كل حال فاننى ما غمطت حق ما يشتغلون به فى المدارس من الدروس وانى لأعلم أن اللغات التى تعلم فيها لازمة لفهم الكتب القديمة وأن طلاوة القصص توظف النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو بها ، وإذا قرئت بتمحيص فإنها تعين على تكوين الحكم (٤) ، وأن قراءة كل الكتب الجيدة هى كمحاضرة مؤلفيها

---

(١) يقصد مدرسة لافليش الملكية التى أسسها اليسوعيون فى عهد هنرى الرابع عام ١٦٠٤ . وديكارت يشهد بفضل تلك المدرسة فى كتاب له الى بعض أصدقائه يقول فيه « ويجب أن أنسب ذلك الشرف الى أساتذتى بأن اقول بأنه ليس فى العالم مكان أحكم بأن الفلسفة تعلم فيه خيرا مما تعلم فى مدرسة لافليش » أعمال ديكارت ج ٢ ص ٣٧٨

(٢) يعنى بالعلوم العجيبة السحر وأحكام النجوم والكيمياء ( كما كانت قديما ) وغيرها من العلوم التى لا يطلع على خفاياها الا القليل ويعنى بالعلوم النادرة ما عر على العامة مثاله

(٣) يقصد بذلك « أن عدم كفاية العلم الذى تلقيته هو السبب الوحيد فى تضليلى اذ لا يمكن تعليقه بنقص فى المدرسة التى تعلمت فيها ولا فى أساتذتى ولا فى نفسى ولا فى زمانى » ( تعليق ٤ جلدسون ص ١١٠ )

(٤) يقصد بالحكم القوة اللازمة لتمييز الحق من الباطل ( انظر التأملات الرابعة (١٢) )

الذين هم خير أهل القرون الماضية بل هي محاضرة معتنى بها ، لا يكشفون لنا فيها الا عن صفوة أفكارهم وأن للبلاغة قوة وجمالا لا يضارعان • وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جدا وأن في (٦) الرياضيات اختراعات جد دقيقة ، وتفيد كثيرا في ارضاء النفوس المتطلعة وفي تسهيل كل الفنون ، وتوفير جهد الناس ، وأن الكتب الباحثة في الاخلاق تشتمل على كثير من التعالم وعلى مواعظ كثيرة تدعو الى الفضيلة وهي مفيدة جدا ، وأن علم أصول الدين يهدي الى طريق الجنة ، وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للقول في كل شيء بما هو أدنى للحق ، ولحسب الاعجاب ممن أقل منا علما (١) ، وأن التشريع (٢) ، والطب والعلوم الأخرى تأتي بالجاه والثروة للذين يتعلمونها ، وأخيرا فمن الخير أن نخبرها جميعا حتى أكثرها خرافة وبطلانا ، لنعرف قيمتها بالعدل ونحذر الخديعة فيها •

ولكني كنت أعتقد أنني أنفقت الكفاية من الوقت في اللغات ، بل وفي قراءة الكتب القديمة ، وأيضا ما فيها من توارىخ وقصص : فان محاضرة أهل العصور الأخرى تكاد تكون كالسفر ، وانه لمفيد أن نعرف شيئا عن أخلاق الأمم المختلفة ، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لانظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل ، كما هو دأب الذين لم يروا شيئا (٣) ولكن اذا أسرف المرء في صرف الوقت في السفر فانه ينتهي الى أن يصير غريبا في بلده ، ومن أسرف في التطلع الى ما كان يحدث في العصور (٧) الحالية ظل في العادة شديد الجهل بما يقع في زمانه • وفوق

- 
- (١) يقصد بالفلسفة فلسفة العصور الوسطى وهو يسوق قوله تهكما بها  
 (٢) يعنى علوم القوانين والحقوق - وقد كان ديكارت طالبا في الحقوق بجامعة بواتييه ولبث فيها سنتين من سنة ١٦١٤ الى سنة ١٦١٦ ونال منها اجازة القانون المدني والدني في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ • راجع شارل آدم حياة ديكارت ص ٤٠ مذكرة ١ •  
 (٣) يقصد الذين لا تتجاوز معارفهم حدود بلادهم

ذلك فان القصص تجعلنا نتخيل ممكنا ما ليس ممكنا من الحوادث، بل وان أصدق التواريخ اذا لم يغير من قيمة الاشياء ولم يزدها ، كى يجعلها أجدر بأن تقرأ ، فانه على الأقل يكاد يهمل دائما أدنى الظروف شأننا وأقلها شهرة : ومن ثم فان ما يبقى لا يبدو كما هو، والذين يتخذون مما يستنبطونه منها أسوة لآخلاقهم يكونون عرضة للوقوع فى الغلو الذى وقع فيه فرسان قصصنا ، وللتطلع الى ما فوق طاقتهم .

كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعا بالشعر ؛ ولكنى رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية، لا من ثمرات الدرس (١) والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كى يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقتناع بما يرون ، ولو كانوا لا يتكلمون الا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الأخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم .

كانت تعجبني الرياضيات على الخصوص ، وذلك لما فى براهينها من الوثاقة والوضوح ، ولكنى لم أكن ألحظ فائدتها

---

(١) هذه فكرة عزيزة لدى ديكارت وهو يأخذ بها منذ سنة ١٦١٩ (راجع المقدمة التعليق على ختام الجزء الاول وارجع انها ترجع الى سقراط الذى يقول « ان انتاج الشعراء يرجع الفضل فيه ، لا الى علمهم ، ولكن الى هبة طبيعية ، او الى الهام الالهى شبيه بالهام الانبياء والعرفان » ) أفلاطون دفاع سقراط ص ٢٢ ( أعمال أفلاطون فى مجموعة الجامعات الفرنسية المجلد الأول ص ١٤٦ - ١٤٧ ) . ويقول سقراط فى نفس الصفحة انه طلب الى بعض الشعراء تفسير بعض شعرهم فكانوا لا يفهمونه جيدا . ويأخذ أفلاطون بنفس الفكرة فى حواريه فيدر ويون ويقول ان شعر الشعراء حى من آلهة الشعر انهم ينشدونه دون تمام فهمه

الحقيقية ، الا فى الصناعات الميكانيكية (١) كنت أعجب أن تكون أسسها البالغة فى متانتها وقوتها لم يشيد فوقها بناء أسمى ، وبالعكس فاننى كنت أشبه كتابات القدماء ( فى الجاهلية ) (٢) الباحثة فى الاخلاق بقصور جد رائعة وفخمة ، لم تشيد الا فوق (٨) الرمل والطين . وانهم ليرفعون الفضائل الى أعلى أوجها ، ويظهرونه أحق بالاجلال من كل شئ فى العالم ؛ ولكنهم لا يرشدوننا الى تعرفها ارشادا كافيا ؛ وكثيرا ما يكون الذى يدعونه بأجمل الاسماء ، انما هو فقد العواطف والاحساس (٣) أو الكبرياء (٤) أو اليأس (٥) أو قتل القريب (٦) .

وكننت أجل علومنا الدينية ، وأطمع كفى فى الجنة ، ولكن لما علمت علما مؤكدا أن الطريق اليها ليس ممهدا لأجل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء (٧) ، وان الحقائق الموحى بها ، والتي

(١) كان يهتم فى عصر ديكارت بتعليم الرياضيات لتطبيقها فى الاعمال مثل مساحة الاراضى وهندسة ميادين الحرب وفى القنايس والموازين المختلفة وفى استعمال الآلات الصناعية. وغير ذلك

(٢) فى النص الفرنسى Les anciens païens ويقصد بهم كتاب ما قبل المسيحية . ويظهر من الجملة التالية انه لا يقصد غير الرواقين لأن الذى يذكره وينكره من الاخلاق هو من تعاليم بعضهم

(٣) كان الرواقيون يدعون الى الا يكون للأهواء العواطف أى تأثير على الحكيم كما انه يجب ان يتحمل كل الآلات الحسية دون الاهتمام بها

(٤) كان الرواقيون يرفعون رتبة الحكيم فوق كل رتبة ويساوونه بالاله

(٥) وكان بعضهم يبيع الانتحار ، اذا اقتنع المرء باليأس من هناءة الحياة ، فيكون الموت فى زعمهم خلاصا من الآلام

(٦) فى النص الفرنسى Parricide ومعناها الآن قتل الأب ولكنها فى زمن ديكارت كانت تفيد قتل القريب على العموم ، ويحتمل أنه يشير الى قتل بروتس لقصر ، وقول الثانى للاول عند ما تلقى منه الطعنة القائلة « وانت أيضا ، يا بنى Tu quoque, fili mi »

(٧) الوصول الى الجنة يكون بالايمان والايمان ليس من عمل العقل ( راجع التعليمة التالية )



تهدى الى الجنة هي فوق فهمنا ؛ لم يكن لى أن أحرؤ على أن أسلمها  
لضعف استدلالاتي ورأيت أن محاولة امتحانها امتحانا موفقا تحتاج  
لأن يمد الانسان من السماء بمدد غير عادى وأن يكون فوق مرتبة  
البشر (١) .

ولن أقول عن الفلسفة ، الا أنه لما رأيت أن الذين كانوا  
يتدارسونها هم خيرة العقلاء ، ممن عاشوا منذ عصور كثيرة ، ومع  
ذلك ليس فيها بعد أمر لا يجادل فيه ، أى ليس مشكوكا فيه ،  
فاننى لم أكن قط من الغرور بحيث أمل أن أنال فيها من التوفيق  
خيرا من الآخرين ، ولما تأملت ما قد يكون فى المسألة الواحدة ،  
من آراء مختلفة ، يؤيدها رجال علماء ، على أن الحق فيها لا يكون  
الا واحدا ، فاننى اعتبرت كل ما ليس الا راجحا يكاد يكون باطلا (٢)  
أما العلوم الاخرى التى كانت تأخذ أصولها من الفلسفة ، فقد  
كان حكمى فيها أنه لا يستطيع إقامة بناء قوى على قواعد ليست على  
(٩) شئ من المثانة . ولم يكن ما تغرى به من الجاه والكسب (٣) بكاف  
ليبعثنى على تحصيلها ، فاننى لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، اننى  
فى حالة تضطرنى الى أن أجعل من العلم صنعة لتحسين رزقى ومع

---

(١) يقصد بالمدد غير العادى الوحي الذى يفيضه الله على بعض الناس  
ممن يختصهم ، وهم بذلك يرتفعون فوق مستوى الانسانية العادى . ولقد  
أحصي ديكرات أربعة اصول للعلم كما كان فى زمانه وهى ١ - الافكار الخيلية  
بدانها التى تحصل بدون تفكير ٢ - ما يحصل بواسطة الحواس ٣ - معايشرة  
الناس ٤ - قراءة الكتب الجيدة . ثم يقول ان الحكمة كلها لا تكتسب الا بتلك  
الوسائل الاربع اما الوحي الالهى فانه لا يوصلنا الى العلم بالتدريج ، شأن  
تلك الطرق ، بل يسمو بنا مرة واحدة الى عقيدة معصومة من الخطأ ( راجع  
رسالته الى من ترجم الى الفرنسية كتابه مبادئ الفلسفة )  
(٢) يقصد ما لا يعتمد فى اثباته على البرهان الصحيح الذى يوقع اليقين ،  
وانما يعتمد على القياس الجدلى الذى يوقع تصديقا شبيها باليقين  
(٣) يشير الى الجاه الذى ينتج عن درس الفقه والقوانين ، والى  
الكسب الذى ينتج عن درس الطب

أنه لم يكن من دأبى أن أكون كلبيا (١) يحتقر المجد فأننى مع ذلك لم أكن أعبا إلا قليلا بمجد لم أكن لآمل قدرة على تحصيله الا بالباطل (٢) .

أما العلوم الباطلة ، فلقد كنت أعتقد اننى بلغت من عرفان قيمتها حدا لا أكون معه عرضة للخديعة بوعود الكيماوى أو بتكهنات المنجم ، ولا بتضليلات الساحر ، ولا بالتصنع أو الزهو ممن ديدنهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون .

من أجل هذا فأننى ما كدت أن تسمح لى السن بالتحلل من ربة معلمى حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب . واذ صممت على ألا ألتبس علما الا ما اشتملت عليه نفسى (٣) أو ما كان فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فأننى أنفقت بقية شبابى فى السفر،

---

(١) أى من اتباع المذهب الكلبى ، نسبة الى ديوجينيس الكلبى ، ويرجع الاستاذ جليسون أن تكون فى تلك العبارة اشارة الى جواب ديوجينيس نفسه الى الاسكندر المقدونى « الذى أريده منك : هو أن تنجرف كيلا تمنع عنى الشمس » ( انظر التعليق (٤) ص ١٤٠ )

(٢) يشرح النص اللاتينى ذلك بما زاد فيه على الأصل الفرنسى وهو «أى نظرا لما فى هذه العلوم من معارف غير صحيحة » ( أعمال ديكارت ج ٦ ص ٥٤٤ )

(٣) فى ذلك يظهر ديكارت اعتقاده بعدم كفاية العلم الذى كان موجودا فى زمنه فى الكتب ، وعلى ذلك فهو يبحث عن طريقة أخرى لاستكشاف علم جديد ، وهنا يرى أن تلك الطريقة هى فى التفكير بعقله الحر المستقل ، لأنه كان يعتقد أن يدور العلوم كائنة فيما ، وأن الحقيقة تشوى فى نفوسنا كما تشوى النار فى حجر الصوان . ولعله كان يريد بذلك تقليد الشعراء الذين يعتمدون على الاختراع ، أى على استخراج الحقائق من عقولهم ، وفى ذلك ينحصر فضل الشعر أكثر من اعتمادهم على تحصيل مادة أشعارهم من الكتب ، أو من محاضرة غيرهم . ( راجع ميلو Milaud أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ (٩) فى مجلة مابعد الطبيعة والأخلاق المجلد الثالث والمشرين ج ٤ ص ٦٠٧ - ٦٢١ ) وارجع أن ديكارت عزم على ذلك عام ١٦١٦ بعد انتهائه من درس الحقوق فى جامعة بواتيه وقبل ابتدائه فى الرحلات كما يظهر من النص

وأن أتصل بقصور وبجوش وأغشى أناسا من مختلف الامزجة والدرجات ، وفي جمع التجارب المختلفة ، وأن ابتلى نفسى فيما ساق الى الحظ من مصادفات ، وأن أفكر أينما كنت فى الامور التى كانت تعرض لى تفكيرا يمكننى من أن أستخلص منها فائدة • فقد كان يبدو لى أننى أستطيع أن أجد من الحقائق ، فى التفكير الذى يفكره كل انسان فى الامور التى تهمة ، والتى سرعان ما تؤذيه (١٠) عاقبتها ، ان كان قد أخطأ فى الحكم ، مالا يوجد فى تفكيرات أحد النظار من رجال الآداب وهو بين جدران حجرته فيما يمس أمورا نظرية ليس لها فى الخارج أثر (١) ، ولا تكون له منها نتيجة ، الا ما قد يدركه من غرور بها على مقدار بعدها عن العقل ، بسبب ما بذل من الفكر والحيلة كى يجعلها شبيهة بالحق ، وكانت رغبتى شديدة دائما فى أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل ، كى أكون على بصيرة فى أعمالى ولكى أسير على هدى فى حياتى •

فى الحق أنى حينما كان جهدى مقصورا على ملاحظة أخلاق الناس فأنى لم أجد فيها موصعا ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظته من قبل فى آراء الفلاسفة • وقد كان أكبر ماحصلته من فوائدها ، اننى لما رأيت أمورا كثيرة ، تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فان أمما عظيمة تجمع على قبولها والرضا عنها ، فأننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما يحكم التقليد أو العادة وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الاوهام ، التى تستطيع أن تخدم فينا النور الفطرى (٢) وتنقص من قدرتنا على

---

(١) فى ذلك يهاجم ديكرت طرق التفكير فى العصور الوسطى ، ويتهكم على عقم الجدل الذى كان يقتصر عليه العلماء .

(٢) يقول ديكرت فى مبادئ الفلسفة (٦) فى الفقرة الثلاثين من الجزء الاول « وينتج من ذلك أن ملكة المعرفة التى وهبها الله لنا ، والتى نسميها بالنور الفطرى ، لا تتصور مطلقا أى شىء ما لم يكن حقيقيا من حيث هى تتصوره ، أى =

التعقل • ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين في الدرس على تلك الحال في كتاب العالم ، وفي الاجتهاد في تحصيل بعض التجربة ، فأننى عزمت في بعض الايام أن أبحث أيضا في نفسى وأن أصرف قواى العقلية كلها في اختيار الطرق التى يجب أن أسلكها (١) وقد لقيت في هذا على ما يبدو لى نجاحا لم آكن لألقاه لو اننى لم أفارق (١١) قط بلادى ولا كتنى •

= مادامت تعامله بوضوح وتميز ، الخ » . وكذلك ان لديكارت حوارا وهذا عنوانه الطويل « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطرى ، الذى يعين وهو خالص وحده ، وبدون أن يستعين بالدين أو بالفلسفة ، الآراء التى يجب أن يراها رجل شريف فيما يختص بكل الامور التى تشغل فكره ، وينفذ الى اسرار أعجب العلوم (٧) » ويشار اليه للايجاز بالبحث عن الحقيقة فقط .

(١١) سيساعد ما يلى ذلك ، أى مطلع القسم الثانى ، على تعيين ذلك الوقت الذى عزم فيه ديكارت ذلك العزم . ويتفق الشراح على أن هذا كان فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، والاعتماد فى ذلك على قول ديكارت فى رسالة أولمبيكا (١) وهى من كتابات ديكارت بالقرب من ذلك التاريخ وقد طبعت فى المجلد العاشر فى مطبوعة أدام وتانرى ) انه وجد فى ذلك اليوم قواعد علم عجيب *Mirabilis scientiae fundamenta* على أن هناك خلافا فى تقدير ذلك الاستكشاف والرأى الذى تأخذ به انه استكشف يومئذ منهجه بأكمله ، اذ ليس عند ديكارت الا منهج واحد وكل ما استكشفه فى علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة والرياضة لم يكن الا نتيجة لتطبيق منهجه ، والاستاذ آدم يرى أن فى ذلك اليوم اهتدى ديكارت الى بعض استكشافاته الرياضية المهمة على أنه لا يعين ذلك الاستكشاف كما انه لايجزم برأيه ( راجع اعمال ديكارت ج ١٢ ص ٥٠ ) . أما الاستاذ ميلو فىرى أن كل تلك الآراء باطلة وأن ديكارت اهتدى فى ذلك اليوم الى وجوب العدول عن كتب الاقدمين والافتصار فى البحث عن الحقيقة « التى توجد فى نفسنا بدورها كما يوجد شرر النار فى حجر الصوان » على الاستعانة بالنور الفطرى ، أو بالالهام الذى يشبه الالهام الشعراء أو بالبداهة . ( راجع مقالة أئمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ . ولكننا رأينا فيما سبق أن ديكارت عزم على العزم الذى يتصوره الاستاذ ميلو عام ١٦١٦ بعد انتهائه من المدارس وقبل بدئه فى الرحلات ، واذا فلابد أنه بعد رحلاته قد =

## القسم الثاني

كنت اذ ذاك فى ألمانيا ، عندما استدعتنى الحروب التى لم تنته فيها بعد ، ولما كنت فى عودتى من تنويج الامبراطور(١) الى الجيش ، ألجأتى بدء الشتاء الى قرية(٢) ، لم أجد فيها شيئا من السمر ملهيا ، على أنه لم يكن عندى ، لحسن الحظ ، ما يقلقنى من هم أو هوى ، وكنت ألث اليوم كله وحدى فى حجرة دافئة ، حيث كانت لى كل الفرصة لتوجيه همتى للفكر . وكان من أول ما فكرت فيه أننى لاحظت أنه كثيرا ما تكون الاعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيدي حذاق مختلفين ، ليس فيها من الكمال مثل ما فى الاعمال التى صنعها واحد ، كذلك نرى المباني التى بدأها مهندس واحد وأتمها هى فى العادة أجمل منظرا وأحسن نظاما من تلك التى اجتهد فى تزيينها الكثيرون ، وذلك باستخدام جدر قديمة بنيت

---

= اهتدى الى شيء آخر كما يتبين من كلامه فى آخر القسم الاول ، وعى ذلك يبطل قول ميلو ( راجع تفصيل ذلك فى المقدمة )

(١) المقصود بالحروب حروب الثلاثين عاما التى انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ والامبراطور هو فرديناند الثانى الذى توج قيصرًا فى ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ ( راجع كينو فيشر KUNO FISCHER حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ١٧٤ وما يليها من الطبعة الخامسة ، هيدلبرج سنة ١٩١٢

(٢) نزل ديكارت أولا فى أولم Ulm حيث زار الرياضي فاوهاير Faulhaber وبقي هناك بضعة شهور . ولكن عزلته الحقيقية كانت فى نيوبرج Neuburg والمدينتان على نهر الدانوب ( راجع فيشر الكتاب المذكور ص ١٧٥ )

من قبل لغايات أخرى كما فى تلك المدن العتيقة ، التى لم تكن فى البدء الا قرى ، ثم أصبحت بتعاقب الزمان ، مدنا كبيرة ، فانها فى لعادة قبيحة التأليف اذا قورنت بالمدن المنظمة ، التى يخططها مهندس واحد وهو حر فى براح خال . ومع أننا اذا نظرنا الى عماراتها كل على حدة ، فكثيرا ما نجد فيها من الفن مثل ما فى عمارات المدن الأخرى أو أكثر ، ثم اذا رأينا كيف نظمت ، نجدها هنا بناء عظيمًا ، وهناك بناء صغير ، على وجه يجعل الطرق معوجة وغير متساوية ، فسوف نقول ان الأقرب أنه الحظ - لا ارادة أناس . (١٢) تصرفوا بعقولهم - هو الذى وضعها كذلك ، وعلى كل حال اذا لاحظنا أنه كان يوجد دائما من العمال من يוכל اليهم ملاحظة أن يكون فى المباني الخاصة مستمتع للجمهور ، عرفنا أنه من العسير أن نقوم بأعمال كاملة مادام كل عملنا هو تكميل عمل الغير . وكذلك ظننت أن الامم التى كانت فى زمن من الازمنة نصف متوحشة ، ولم تأخذ بالمدنية الا قليلا قليلا ، لم تسن قوانينها الا حسبا كانت تضطرها اليه أضرار الجرائم والمنازعات ، هذه الامم لا تكون حاصلة على نظام يبلغ من الاحكام مبلغ ما عند الامم التى منذ بدء اجتماعها ، قد اتبعت شرائع مشروع حكيم . كذلك يكون جد يقين أن هيكل الدين الصحيح ، الذى شرع الله وحده أحكامه ، يجب أن يكون خيرا فى النظام من كل ما عداه الى الحد الذى لا يبارى . واذا تحدثنا عن الشئون الانسانية فاني أعتقد أنه اذا كانت اسبرطة قديما ذات مجد زاهر ، فليس السبب فى ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حده ، لان كثيرا منها كان شديد الشذوذ ، بل كان مخالفا للاخلاق الطيبة ، ولكن السبب أنه لما كان مبدعها شخصا واحدا ، فقد كانت جميعا ترمى الى غاية واحدة . وكذلك فقد رأيت أن علوم الكتب وعلى الاقل ما كان منها حجبها

ليست الا جدلية (١) ، وليس له برهان ، فانها لما كانت قد ألفت وزيد فيها قليلا قليلا من آراء رجال كثيرين مختلفين فانها ليست قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالات البسيطة التي يكونها بالفطرة رجل عاقل فيما يعرض من الامور . وكذلك رأيت أيضا أنه نظرا لاننا كنا جميعا أطفالا قبل أن نصير رجالا ، وأنه كان يلزمنا في زمن طويل أن نظل تحكمننا أهواؤنا ومعلمونا ، وكان أحدهما في الغالب يناقض الآخر ، وربما لم يكن كلاهما لينصحننا دائما أحسن النصائح ، فانه يكاد يكون مستحيلا أن تخلص أحكامنا ، أو أن تكون قوية كما كانت تكون ، لو أننا استعملنا عقلنا تمام الاستعمال منذ ميلادنا ، ولم نسير قط الا بواسطته .

وفي الحق انا لا نشاهد أن بيوت مدينة تهدم جميعها لغبر غرض الا أن يعاد بناؤها على نظام آخر ، وأن تجعل طرقها موفورة الجمال ولكن المشاهد غالبا أن كثيرين يهدمون بيوتهم ليعيدوا بناءها ، بل يضطرون أحيانا الى ذلك عندما تكون من نفسها على خطر السقوط ، وعندما تكون قواعدها غير ثابتة . وقياسا على ذلك أيقنت أنه غير معقول في الحقيقة أن يضع بعض الناس خطة لاصلاح دولة بتغيير كل شيء فيها بادئا بالأسس ، وأن يقلبها رأسا على عقب ليقومها ، أو أن يصلح أيضا مجموعة العلوم ، أو النظام المقرر في المدارس لتعليمها ، ولكن فيما يختص بكل الآراء التي قبلتها واعتقدت بها حتى يومئذ فاني لم أكن لأقدر على خير من انتزاعها جملة واحدة من اعتقادي ، وذلك لكي أحل محلها فيما بعد ، اما غيرها خيرا منها ، أو أعيدها نفسها بعد أن أكون قد سويتها بميزان العقل (١٤) . ولقد رنخ في اعتقادي أنني أكون بهذه الوسيلة أكثر توفيقا في سياسة حياتي مما لو لم أبن الا على أسس عتيقة ، ولم

(١) اي العلوم التي تعتمد على الجدل ، وهو ما كان يغلب على استدلالات المشتغلين بالفلسفة في العصور الوسطى . وهذه العلوم لاتصل بتلك الاقسيمة الى مراتب اليقين مثل علوم الرياضه

أعتمد الا على مبادئ استسلمت للاذعان لها في شبابى دون أن  
أختبر قسط ان كانت صادقة . فانى وان عرفت فى ذلك شتى  
المصاعب ، فهى مع ذلك لم تكن لا تداوى ، ولم تكن أيضا لتقارن  
بالمصاعب التى تقوم عند اصلاح ما يمس الجمهور من أحقر الامور ،  
ان هذه الاجسام الهائلة لعمير رفعها اذا هوت ، أو المحافظة عليها  
اذا تزعزعت ، وسقوطها لا يكون الا مروعا .

أما ما فى نظم الدول من عيوب ، ان كان فى نظمها عيوب ،  
( وان الخلاف بينها ليكفى لاثبات وجود عيوب فى الكثير منها ) فان  
التطبيق قد لطفها كثيرا بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها وتلافى  
منها رويدا رويدا ما لم يكن مستطاعا بالحكمة . وأخيرا ، فان تلك  
العيوب تكاد تحتمل دائما أكثر مما يحتمل تغييرها : كما ان الطرق  
الكبيرة ، التى تتلوى بين الجبال ، تصبح قليلا قليلا سهلة وممهدة ،  
وذلك لكثرة التردد عليها ، وخير أن يتبعها السائر من أن يذهب  
فى طريق أكثر استقامة متسلقا فوق الصخور منحدرًا الى بطون  
الوهاد .

من أجل هذا لم أكن لأقر فى شيء تلك الامزجة المرتبكة  
القلقة التى لم يدعها نسب ولا مكانة لادارة الشئون العامة ، وهى  
(١٥) لاتبرح تعمل الفكر فى وضع خطط جديدة للإصلاح . ولو انه  
تبادر الى ذهنى أن فى هذه الكتابة أقل ما يمكن أن أتهم معه بذلك  
الجنون ، لندمت كثيرا على السماح بنشرها . فان مطلبى لم يتجاوز  
قط الاجتهاد فى اصلاح أفكارى الخاصة ، وأن أبني على أساس كله  
ملك لى . واذا كان عملى قد بلغ بى من الرضاء ماجعلنى أشهدكم  
هنا انموذجا منه (١) ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده .  
وربما كان للذين ميزهم الله فى تقسيم فضله مقاصد اسمى .

(١) لان المقال هو فى الحقيقة انموذج لعمل ديكارت بأكمله



ولكننى أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الاشططا  
فى الاقدام • ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء  
التي اعتقد بها المرء من قبل ، مثالا يجب على كل فرد أن يحتذيه ،  
ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لا يصلح  
فى شئ لكليهما •

هذان الصنفان هم أولا الذين لاعتقادهم فى أنفسهم من الحذق  
فوق مالههم لا يستطيعون أن يمنعوهم أنفسهم من التهور فى  
أحكامهم (١) ، ولا يملكون من الصبر ما يستطيعون به سياسة  
أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك فى  
المبادئ التي تلقوها ، والابتعاد عن الطريق العام ، فانهم لن يقدروا  
على ملازمة الصراط الذى يجب سلوكه للسير الاقوم ، وسيظلون  
فى ضلال كل حياتهم •

ثم آخرون اوتوا حظا من العقل ، أو من التواضع ، كى يحكموا  
بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من اناس يصلحون أن  
يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن  
يبعثوا بأنفسهم عما هو أحسن •

أما أنا فلقد كنت أكون بلاشك فى عداد هؤلاء الاخيرين لو (١٦)  
لم يكن لى الا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخلاف الذى كان فى  
كل زمان بين آراء أكبر العلماء • ولكننى لما كنت قد تعلمت ، منذ  
أيام المدرسة ، أنه لا يمكن أن نتخيل أمرا مهما بلغ من الشذوذ  
والبعد عن التصديق ، الا وقد قال به أحد الفلاسفة (٢) ، ثم اننى

---

(١) التهور هو أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو ينحصر فى الجزم  
بالحكم قبل تبين اليقين فيه أى فى التفات الى المطالب قبل تحقيق المقدمات  
(٢) كلمة مشهورة لشيشرون هذه ترجمة نصها اللاتينى « لا يوجد قول  
مخالف للعقل لم يقل به من قبل بعض الفلاسفة » ( راجع جلوسون التعليق على  
المقال ص ١٧٨ )

عرفت في رحلاتي أن كل الذين لهم عواطف مخالفة لعواطفنا كل المخالفة ، ليسوا من أجل هذا برايرة ولا متوحشين ، ولكن الكثيرين منهم يستخدمون العقل مثلنا أو أكثر منا . ولما تأملت في أن الرجل نفسه ، بنفس عقله ، إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسيين أو ألمانيين ، فإنه يصبح مختلفا عما كان يكون ، لو أنه عاش دائما بين صينيين أو كانيباليين (١) ، وكيف ان الشيء الواحد حتى في أزياء الملابس ، الذي أعجبنا منذ عشر سنين ، والذي ربما يعجبنا أيضا قبل أن تضي عشر سنين ، يبدو لنا الآن شاذاً ومضحكاً : بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثران في آرائنا أكثر من أي علم يقيني ، وعلى كل حال فإن موافقة الكثرة ليست دليلاً ذا شأن على الحقائق التي يتعسر كشفها ، فإنه أقرب الى الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجدها أمة بأسرها : واذن فلم أكن لأستطيع أن ختار رجلاً (٢) كانت تبدو لي أفكاره واجبة التفضيل على آراء الآخرين ، ووجدتني كأنني مضطر الى أن أتولى بنفسى توجيه نفسى .

ولكن ، كان مثلي كمثلي رجل يسير وحده في الظلمات ، (١٧) فصممت على أن أسير الهوينى ، وأن أستمع بكثير من الاحتياط في كل الامور ، فلو لم أتقدم الا قليلاً جداً ، كنت على الاقل قد سلمت من الزلزل . حتى ولم أشأ ألبتة أن أبدأ بأن أنبذ جملة أي رأى من الآراء التي قد تكون استطاعت في بعض الاوقات أن تتسرب الى اعتقادي ، دون أن يقودها اليه العقل ، من قبل أن أكون قد صرفت أيكفى من الزمن لوضع مشروع للعمل الذي أتولاه ، ولأن أتحري المنهج الحق للوصول الى معرفة كل الامور التي يكون عقلي أهلاً لها

---

(١) Des Cannibales هم اكلة اللحوم البشرية ، وفي النص اللاتيني استبدلت بها كلمة أمريكيين Americanos . والقصود بالطبع سكان أمريكا الاصليون قبل الفتح الاوروبى .  
(٢) أى من مؤسسى المذاهب الفلسفية من اليونان القدماء

ولما كنت أحدث سنا(١) ، اشتغلت قليلا بالمنطق من بين  
أقسام الفلسفة ، وبالتحليل الهندسى(٢) والجبر من بين أقسام

(١) المرجح أنه يقصد زمان وجوده في مدرسة لافليش ، لان النص الذى  
يسبق هذا مباشرة يوضح لنا أن ديكارت كان يتكلم عن أوائل عهده باستكشاف  
المنهج أى عام ١٦١٩ ، وأذن فعندما يقول « لما كنت أحدث سنا » فهو يعنى  
ما قبل ذلك التاريخ . ثم انه سيأخذ في نقد الفلسفة والرياضيات التى كانت  
تعلم في المدارس ، ومنها مدارس اليسوعيين التى كان هو في أحداها  
(٢) ينحصر التحليل باعتباره جزءا من علم الهندسة ، لا كمنهج للاستدلال  
والبرهان ، في حل المسائل بتحويلها جزئيا الى مسائل أخرى أبسط وأعم ،  
كمثلا لاجاد النقطة المتساوية البعد عن ثلاث نقط ، فانه يجب أن تكون تلك  
النقطة أولا متساوية في البعد عن نقطتين ، أى أن تكون على العمود المقام من  
منتصف المستقيم الذى يصل النقطتين ، ولإيجاد النقطة المطلوبة يجب أولا  
إيجاد المحل الهندسى الذى هو جزء منه ( راجع هملان مذهب ديكارت ٣ ص  
٥٥ و ٥٦ ) . أما اذا كان التحليل باعتباره منهجا للاستدلال ، فهو مايقول  
عنه أفليدس انه يفرض أن المطلوب ثابت ، ثم ينتقل منه بطريق الاستنتاج حتى  
يوصل الى قضية أخرى ثابتة قبل ، وبذلك يتم البرهان على المطلوب ( راجع  
لاند مقالة التحليل Analyse في المعجم الفلسفى ١١ ) وهذا المعنى هو مايرجع  
هملان ، ص ٥٦ وأستاذنا المسيو لاند انه مقصود ديكارت . أما المسير جلزون  
غيرى أن معاصرى ديكارت لا يرون أن التحليل كمنهج للاستدلال ، يقابل التحليل  
يتتبع ذلك وان ينظر بعناية في كل ما يحويه ، فان فهمه للشيء الذى برهن عليه  
باعتباره جزءا من علم الهندسة (انظر التعليق ٤ ص ١٨٣) ويشرح ديكارت نفسه  
التحليل باعتباره منهجا بقوله : « في التحليل يستنبط المعلوم من المجهول وذلك  
يفرض المجهول معلوما والمعلوم مجهولا » هذا النص ذكره أولا رافيسون Ravaisson  
بدون إشارة الى موضعه ، ويتبعه في ذلك كثير من المؤرخين ( انظر هملان ص  
٧٩ و ٨٠ ) ويقول فيه أيضا « يظهر التحليل حقيقة ما وصل به الى الشيء تبعا  
للمنهج ، ويبين كيف تتوقف المملولات على الملل ، بحيث اذا شاء القارئ أن  
يتتبع ذلك وان ينظر بعناية في كل ما يحويه ، فان فهمه للشيء الذى برهن عليه  
كذلك ، لن يكون أقل كمالا ، ولأن يجعل ذلك الشيء أقل اختصاصا به ، مما  
لو أنه هو الذى توصل اليه واستكشفه بنفسه » ( الردود على الاعتراضات ١٢ )  
وميزة التحليل البارزة التى توافق روح الفلسفة الديكارتية هى ما أبداه لينتر  
في علم الجواهر الفرد (مونادو لوجيا) بقوله « عندما تكون حقيقة لازمة ، =

الرياضيات ، وهى ثلاثة فنون أو علوم كان يبدو لى أنها لا بد أن تمتد مشروعى بشىء ولكننى ، عند امتحانها تبينت ، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الاخرى هى أدنى أن تنفع فى أن نشرح للغير مانعرف من الأمور ، لا فى تعلم تلك الأمور (١) بل هى كفن لل (٢) ، ينفع فى أن نتكلم فيما نجهل من غير تمييز ،

= فان الانسان يستطيع ايجاد حجتها بالتحليل ، ذلك بتحليلها الى افكار وحقائق أبسط حتى يصل المرء الى الافكار والحقائق الاولى » ( الفقرة ٣٣ . انظر الكتابات الفلسفية philosophische schriften طبعة جرهاردت ج ص ٦١٢ ) (١) درس ديكرت فى كلية لافليش منطق المدرسة وقرا فيها المدخل لفورطريوس (ايساغوجى) ومقولات أرسطو (قاطيفورياس) وكذلك تحليل القياس (أنالو طيقا الاولى) والبرهان ( أنالو طيقا الثانية ) والعبارة (باراميناس) (راجع بيان الكتب التى كان مقررا درسها فى هملان مذهب ديكرت ٣ ص ١٣ و ١٤ وجلسون التعليق ٤ ص ١١٨ ) . وهو يأخذ على منطق المدرسة أى على القياس ( سولوجسموس ) انه عقيم لا يساعد على الاختراع ، لانه اذا وضعت المقدمات وكان الحد الاوسط فى مكانه ، فان استخراج النتيجة لا يحتاج الى أكثر من تعبير لغوى وبعبارة أخرى فان النتيجة لا تقوم بأكثر من أن تنقل ، تبعاً لأخص القدمتين ، وعلى حسب موضع الحد الاوسط ، قولا هو من قبل صادق على الحد الاوسط وبين الثبوت له ، وبذلك لا يضيف القياس شيئاً الى معرفتنا . اما قول ديكرت بأن أقيسة المنطق تنفع فى أن نتكلم فيما نجهل دون حكم ، ومعنى الحكم عنده تمييز الحق من الباطل ، فالمرجح انه يوجه باعتراضه الى منطق الماصدق ، لأن الحكم باعتبار الماصدق لا يستلزم انتباهها كثيراً من النفس ، اما باعتبار المفهوم فلا يتسنى الحكم دون انتباه العقل الى معانى الحدود .  
تدليـب ✽ لكل حد ماصدق وهو الافراد التى يطلق عليها ذلك الحد ، فمثلا ماصدق انسان هو زيد وعمرو وكل الاشخاص الانسانية ، وللحد أيضا مفهوم وهو المعنى الذى يفيد ذلك الحد ، فمثلا مفهوم انسان هو كونه حيا وحيوانا ومن أهل السلسلة الفكرية ومن ذوى الثدى الخ .

(٢) هو رايموند لى Lullie العالم الفيلسوف الكيماوى الرحالة المبشر . وهو من أعجب شخصيات العصور الوسطى ، ولد فى بالمأ بجزيرة ماجوركا سنة ١٢٣٥ ومات مرجوما فى ٣٠ يونيه سنة ١٣١٥ . وقد تعلم علوم العرب لغتهم فى =

دمع أن ذلك العلم يشتمل في الحقيقة على تعليمات كثيرة جدا مدحيجة ومفيدة ، فان فيه أيضا غيرها ، اما ضارة واما عديمة النفع ، وعلى مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر ، مثل استخراج ديانا أو منيرفا من قطعة من الرخام لم تنحمت بعد (١) ثم انه فيما يختص بتحليل الاقدمين وبجبر المحدثين ، ففوق انها لا تتسمع الا لأمور مجردة جدا ، وتبدو كأنها لا تطبيق لها ؛ فان الاول مقصور دائما على النظر في الاشكال ؛ بحيث لا يقدر على اعمال الفهم دون اجهاذه للخيال (٢) ، وفي الاخير يتقيد بقواعد ورموز جعلت منه فنا (١٨) مبهما وغامضا يحير العقل ، بدلا من ان يكون علما ينفقه . وهذا

= الاندلسى كى يدعو المسلمين الى المسيحية ، ويظهر ان جراته وحماسه العائدين كانتا تشفعان له في غض امراء المسلمين عنه والتسامح معه . وله مؤلفات كثيرة جدا يقول البعض انها تبلغ اربعة آلاف كتاب وقد ضاع اكثرها ( انظر تاريخ حياته وموجزا عن مؤلفاته في رسالة زويمر Zwemer ريموند لل اول مبشر بين المسلمين القاهرة سنة ١٩١٥ ) . ولرايموند لل مؤلفات بالعربية ، امكن أخيرا احصاء ثمانية منها ، على انها غير موجودة (انظر مجلة الدروس الاسلامية Rev. des études islamiques السنة الاولى ١٩٢٧ الكراسة الاولى ص ٣٥ . ويعنى ديكارت بفن كل ما هو معروف بالفن الكبير Ars magna وقد صنعه لل للتغلب على صعوبتين في منطق أرسطو : الاولى استكشاف القدمات او المبادئ اللازمة للوصول الى نتيجة مبرهنة علمية ، والثانية ايجاد الحد الاوسط اذا وجد الطرفان ، وهو يلجأ في هذين المشكلين الى فنه الكبير الذى يجعل من الفكر آلة مسخرة بحيث حق لديكارت أن يحكم عليه حكمه ( انظر لشرح الفن الكبير مقالة لل في معجم العلوم الفلسفية Dictionnaire des sciences philosophiques تحت ادارة فرانك FRANCK وكذلك برهيه BREHIER تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٧٠٠ ومايليها من الطبعة الاولى باريس سنة ١٩٢٦ وما بعدها ) .

(١) ديانا هى ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الاغريق والرومان ، وكانت ملكة الغابات ، وميترفا وتسمى أيضا بلاس اثينا كانت آلية الحكمة والفنون (٢) انظر التعليقات على كلمة الخيال في الكلام على قوى النفس في القسم

#### الخامس

مقال عن المنهج - ١٢٩

ما كان سببا في اني فكرت في وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على مزايا تلك العلوم الثلاثة ، خاليا من عيوبها . وكما أن كثرة القوانين كثيرا ما تهيب المعاذير للنقائص (١) ، بحيث تكون الدولة خيرا حكما ونظاما ، عندما لا يكون لديها من القوانين الا قليل جدا ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة ، كذلك اعتقدت انه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادئ التي يتألف منها المنطق ، فالاربعة التالية حسبي بشرط أن يكون عزمي على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما .

الأول ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ، ما لم أعرف يقينا انه

---

(١) يرى هيلان في ذلك النص اعترافا من ديكارت بالنقص في كتابه القواعد التي لم يكمله ديكارت على حسب مشروعه لانه كان ينوي جعله في ست وثلاثين قاعدة . ولكنه بين أيدنا في واحدة وعشرين فقط ، وأذن فيظن هيلان في قوله « ان كثرة القوانين كثيرا ما تهيب المعاذير للنقائص » اشارة الى ذلك النقص ( انظر ملهيب ديكارت ٢ ص ٤٨ ) . ولقد اهتم ديكارت منذ حداثة بالبحث عن قواعد عامة قليلة العدد لقيادة العقل في تحرى الحقيقة وفي ذلك من اقواله والتي يرجع تاريخها الي عهد شبابه قوله : « ان احكام العلم هي ارجاعه كله شيء الى قليل من القواعد العامة » ( انظر ص ١٣ من اعمال ديكارت غير المطبوعة ١٤ نشرها الكونت فوشيه دي كاري Foucher de Careil في باريس ١٨٥٩ — ١٨٦٠ )

ثم اننا نرى ان ديكارت يقتصر في المقال على أربع قواعد فقط ، بينما يبسط في كتابه القواعد ١ واحدة وعشرين قاعدة ومع ذلك فهي ناقصة ، ولا تزيد في شيء عن قواعد المقال ، وهذا راجع الى أن المقال كتب بعد القواعد ولو انه اشر قبله (انظر جلسون التعليق ٤ ص ١٩٦) وهناك رأى آخر قديم يقول به الاستاذ ناتورب Natorp في كتابه المشهور نظرية المعرفة عند ديكارت ١٥ ص ١٦٥ ومحصله أن القواعد الاثنتي عشرة الاولى في كتاب القواعد هي شرح لقواعد المقال الاربعة ( انظر يونجمان Jungmann رينيه ديكارت ، مبحث في عمله ١٦ ص ٤ وه )

كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور (١) ، والسبق الى الحكم قبل النظر (٢) ، وألا أدخل في احكامى الا ما يتمثل امام عقلى فى جلاء وتميز (٣) ، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك .

الثانى : أن أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها ، الى اجزاء على قدر المستطاع ، على قدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه (٤) .

الثالث : أن أسير أفكارى بنظام ، بادئا بأبسط (٥) الأمور

(١) التهور وبالفرنسية Précipitation ويعنى به دريكات الحكم قبل أن يصل العقل الى يقين كامل وقد شرحناه سابقا ص ١٢٥ تعليقه رقم ١

(٢) السبق الى الحكم قبل النظر وبالفرنسية Prévention وهو في نظر ديكرات أول مصادر الخطأ ، ويقصد به أن يكون للمرء في بعض المسائل أحكام يأخذ بها قبل فحصها بعقله المستقل ، وهذه الاحكام اما أن تكون مأخوذة من زمن الطفولة عند ما يكون الاتصال بين النفس والبدن وثيقا جدا بحيث يكاد العقل لا يفكر في ابعاد مما يحس البدن ( انظر مبادئ الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٧١ ) واما أن تكون تلك الاحكام السابقة للتفكير الشخصي مأخوذة عن السلف بالنقل دون نقد

(٣) «أسمى المعرفة جليلة اذا كانت حاضرة وظاهرة امام نفس منتبهة، مبادئ الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٤٥ . أما المعرفة المتميزة فهى ما كانت ذات حدود معينة بحيث لا تختلط مع غيرها ، ويرى ديكرات أن المعرفة تصح أن تكون جليلة وغير متميزة مثل شهور المرء بالم موجع فان المعرفة هنا حاضرة وظاهرة ولكنها غير متميزة لاضطراب حكم المرء في طبيعة الالم ولكن العكس لا يصح ( راجع المبادئ ٦ ج ١ فقرة ٤٦ )

وتسمى تلك القاعدة الاولى بقاعدة اليقين .

(٤) تسمى هذه القاعدة التحليل

(٥) البسيط هو ما ليس له اجزاء وهو اما يعرف كله او يجبل كله ( انظر

القواعد (٦) : الثانية عشر )

وأسهلها معرفة (١) كى أتدرج قليلا قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها برهينا ، بل وإن أفرض ترتيبا بين الامور التى لايسسبق بعضها الآخر بالطبع .

والاخير ، أن اعمل فى كل الاحوال من الاحصاءات السكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلنى على ثقة من اننى لم أعفل شيئا (٢) هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، وكلها بسيطة وسهلة ، التى اعتاد أصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول الى أصعب براهينهم ، يسرت لى أن اتخيل أن كل الاشياء ، التى يمكن أن تقع فى متناول المعرفة الانسانية تتتابع على طريقة واحدة ، وانه اذا تحامى المرء قبول شئ منها على أنه حق مع انه ليس حقا ، واذا حافظ دائما على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض ، فانه لا يمكن أن يوجد بين تلك الاشياء ما هو من البعد بحيث لا يمكن

---

(١) هذا الاصطلاح « أسهل الامور معرفة » غامض عند أرسطو وفي العصور الوسطى وهو يفد من جهة مانعرفه احسن معرفة ، ومن جهة اخرى أكثر الامور قبولا للمعرفة مطلقا وبالطبع ، أو أكثرها قبولا للفهم (أنظر روبان Robin الفكر اليونانى La pensée grecque ص ٣٠٥ وكذلك برنشفيك Brunschvigg الرياضة ومابعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ . وهذه القاعدة الثالثة تسمى قاعدة التأليف والتركيب .

(٢) تسمى تلك القاعدة بقاعدة الاستقراء التام Enumération وهو عند ديكارت ينحصر فى « تحرى كل ما يتصل بمسئلة ما ، وينبغى أن يجتهد فى ذلك التحرى ويعنى به بحيث يمكن أن يستنبط منه بيقين اننا لم نهمل شيئا بخطا منا » القواعد ١ القاعدة السابعة ومع ان ديكارت يطلق على تلك العملية اسم « الاستقراء » فانها فى الواقع كما يقول هملان ( ص ٧٣ ) « قياس فى طريق التكوين » . وهو يختلف عن الاستقراء القديم فى أنه مع تأسيسه علاقات بين الحدود أ ب و بين ب و ج و بين دوس يساعد على اقامة علاقة واحدة بين أ و س وبذلك يكون الاستقراء الديكارتى وسيلة لزيادة المعرفة والاستكشاف Ars inveniendi ( راجع هانكان منهج ديكارت ٢ ص ٧٧٢ )



ادراكه ، او من الخفاء بحيث لا يستطيع كشفه . ولم يعينى نزيرا  
 البحث عن الشيء الذى تدعو الحاجة الى البدء به لانى عرعت من  
 قبل أنه يكون بأبسط الاشياء وأسهلها معرفه ، ولما لاحظت انه بين  
 كل من بحثوا من قبل عن الحقيقة فى العلوم ، ليس الا الرياضيين  
 هم الذين استطاعوا أن يجدوا بعض البراهين ، اعنى بعض الحجج  
 الوثيقة اليقينية ، فانى لم اشك فى انه بنفس تلك الاشياء كانوا  
 يدرسون ، على انى لم أمل منها أى فائدة أخرى ، غير تعويد عقلى  
 على أن يألف الحقائق ، وألا يقنع البتة بالحجج الباطلة . ولكننى لم  
 اعزم قط ، لاجل هذا ، على تعلم كل هذه العلوم الخاصة التى يسميها  
 الجمهور بالرياضيات ، ولما لاحظت انى انه مع أن موضوعاتها متباينة (٣٠)  
 فانها تتفق جميعا ، فى انها لا تبحث الا عما فيها من النسب المختلفة  
 أو المقادير ، فكرت فى انه خير ان اقتصر على درس هذه المقادير على  
 العموم ، وألا افرضها الا قائمة بالموضوعات التى تعين على تسهيل  
 معرفتى لها بل من غير أن اقصرها عليها البتة كى تزيد قدرتى على  
 تطبيقها فيما بعد على كل ما عداها من الموضوعات التى توافقها (١)  
 ولما لاحظت بعد ذلك أننى ، لمعرفة تلك المقادير ، محتاج فى بعض  
 الاحايين الى أن اعتبرها كل واحد على حدة ، وفى احيائين أخرى الى  
 أن أكتفى بتذكرها ، او الى ان اجمع عددا كثيرا منها ( فى وقت  
 واحد ) ، فكرت انه لكى يحسن النظر فى كل واحد منها على حدة  
 وجب على أن افرضها خطوطا ( مستقيمة ) ، لاننى لم أجد شيئا  
 أبسط منها ولم أقدر ان اعرض لحيالى وحواسى ما هو أكثر تميزا  
 منها ، ولكن لاجل تذكرها ، او لجمع الكثير منها ( فى وقت واحد ) ،

---

(١) « هذا هو العزم على درس النسب فى ذاتها باستقلالها عن كل مادة  
 تتعلق بها ، وذلك ما سيؤدى بديكارت الى اختيار الخطوط كرموز للتعبير عن  
 كل المقادير » جلوسن التعليق ٤ ص ٢١٨ ومعنى هذا تفكير ديكارت فى العلم  
 الذى استحدثه وهو الهندسة التحليلية التى سيتحدث عنها فى الصفحة الآتية .

ووجب على أن افسرها برموز أكثر ما تكون ايجازا (١) ، وبهذه الوسيلة ، استعير خير ما فى التحليل الهندسى والجبر ، وأصحح كل عيوب احدهما بالآخر (٢) .

وفى الحقيقة فانى استطيع ان أقول ان المراعاة الدقيقة لهذا العدد القليل من المبادئ الذى اخترته قد هونت على كثيرا حل كل المسائل التى يتناولها هذان العلمان ، حتى انه فى شهرين أو ثلاثة مضيتها فى اختبارها ، وكنت قد بدأت بأبسط الامور واعمها ، وكل حقيقة وجدتها كانت قاعدة اعانتنى فيما بعد على وجود أخرى ، (٣١) فانى لم انته فقط الى حل كثير منها كنت أجده فيما قبل معضاجدا بل بدا لى أيضا قبيل النهاية ، اننى قادر أن أحدد ، حتى فى المسائل التى أجهلها ، بأى الطرق ، والى أى حد ، يستطاع حلها ، وفى هذا ربما لا أظهر لكم رجلا فارغا ، اذا لاحظتم أنه ليس للشيء الواحد الا حقيقة واحدة ، فمن وجدها فقد عرف من هذا الشيء كل مايستطاع عرفانه ، فمثلا اذا قام طفل تعلم الحساب بعملية جمع حسب قواعده ، فانه يستطيع أن يثق أنه وجد فيما يختص بحاصل جمع المسئلة التى هو بصدها ، كل مايستطيع العقل الانسانى أن

(١) استعمل ديكارت حروف الهجاء كرموز موجزة للدلالة على الكميات المعلومة كما انه اول من استعمل الحرفين  $X$  و  $Y$  للدلالة على الكميات المجهولة . ونحن مع الذين يرون أن ال  $s$  كرمز رياضي يدل على المجهول الذى يطلب العلم به هو من أصل عربى ، لأن العرب كانوا يستعملون للاشارة الى ذلك المجهول كلمة « شيء » واخذها عنهم الاسبان ، ولما لم يكن فى لغة هؤلاء ما يقابل حرف الشين ، استعاضوا عنها بالسين  $X$  ) أنظر كازانوف Casanova تعليم العربية فى الكوليج ده فرانس ص ٢١ باريس سنة ١٩١٠ ومحمود الخضرى العرب والرياضة فى مجلة الزهراء ج ٦ م ٤ شعبان ١٣٤٦

(٢) لأن ديكارت باستحدثه الهندسة التحليلية بفضل تطبيق منهجه قد جمع بين مزى الهندسة بدرس الخطوط - وهذا تيسير للدرس لما فيه من استعانة بالخيال - وبين مزى الجبر بالإيجاز فى الرموز

يجده . لأن المنهج الذى يعلم المرء اتباع الترتيب الصحيح ، واحصاء كل الظروف بدقة فى الشيء الذى يتحراه ، يشتمل على كل ما جعل قواعد علم الحساب موثوقا بها .

ولكن أكثر ما أرضانى من ذلك المنهج ، هو ثقتى أننى بواسطته استعمل العقل فى كل أمر ، ان لم يكن على الوجه الأكمل ، فعلى خير ما فى استطاعتى على الأقل ، ذلك فوق اننى كنت أشعر فى تطبيق ذلك المنهج أن عقلى كان يتعود شيئا فشيئا على تصور ما يتصوره على وجه أشد وضوحا وأقوى تميزا ، وأننى اذ لم أقصر هذا المنهج على مادة معينة ، فقد كان لى الأمل أن أطبقه تطبيقا مفيدا أيضا على معضلات العلوم الأخرى كما فعلت بمعضلات علم الجبر (١) وليس معنى هذا أننى اقتحمت بادىء الرأى امتحان كل ما يعرض من معضلات العلوم ، لأن هذا نفسه مخالف للنظام الذى يوجب منه المنهج (٢) . ولكن لما لاحظت أن مبادئ تلك العلوم يجب أن تكون (٢٢) مقتبسة كلها من الفلسفة ، التى لم أكن وجدت فيها بعد شيئا يقينيا ، فكرت فى أنه يجب على أن أحاول أولا أن أقرر فى الفلسفة أصولا يقينية ، ولما كان هذا أهم شيء ، والتهور والنسب إلى الحكم قبل النظر أخوف ما يخاف فيه ، وجب على ألا أصمم على المضى فيه ما لم أبلغ من العمر سنا أنضج من سننى يومئذ (٣) وكانت ثلاثة

---

(١) فى النص اللاتينى « كما فعلت بمعضلات الهندسة أو الجبر » أعمال ديكارت الكاملة مطبوعة آدم وتانرى ج ٦ ص ٥٥٢  
(٢) أى للمبدأ الثالث المسمى بقاعدة التأليف ( انظر جلسون التعليق ص ٢٢٦ )

(٣) يقصد شتاء ١٦١٩ حيث كان فى منزله وحيث اهتمنى الى منهجه لأول مرة ، ومن المعروف أن ديكارت مولود سنة ١٥٩٦

وعشرين عاما ، وما لم أكن أنفقت قبلا زمنا كثيرا فى اعداد نفسى له  
سواء كان ذلك بأن أنزع من عقلى كل الآراء الفاسدة ، التى كنت  
تلقيتها قبل ذلك ، أو بأن أجمع التجارب الكثيرة ، كى تكون فيما  
بعد مادة استدلالى وأن أروض نفسى دائما على المنهج الذى ألزمت  
نفسى به لىتزايده رسوخى فيه .

## القسم الثالث

ثم انه لما كان لا يكفى قبل البدء فى تجديد المسكن الذى نقيم فيه أن نهدمه ، وأن نحصل مواد العمارة والمعماريين ، أو أن نعمل بأنفسنا فى العمارة ، وأن نكون عدا ذلك قد وضعنا له الرسم بعناية بل يجب أيضا أن يكون لنا مسكن آخر نستطيع أن نأوى اليه فى راحة أثناء العمل فى ذلك المسكن ، وكذلك ، لكى لا أظل مترددا فى أعمالى ، حينما يجبرنى العقل على ذلك فى أحكامى ، ولكى لا أحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فأننى وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة (١) لا تشتمل الا على ثلاث حكم أو أربع أدلى اليكم بها :

(١) أى غير نهائية . والحقيقة أن هذا التعبير أدى الى خلاف كبير بين مؤرخى الفلسفة الديكارتية ، لأن ديكارت يقول فى تنبيهه الذى صدر به المقال انه استنبط قواعد الاخلاق الواردة فى القسم الثالث من منهجه ، وكذلك يقول فى القسم السادس ص ٦١ أنه يقس أخلاقه على منهجه على أنه يقرر هنا وفى أمكنة أخرى أن هذه الاخلاق مؤقتة . ويعرفنا مخطوط جوتنجن لأو قد نشره لأول مرة الاستاذ آدم سنة ١٨٩٦ ثم ظهر فى الاعمال الكاملة فى المجلد الخامس بأن ديكارت كتب قواعد الاخلاقية وهو نادم وذاك خشية أن يتهمه المستفلون بالعلم وغيرهم بأنه لادين له ولا ايمان ، وكذلك خشية أن يسيئوا فهم منهجه ، وقد كتب الى صديق له فى أول نوفمبر سنة ١٦٤٦ يقول لو أنه وضع أخلاقا نهائية لما أبقى له الناقدون راحة ما ، لأن طبيعياته لم تئل القبول عند أولى الامر ، كما ان البعض اتهمه باللاادبية لانه نقض أقول اللاادبيين ، وقال عنه البعض الآخر انه ملحد

الأولى أن أطيع قوانين بلادى وعوائدها ، مع ثبات فى  
(٢٣) محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى ،  
وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعا لأكثر الآراء اعتدالا ،  
وأبعدها عن الافراط ، والتى أجمع على الرضاء بها فى العمل ، أعقل  
الذين سأمعيش معهم ، لأننى ، لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم  
لآرائى الخاصة أى اعتبار - وذلك لأننى أردت أن أختبرها جميعا -  
أيقنت أنه ليس فى استطاعتى أن أعمل خيرا من اتباعى لآراء أعقل  
الناس ، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول  
كعقولنا ، فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعا للذين أعيش  
معهم ، ولأجل أن أعرف ما هى حقيقة آرائهم ، كان واجبا على أن  
أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب فى ذلك هو أن  
فساد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل ما يعتقدون ،  
بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم ما يعتقدون ، وذلك لأنه لما  
كان عمل العقل الذى به يعتقد المرء بشيء ما ، مخالفا لما به يعرف

---

مع انه أثبت وجود الله ، وغير ذلك ( انظر الاعمال الكاملة ج ٤ ص ٥٣٦ ) ومن  
المعروف أن ديكارت فى تصنيفه للعلوم فى مقدمته لمبادئ الفلسفة ٦ جعل الاخلاق  
فى قمة العلوم وقال انها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى ، ولما كان ديكارت  
لم يستطع اتسام طبيعياته ولا أن يطبقها على الميكانيكا والطب فانه لم يستطع  
وضع أخلاقه النهائية مع عنايته الكثيرة بعلم الاخلاق ( راجع هملان الكتاب المذكور  
قبلا ٣ الفصل الرابع والعشرون وبوترو Boutroux العلاقة بين  
الاخلاق والعلم فى فلسفة ديكارت فى كتابه دروس فى تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٩  
وما يليها ) على أننا نعتقد أنه لو أتم ديكارت مذهبه فى الاخلاق لما نقض ما كتبه  
فى المقال ، والذين قالوا ان ديكارت مال الى المذهب العقلى فى الاخلاق فيما قاله  
عن الاخلاق بعد المقال لم يظنوا الى أن ديكارت يفرق بين عمل العقل فى العلمى  
أى فى الاخلاق وعمله فى النظرى مع تقريره دائما أن طبيعة العقل تقتضى ذلك وهذا  
ماسبوضحه فيما يتلو من القسم الثالث .

أنه يعتقد ، فكتيرا ما يوجد أحدهما بدون الآخر (١) ، ولم أنتخير من بين الآراء الكثيرة المقبولة على سواء ، الا الأكثر اعتدالا . وذلك لأنها دائما أيسر في العمل ، ويرجح أن تكون هي الاحسن ، اذ أن كل افراط من دأبه أن يكون سيئا ، وأيضاً لكى أكون أقل ميلا عن الطريق القويم عند الوقوع فى الخطأ ، لا كما لو اخترت أحد المذاهب المتقابلة وكان الذى يجب أن أسلكه هو المذهب الآخر . واعتبرت على الأخص من بين مذاهب الافراط كل الأمانى التى ينقص (٢٥٪) بها المرء شيئاً من حريته . ولم يكن ذلك لاستنكارى للقوانين التى - لكى تعالج زعزعة النفوس الضعيفة - تبيح عند حسن الغرض أو مراعاة لآمن التجار ، اذ كان الغرض لا سميئاً ولا حسناً ان يتفقد المرء بنزور أو عقود تضطره الى الثبات على ذلك ، ولكن ذلك لأننى لما لم أشاهد فى العالم شيئاً يبقى على حالة واحدة ، وأنه لما كنت - فيما يختص بنفسى - أمل أن أزيد أحكامى كملاً ، لا أن أنقصها ، فقد رأيت أننى آتى خطأ فادحاً مخالفاً للعقل ، اذ كان تحبيذى لأمر فى زمن ما يجعلنى مضطراً لأن اعتبره أيضاً طيباً فيما بعد ، عند ما قد تزول عنه هذه الصفة ، أو عندما أكف عن اعتباره منتصفاً بها .

وكانت حكمتى الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزماً وتصميماً فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صحت عزمى عليها ، أقل ثباتاً مما لو كانت من أشد الآراء وضوحاً . أحتذى فى هذا مثل المسافرين الذين يجدون

---

(١) لأن عمل النفس الذى نحكم به أن الشيء خير أو شر يتعلق بالارادة ، وأن العمل الذى نعرف به أننا حكمنا كذلك خاص بالعقل . وليس غريباً جداً أن تكون وظيفتان أحدهما تتعلق بالعقل والأخرى بالارادة مختلفتين ، وأن أحدهما تستطيع أن تكون بغير الأخرى « تفسير بير سلفان رجيس اقتبسه جلسون في تعليقه ص ٢٢٧ و ٢٢٨ » .

أنفسهم قد ضلوا في بعض الغابات عليهم ألا يضربوا فيها التواء ههنا مرة ، وهنا مرة أخرى ، وشر من ذلك أن يقفوا في مكان واحد ، ولكن عليهم أن يسبوا دائما أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ، وألا يغيروا اتجاههم لأسباب ضعيفة ، ولو لم يكن الا مجرد اتفاق ، هو الذى جعلهم فى بادئ الأمر يصممون على اختياره ، (٢٥) لأنه بتلك الطريقة ، فهم ان لم ينتهوا الى حيث يرغبون ، فهم يبلغون على الأقل بعض الأماكن التى يرجح أن يكونوا فيها خيرا مما لو ظلوا فى وسط غابة . وكذلك فان أعمال الحياة ، لما كانت لا تحتل غالبا تأجيلا ما ، فانها حقيقة أكيدة جدا ، أنه اذا لم يكن فى استطاعتنا تمييز أصح الآراء ، فان الواجب علينا اتباع أكثرها رجحانا ، بل اذا لم نلاحظ تمايزا فى الرجحان بينها ، فانه يجب علينا مع ذلك ، أن نتمسك ببعضها ، وألا نعتبرها بعد ذلك موضعا للشك باعتبارها متصلة بالعمل ، بل علينا أن نعتبرها جد حقيقة ووثيقة ، لأن العقل الذى ألزمتنا بها هو نفسه كذلك . وهذا كان كافيا لتخليصى منذ ذلك الحين من كل ندم وتأنيب ، وهما يثيران فى العادة وجدان النفوس الضعيفة المتقلبة التى تستسلم فى غير ثبات الى العمل ما تعتبره صالحا ؛ ثم تحكم فيما بعد بأنه سيىء .

وكانت حكمتى الثالثة أن أجتهد دائما فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ ، وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة (١) ، بحيث اننا اذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يختص بالأشور الخارجية عنا ، فان كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الإطلاق . وهذا وحده فيما بدا

---

(١) أفكارنا ملك لنا لانها تتبع تماما ارادتنا الحرة .



لى ، كان كافيا لأن يصدنى عن الطمع فى المستقبل فى شىء لا أناله ،  
ولأن يجعلنى راضيا (١) ، لأنه لما كانت إرادتنا بطبيعتها لاتميل (٢٦)  
الا الى الاشياء التى يصور لها فهمنا أنها ممكنة بحال ما ، فمن  
المحقق اذن أنه اذا اعتبرنا كل الخيرات الخارجة عنا تتساوى فى  
تباعد من مثال قدرتنا ، فأننا لا نكون أشد أسفا على الحرمان من  
مزايأ يبدو لنا أن ميلادنا استوجبها عند ما يكون حرماننا منها بغير  
خطأ منا ، أكثر من أسفنا على ألا تكون لنا ممالك الصين والمكسيك ،  
وكذلك اذا عملنا بما يدعونه فضيلة الضرورة ، فلن نرغب فى أن  
نكون أصحاء ، اذا كنا مرضى ، أو فى أن نكون أحرارا ، اذا كنا  
فى سجن ، أكثر من رغبتنا الآن فى أن تكون لنا أجسام من مادة  
فيها من قلة الاستعداد للفساد مثلما فى الماس ، أو أن تكون لنا

---

(١) نرى فى هذه الحكمة الثالثة مظهر التأثير الراقى ، ولقد كان شاعرا  
فى القرن السادس عشر ، ديكارت رواقى مثل أبطال روايات كورنى Corneille  
(أنظر بوترو الكتاب المذكور قىلا ١٣ ص ٣٠٠) . والرأى المشهور هو أن ديكارت  
رواقى فى اخلاقه ولكننا نرى رأى هملان الذى يقول انه ليس رواقيا كما تذهب  
الى ذلك كثرة أهل الرأى وأنه يختلف عن الرواقيين فيمايتأى (١) بقول الرواقيون  
بالجبر المطلق ونفى حرية الارادة (٢) ، بينما يثبت هو الحرية للارادة بل ان  
الارادة عنده تكاد ترادف الحرية (٢) ان الرواقيين يرون أن المرء يرضح تحت قوى  
الوجود وهم يعتبرون كل لذة حسية تراخيا وضعفا ، بينما يتفاعل ديكارت بالشهوت  
ويكثر التصريح بما فيها من خير (٣) ان فلسفة الرواقيين هى فلسفة استسلام  
بينما يدعو ديكارت فى القسم السادس من المقال الى فلسفة تجعلنا سادة الطبيعة  
واربابها . ( أنظر مذهب ديكارت ٣ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ )

---

(٢) يقول الاستاذ أحمد أمين فى كتابه الاخلاق « ... ففلاسفة اليونان كان  
بعضهم يرى ان الارادة حرة فى الاخبار الراواقيين ألخ) ص ٦٠ و ٦١ من الطبعة  
الثالثة : القاهرة ١٣٤٤ - ١٩٢٥ والذى ينسبه الاستاذ للرواقيين . ليس من  
مذهبهم لانهم كانوا يقولون بالجبر المطلق ونفى حرية الارادة ( راجع جانيه  
وسيبأ Janet et Seailles تاريخ الفلسفة مسألة الحرية ص ٢٣٠ )

أجنحة نظير بها مثل الطيور . . ولكنى أعترف بأن المرء محتاج الى رياضة طويلة، والى تأملات كثير تكررهما، حتى يعود على ان ينظر من هذه الوجهة الى كل الامور ، وانى لأعتقد أن فى ذلك ينحصر سر هؤلاء الفلاسفة (١) ، الذين استطاعوا فى زمن سالف أن يخلصوا من سلطان الحظ وأن ينازعوا آلهتهم السعادة (٢) ، رغم الآلام والفقر . لانهم باشتغالهم الدائم فى تأمل الحدود التى فرضتها عليهم الطبيعة (٣) ، اقتنعوا تمام الاقتناع أنهم لا يقدرّون الا على أفكارهم ، وان اقتناعهم هذا كان وحده كافيا لمنعهم من أن تكون عندهم شهوة لأشياء أخرى . ولقد كانوا يتصرفون فى أفكارهم تصرفا مطلقا ، بحيث كان لهم بذلك حق فى أن يعتبروا أنفسهم أغنى ، وأقوى ، وأكثر حرية ، وأسعد من أى انسان آخر لم تكن له تلك الفلسفة ، ومهما حبته الطبيعة والحظ بما فى الامكان فهو لا يتصرف قط ذلك التصرف فى كل ما يريد . (٢٧)

ثم رأيت نتيجة لهذا النظام الاخلاقى ، أن أخبر مشاغل الناس المختلفة فى هذه الحياة ، كى أجتهد فى اختيار أفضلها ، وبدون أى رغبة منى فى أن أقول شيئا عن مشاغل الآخرين ، فكرت فى أننى لا أقدر على خير من أن أستمر فى نفس ذلك الشغل الذى كنت فيه ، أى على أن أنفق كل حياتى فى تثقيف عقلى ، وفى التقدم على قدر ما أستطيع ، فى معرفة الحقيقة ، تبعا للمنهج الذى فرضته

(١) أى الفلاسفة الرواقيون .

(٢) يعرف السيد الشريف الجرجاني الفلسفة بأنها « التشبه بالاله بحسب الطاقة البشرية لتحقيق السعادة الأبدية » التعريفات ص ١١٣ طبعة استانبول ١٣٢٧ وهذا مطابق لقول الرواقيين الذين كانوا يرون أن الحكيم سعيد مثل الاله نفسه

(٣) أى النظام الذى أقامه الله فى كل شيء فى الوجود ( راجع كتاب الى الاميرة اليزابث ١٨ أغسطس ١٦٤٥ فى م ٤ ص ٢٧٣ من الاعمال الكاملة طبعة آدم وتانرى )

على نفسى • ولقد شعرت بلذات بالغة جدا ، منذ بدأت فى أن آخذ نفسى بهذا المنهج ، لذات لا أعتقد أن من المستطاع أن يجد المرء ما هو أعذب منها ولا أظهر فى هذه الحياة ، وبكشفى كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لى أنها ذات شأن وأن غيرى من الناس مشتركون فى الجهل بها ، كان ما نلتته من الرضاء ملء نفسى الى حد جعل ما بقى من الاشياء لا ينال منى منالا • وعدا ذلك فان الحكم الثلاث السابقة لم تكن مؤسسة الا على مقصدى فى أن أوصل تعليم نفسى : لأن الله بمنحه كلامنا بعض النور لتمييز الحق من الباطل ، لم أكن لأعتقد البتة فى أنه يجب على أن أقنع بآراء الغير لحظة واحدة ، لو لم أكن قد عزمت على استعمال حكمى الخاص فى اختيارها ، فى الوقت المناسب ، ولم أكن لأعرف أن أتخلص من الهواجس لدى اتباعها ، لو لم آمل ألا أضيع من أجل هذا ، أى (٢٨) فرصة للوصول الى ما هو أفضل • ان كان هناك ما هو أفضل • ثم اننى ما كنت لأعرف أن أحد رغباتى ؛ أو أن أكون راضيا ، لو لم أتبع طريقا به ، وأنا أرى أننى واثق من تحصيل لكل المعارف التى أنا أهل لها، أرى نفسى كذلك بنفس الوسيلة واثقا من تحصيل ما هو فى الحقيقة خير مما يدخل فى طاقتى ، بحيث لا تميل ارادتنا الى طلب شيء ، أو الفرار منه ، الا تبعا لأن فهمنا يمثله لها طيبا أو خبيثا ، ويكفى أن يجيد المرء الحكم لكى يجيد العمل ، وأن يحكم أحسن ما يستطيع ، ليسارع الى عمل أحسن ما يستطيع عملا ، أى لكى يحصل على كل الفضائل ومعها كل الخيرات الأخرى التى يمكن تحصيلها ، وعندما يتأكد المرء أن ذلك كائن ، فانه لا يعجزه أن يكون راضيا •

وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعتها ناحية

مع حقائق الايمان ، التى لها دائماً المنزلة الاولى فى اعتقادى (١) .  
حكمت بأن مابقى من آرائى ، هو أن أعمل على التخلص منها ، ولما كنت  
عظيم الأمل فى أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على  
وجه أحسن ، مما لو ظلمت محبوساً فى حجرتى التى وافقتنى فيها  
كل تلك الأفكار ، فقد أخذت فى السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفى  
السنوات التسع التالية كلها (٢) لم أصنع شيئاً الا الطواف هنا  
وهناك فى العالم ، مجتهداً أن أكون فيه متفرجاً لا ممثلاً ، فى كل  
المهازل التى تمثل فيه ، ولما كنت أخص تفكيرى ، فى كل شئ بما يمكن  
أن يجعله موضعاً للشك ، ويكون سبباً فى خطئنا ، فأننى انتزعت  
مع ذلك من عقلى كل الأخطاء التى استطاعت ان تتسرب اليه من  
قبل وما كنت فى ذلك مقلداً للأدريه (٣) الذين لا يشكون (٤٩)  
الا لكى يشكوا ، ويتكلمون أن يظلوا دائماً حياري ، فأنى على عكس  
ذلك ، كان كل مقصدي لا يرمى الا الى اليقين ، والى أن أدع الأرض  
الرخوة والرملى ، لكى أجد الصخر أو الصلصال ، والذى نجحت  
فيه ، على ما يبدو لى ، بعض النجاح ، هو أننى لما اجتهدت فى كشف  
البطلان أو الشك فى القضايا التى كنت أمتحنها ، لا بفروض

---

(١) أى جنبها عن الشك المنهجي الذى يقول به فى التفكير النظرى ولكنه  
يستعبده عندما يكون الامر فى صدد الدين أو الاخلاق .

(٢) من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ ولقد أفلح ، مع انهماكى فى الاسفار  
كما يقول ، فى تطبيق منهجه على بعض مسائل الطبيعيات والرياضيات ( انظر  
هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٤٧ ) .

(٣) يختلف شك ديكارت المنهجي عن شك اللاادريين فى أنه لا يدوم بل  
ينتهى عند الوصول الى اليقين بينما شك اللاادريين دائم لا ينتهى قط . (هملان  
الكتاب المذكور قبل ٣ ص ١٠٨ ) ثم ان اللاادريين يرون استحالة العلم لانهم  
يشكون فى كل شئ حتى فى انهم يشكون ، بينما ديكارت قبل مبادئ قوية لامكان  
العلم ، وهى ترجع جميعا الى التسليم بوجود الله وانه مصدر الصدق والخير  
وسيوضح ذلك فى القسم الرابع .

ضعيفة ، ولكن بحجج و يقينية ، لم أجد في شيء منها ما كثر فيه الشك الى ألا استخلص منه نتيجة على حد من اليقين ، ولو لم تكن هذه النتيجة سوى أن القضية لا تحتوى على شيء يقيني ، وكما ان المرء وهو يهدم بيتا قديما ، يحافظ في العادة على أنقاضه لئى تنفع في بناء بيت جديد ، كذلك فاننى بنفضى كل ما حكمت عليه من آرائى بأنها آراء ضعيفة الاساس ، فاننى كنت أقوم ببعض الملاحظات وأحصل تجارب كثيرة (١) ، أفادتني بعد ذلك في تأسيس آراء أكثر يقينا . وزيادة على ذلك ، واصلت رياضة نفسى على المنهج الذى فرضته على نفسى ، لأنه عدا أنى عنيت بأن أوجه كل أفكارى على العموم تبعا لقواعده ؛ كنت أخصص بين حين وآخر ، بعض الساعات أنفقه على الخصوص فى تطبيقه على بعض معضلات الرياضيات ، بل وأيضا على بعض المعضلات الاخرى التى كنت أستطيع تحويلها الى مايكاد يشبهه معضلات الرياضيات ، وذلك بتخليصها من كل مبادئ العلوم الاخرى ، التى لم أجد فيها متانة كافية ، كما ستروننى أفعل فى كثير من العلوم المبسطة فى هذا السفر (٢) وكذلك فاننى من غير أن تكون حياتى فى الظاهر مخالفة (٣٠) لحياة من ليس لهم شغل ، الا أن يقضوا حياة حلوة بريئة فانهم يجتهدون فى أن يميزوا بين الملذات والرذائل ، والذين يلجئون الى كل الملهى النزيهة لئى ينعموا بفراغهم دون ملل ، لم أغفل أن أستمر فى مطلبى ، وأن أستفيد فى معرفة الحقيقة ، فائدة ربما كانت أكثر مما لو لم أفعل شيئا غير قراءة الكتب أو التردد على أهل الأدب .

---

(١) فى الطبيعيات والرياضيات ومن أهمها التحقيق التجريبي لقانون الانكسار .

(٢) أى فى مبحث انكسار الاشعة وعلم الانواء وهما موضوعان عالجهما ديكارت مع الهندسة وأصدر الثلاثة فى كتاب واحد سنة ١٦٣٧ مع المقال .

وعلى كل حال فقد انقضت تلك السنوات التسع قبل أن  
أستقر على رأى فى العضلات التى هى فى العادة موضوع نزاع بين  
العلماء (١) ، وقيل أن أبحث عن قواعد أى فلسفة أكثر يقينا من  
الفلسفة الذائعة (٢) . وان تجربة الكثيرين من أهل العقول الفاتحة،  
الذين التمسوا من قبل مطلبى، ولم يفلحوا فيه على ما بدا لى، جعلتنى  
أتخيل فيه الصعوبة ، بحيث ربما لم أكن لأجرؤ على الشروع فيه  
بتلك السرعة ، لو لم أر أن البعض قد أذاعوا أننى وصلت بالمطلب  
الى غايتى ، ولست أدرى على أى شىء أسسوا هذا القول، واذا كان  
لى أثر فى هذا القول بأقوالى فلا بد أن ذلك كان فى اعترافى - بما  
كنت أجهل - فى سذاجة أصرح مما اعتاده الذين درسوا قليلا ،  
وربما كان ذلك أيضا وأنا أبين أسباب شكى فى كثير من الأشياء  
التي يعتبرها الآخرون يقينية ولم يكن فى تمدحى بأى علم (فلسفى)  
ولسكنى اذ كنت من الشمم بحيث أبى أن يحسبني الناس على ما  
(٣١) لست عليه رأيت وجوب الاجتهاد بكل طريقة فى أن أكون أهلا  
لما وهبني الناس من صيت ، وقد مرت ثمانى سنوات كاملة منذ أن  
حملتنى تلك الرغبة على أن أبتعد عن كل الاماكن التى أجد فيها  
بعض من أعرفهم ، وأن أعزل هنا فى بلد (٣) وطده فيه طول  
استمرار الحرب (٤) نظما (جيدة) ، حتى ان الجيوش التى يحتفظ

(١) أى علماء العصور الوسطى .

(٢) أى فلسفة العصور الوسطى المتمدة على آراء أرسطو .

(٣) المقصود هولندا .

(٤) بدأت تلك الحروب بالثورة على اسبانيا طلبا للانفصال عنها سنة

١٥٧٢ وانتهت بمؤتمر منستر Munster سنة ١٦٤٨ .

بها فى ذلك البلد تبدو كأنها لا تستخدم الا فى أن ينعم الناس  
بثمرات السلام فى كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت فى غمرة  
شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله أكثر من تطلعه الى أعمال  
الآخرين ، بدون أن أحرم أى رخاء مما يوجد فى المدن الغاصة  
بالنازلين ، أن أعيش منفردا ومنعزلا كما لو كنت فى أقصى  
الصحارى •

## القسم الرابع

لست أدرى أن كان يجب على أن أحدثكم عن تأملاتي الأولى هناك (١) ؛ لأنها أدخل في عالم المجردات (٢) وأبعد عن متناول الجمهور بحيث قد لا يسيغها ذوق الناس جميعا . ومع ذلك ، لكي يستطاع الحكم فيما إذا كانت الأصول (٣) التي اعتبرتها هي على قدر من الوثاقة كاف ؛ وجدتني شبه مضطر الى أن أتحدث عنها : لاحظت منذ زمان طويل أنه فيما يختص بالاخلاق (٤) ، فإن المرء محتاج بعض الأحيان الى أن يتبع آراء يعرف أنها موضوع للشك ، كما لو كانت لا تحتمل شكاً ، وقد سبق القول في ذلك (٥) ولكن نظرا لرغبتى اذ ذاك في أن أفرغ للبحث عن الحقيقة ، رأيت أنه يجب على أن أفعل نقيض ذلك ، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك ، على أنه باطل على الاطلاق ، وذلك لأرى أن كان لا

(١) في هولندا

(٢) في النص الفرنساوى Si métaphysiques وقد نقل جلسون عن معجم الاكاديمى الفرنسية ( ١٦٩٤ ) أن هذه الكلمة كصفة تفيد أحيانا معنى التجريد . انظر التعليق ٤ ص ٢٨٣

(٣) في النص اللاتينى « اصول فلسفتى »

(٤) في الفقرة الثالثة من الجزء الاول من المبادئ ٦ التى عنوانها « في أنه لا يجب علينا أن نستعمل هذا الشك في تصريف أعمالنا » يسطر ديكارت قولاً شبيهاً بالذى يورده هنا :

(٥) في الحكمة الثانية من الاخلاق المؤقتة في القسم الثالث من المقال



(٣٢) يبقى فى اعتقادى بعد ذلك شىء لا يحتمل الشك • وكذلك لما كانت حواسنا تخدعنا أحيانا ، (١) أردت أن أفرض أنه ليس من شىء هو فى الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيله • ولأن من الناس من يخطئون فى التفكير ، حتى فى أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات (٢) ، فأننى لما حكمت بأننى كنت عرضة للزلل مثل غيرى ، نبذت فى ضمن الباطلات كل الحجج التى كنت أعتبرها من قبل فى البرهان ، ثم لما رأيت أن نفس الأقدار ، التى تدون بنا فى اليقظة ، قد ترد علينا أيضا ونحن نيام ، دون أن تكون واحدة منها إذ ذاك حقيقة (٣) اعترفت أن أرى أن كل الأمور التى دخلت الى عقلى ، لم تكن أقرب الى الحقيقة من خيالات أحلامى • ولكن سرعان ما لاحظت أنه ، بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شىء باطل ، فقد كان حتما بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير ، شيئا من الأشياء • ولما انتهت الى أن هذه الحقيقة : أنا أفكر ، إذن أنا موجود (٤) ، كانت من التنبؤات والوثاقة ( واليقين ) بحيث لا يستطيع اللادريون زعزعتها ، بكل ما فى فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أنى أستطيع مطمئنا أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التى أتحراها •

- (١) يقول فى التأملات الأولى ١٢ « شاهدت بعض الاحياء أن هذه الحواس تخدمنا ، ومن الحزم الانثق البتة تمام الثقة فى الذى يخدمنا مرة واحدة »
- (٢) المغالطة قياس فاسد : اما من حيث مادته ، واما من حيث صورته
- (٣) الفرق لدى ديكارت بين الحلم واليقظة فى حظهما من الحقيقة « أن الذاكرة لا تستطيع أن تصل الاحلام بعضها مع بعض ومع مجرى حياتنا كما هو شأنها فى وصل الأشياء التى تحصل لنا ونحن فى اليقظة » التأملات السادسة ١٢
- (٤) ا . معنى التفكير • يقول ديكارت فى التأملات الثانية ١٢ « اننى شىء مفكر *Res cogitans* . وما هو هذا الشىء المفكر ؟ انه شىء يشك ويفهم ويثبت وينفى ويريد ولا يريد ويتخيل أيضا ويحس » وكذلك يقول فى التأملات الثالثة ١٢ « اننى شىء يفكر ، أى يشك ، ويثبت ، وينفى ويعرف من الأشياء قليلا ويجهل

ثم لما اختبرت بانتباه ما كنت عليه ، ورأيت أنني قادر على أن أفرض أنه لم يكن لى أى جسم ، وأنه لم يكن هناك أى عالم ، ولا

= منها الكثير ، ويحب ، ويكره ، ويريد ولا يريد ، يتخيل أيضا ويحس» ويقول أيضا في ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الاول « أعنى بكلمة الفكر Pensée أو Cogitatio كل ما هو فينا بحيث تكون على وعى به مباشرة وهكذا فعمليات الارادة والفهم والخيال والحس هى أفكار ولكننى أوردت كلمة مباشرة عن قصد كى أبعاد كل ما يتبع أفكارنا أو يعتمد عليها فمثلا ، الحركة الارادية هى في الحقيقة فكر باعتبار ميدنها ، ولكنها ليست فكرا بذاتها » ويقول كذلك في الفقرة التاسعة من الجزء الاول من المبادئ ٦ أعنى بكلمة التفكير Penser ، كل ما يحصل فينا بحيث ندرکه مباشرة بأنفسنا ، ولهذا فليس الفهم والارادة والخيال وحدها ولكن الحس أيضا كلها تفكير » وبالجملة فالتفكير عند ديكارت معناه أن يكون المرء واعيا على العموم .

ب القضية من الوجهة المنطقية . زعم جاسندى Gassendi أن أنا افكر، اذن فانا موجود قياس ، وأن ديكارت أضمر مقدمته الكبرى وهى « وكل مفكر موجود » ، وإذا كان الامر كذلك فلا يصح أن تكون تلك الحقيقة أنا افكر اذن فانا موجود مبدأ أول مادامت تعتمد على صحة المقدمة الكبرى المضمرة . على أن ديكارت أجاب عن ذلك الاعتراض بأن مبداه ليس قياسا وانما هو بداهة أو تبصر بسيط للنفس » ويرجع السبب في اعتبار ذلك المبدأ قياسا الى وجود كلمة اذن Ergo أو Done فيه التى تستعمل عادة في القياس وقد حل اسبينوزا ذلك الاشكال باقتراحه التعبير عن هذا المبدأ بهذه العبارة Ego sum cogitans أى أنا مفكر ( راجع هملان الكتاب المذكور قبل الفصل التاسع وكيثوفيشير حياة ديكارت ومذهبه ١٠ ص ٤٠١ وما يليها وجلسون في تعليقه ٤ ص ٢٩٢ وما بعدها وبرنشفيك المقال المذكور سابقا ١٧ ص ٣١٥ )

(\*) يسمى ذلك النوع من القياس بقياس الضمير وهو بالفرنسية Enthymène « وهو قياس طويت مقدمته الكبرى اما لظهورها والاستغناء عنها كما جرت العادة في التعاليم كقولك خطأ أ ب ، أ ج خرجا من المركز الى المحيط فينتج أنهمما متساويان وقد حذفنا الكبرى ، واما لاختفاء كذب الكبرى اذا صرح بها كلية كتقول الخطا بى هذا الانسان يخاطب العدو فهو اذا خائن مسلم للشعر ولو قال وكل مخاطب للعدو فهو خائن لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم » ابن سينا النجاة ص ٩١ طبع القاهرة ١٣٣١

أى حيز أشغله ؛ ولكننى لست بقادر ، من أجل هذا ، على أن أفرض ، أننى لم أكن موجودا ؛ بل على نقيض ذلك ، فإن نفس كونى أفكر فى الشك فى حقيقة الأشياء الأخرى ، يستتبع استتباعا جده واضحا وجد يقينى أننى كنت موجودا ؛ فى حين أنه لو كففت عن التفكير وحده ، وكان كل ما بقى مما فرضته حقا ، لم يكن (٣٣) لى مسوغ للاعتقاد بأننى كنت موجودا (١) : ولقد عرفت من ذلك

(١) التفرقة بين النفس والبدن . هذه الحجة التى أوردها هنا ديكارت لبيان استقلال النفس عن البدن ، أى لاثبات أن وجودها غير متوقف على وجوده يراها البعض مستمدة من القديس أوغسطينوس Augustinus . وأول من قال بذلك هو الدكتور أرنولد Arnauld فى الاعتراضات الرابعة ١٢ ولكن ديكارت لم يجب عليه فى هذا الشأن بأكثر من شكره على « المعونة التى أمدته بها وذلك بتأييده بحجة القديس أوغسطينوس » الردود على الاعتراضات الرابعة ١٢ وكذلك أنظر كينوفيشير حياة ديكارت وعلمه ومذهبه ١٠ ص ٢٩٦ ومابعدا وجلسون فى تعليقه ٤ ص ٢٩٥ ومابعدا على أن الغائلين بذلك لم يقولوا بأن ديكارت نقل عن القديس أوغسطينوس نقلا بل لم يزدوا على ملاحظة بعض وجوه التشابه بين أفكار الفيلسوفين . وقد ظهر هذا التشابه ضميلا جدا أمام البعض حتى أهمله ومن هؤلاء هملان الذى يقول « وجه ديكارت جهده إلى معضلة التفرقة بين النفس والبدن وذلك بتناوله المسألة فى ذاتها واستعان لحلها بحجة لا تختص إلا به Qui n'appartient qu'à lui مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٤ وهو يقصد تلك الحجة التى نعلق عليها الآن لان ديكارت حجتين غيرها لا يجادل أحد فى أنه استمدهما من سابقه (أنظر المقدمة)

على أننا نعتقد أن نفس حجة ديكارت التى يقول عنها هملان انها لا تختص إلا به ، قد أوردها من قبله ابن سينا فى الشفاء فقال « فنقول يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا لكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات وخلق يهوى فى هواء أو خلأ هوى لا يصدمه فيه قوام الهواء صدمما ما يحس وجود أن يحس وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك فى اثباته لذاته موجودا ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولاً ولا عرضاً ولا عمقا ولو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل بدلا =

== أو عضوا آخر لم يتخله جزءا من ذاته ولا شرطا في ذاته . وأنت تعلم أن الميت غير الذي لم يثبت والمترب غير الذي لم يقرب فان للذات التي أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمه وأعضائه التي لم يثبت فاذن الميتة له سبيل الى تبته على وجود النفس شيئا غير الجسم بل غير جسم وأنه عارف به مستشعر له وان كان ذاهلا عنه يحتاج أن يقرح عصاه « ص ٢٨١ ، ٢٨٢ من طبعة طهران . ويعود أيضا فيقول في نفس الكتاب «ولنعد ماسلف ذكره منا فنقول : لو خلق انسان دفعة واحدة وخلق متباين الاطراف ولم يبصر اطرافه وانفق أن لم يمسه ولا تماسك ولم يسمع صوتا جهل وجود جميع أعضائه ويعلم وجود انبته شيئا مع جهل جميع ذلك وليس المجهول بعينه هو المعلوم وليست مدة الاعضاء لنا في الحقيقة الا كالنياب .» ص ٣٦٣ . ويقول كذلك في كتابه الاشارات والتنبيهات عند الكلام على النفس الارضية والسماوية «ولو توهمت ذاك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة وفرض أنها على جنانة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر اجزاءها ولا تتلبس أعضاؤها بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق وجدتها قد غفلت عن كل شيء الا عن ثبوت ايتهما » ص ١١٩ من مطبوعة فورجييه Forget في لندن سنة ١٨٩٢ وكذلك جاء في باب الاشارات النمط الثالث في النفس الارضية والسماوية القسم الاول في البحث عن ماهية جوهر النفس :

«\* (تنبيه) \* المشار اليه بقولى أنا ليس بجسم ، لوجهين : الأول أن جميع الاجزاء البدنية في النمو والذبول والمشار اليه بقولى أنا باقى في الاحوان كلها والباقى مغاير لغير الباقي . الثانى : أنى قد اكون مدركا للمشار اليه بقولى أنا حال ما اكون غافلا عن جميع أعضائى الظاهرة والباطنة فأنى حال ما اكون مهتم القلب بهم اقول أنا افعل كذا وأنا ابصر وأنا اسمع وأنا جزء من هذه القضية فالمفهوم من أنا حاضر لى في ذلك الوقت مع انى في ذلك الوقت اكون غافلا عن جميع أعضائى والمشعور به غير ماهو غير مشعور به فأنما مغاير لهذه الاعضاء . وان شئت أمكنك أن تجعل هذا برهاننا على أن النفس غير متجزئة لانى قد اكون شاعرا بجسمى أنا حال ما اكون غافلا عن الجسم فأنما وجب ألا يكون جسما» .

وقد بين الاستاذ فورلانى Furiani أن التفسيرين اللذين اقتبسناهما من الشفاء كانا مترجمين الى اللاتينية وأن الفيلسوف غليوم أوفرنى Auvergne قد =

أننى كنت جوهرًا (١) كل ماهيته (٢) أو طبيعته ليست إلا أن يفكر ، ولأجل أن يكون موجودا ، فإنه ليس فى حاجة الى أى مكن ولا يعتمد على أى شىء مادي . بحيث أن الأنية ، أى ( النفس ) (٣)

نقلهما عنه مع ذكر اسم ابن سينا . وقال الاسناد فالو Valois فى كتابه عن أوفرنى الصادر فى باريس ١٨٨٠ عند الكلام عن الفكرة التى ينقلها هذا الآخر عن ابن سينا «توجد هذه التعبيرات تقريبا فى المقال عن المنهج» (انظر ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر ، اذن فانا موجود Avicennae al Cogito, Ergo Sum di Cartesio فى مجلة الإسلاميات Islamica المجلد الثالث الكراسة الاولى ص ٥٣ - ٧٢ فى ليجرج إبريل سنة ١٩٢٧) .

(١) يقول ديكارت «عندما نتصور الجهر ، فانما نتصور شيئا موجودا بحيث لا يحتاج لأجل وجوده الا الى نفسه» المبادئ ج ١ الفقرة ٥١ وكذلك يقول: «يسمى جوهرًا كل شىء يقوم فيه مباشرة كانه فى موضوع ، ويوجد بواسطته شىء ما ندركه ، ومعنى ذلك أى خاصية ، سواء سفة او نعت تحصل لها عندنا فكرة حقيقية» الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الخامس . ويميز ديكارت دائما بين الجوهر المفكر وهو النفس والجوهر المتحيز وهو الجسم على العموم. (٢) يستعمل ديكارت الماهية أو الطبيعة كمترادفين (انظر جلون التعليق) ص ٣٠٥ . ويعنى ديكارت بالماهية Essence « الشئ كما هو فى العقل » نص اقتبس من الرسائل لبارد فى تعليقه على المبادئ ٦ الجزء الاول ص ٤٠ وهذا مايطابق استعمال لفظة الماهية عند فلاسفة العرب .

(٣) فى النص الفرنسى وردت كلمة âme أى الروح ولكننا نقلنا هنا عن النص اللاتينى حيث جاءت كلمة Mens أى النفس ولم تأت كلمة Anima وهى مايقابل فى اللاتينية كلمة âme فى الفرنسية . ولقد حدد مايقصده بكلمة النفس فى التعريف السادس من الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ فقال :

«الجوهر الذى يحل فيه الفكر مباشرة يسمى هنا بالنفس . وأنا أقول هنا النفس Mens ولا أقول الروح Anima ، لان الكلمة الأخيرة تدعو للبس ، اذ تطلق غالبا للدلالة على شىء جسمى» . (انظر جلون التعليق ٤ ص ٢٠٧ و ٣٠٨) ويظهر أن هملان أخذ الكلمة Ame كما وردت فى المقال وقال ان ديكارت وقع باستعمالها فى خلط كبير وكان عليه أن يستعمل كلمة فكر أو معرفة بدلا من كلمة روح (راجع مذهب ديكارت ٣ ص ١٠٦) . على أننا نعتقد أن خطأ ديكارت لغوى محض وعلمه فى ذلك حداثة عهد اللغة الفرنسية فى أيامه بالعلم ، والدليل =

التي أنابها ، هي متمايزة تمام التمايز عن الجسم ، بل وهي أيسر أن تعرف (١) وأيضا لو لم يكن الجسم موجودا البتة لكانت النفس موجودة كما هي بتمامها (٢) .

وبعد ذلك ، بحثت فيما يلزم للقضية كي تكون حقيقية و يقينية ؛ لأنني لما كنت وجدت قضية علمت أنها كذلك ؛ فكرت في أنه واجب على أن أعرف مم يتكون هذا اليقين . لاحظت أنه لاشيء في هذه القضية : أنا أفكر ، إذن فانا موجود ، يجعلني أثق من أنني أقول الحق ، الا كوني أرى بكثير من الجلاء لأجل التفكير ، فالوجود واجب : فحكمت بأنني أستطيع أن أتخذ قاعدة عامة ، أن الأشياء

---

على ذلك أنه لم يقع في نفس الخطأ في الترجمة اللاتينية التي راجعها وأقرها كما أن المترجم الفرنسى لكتابه المبادئ ٦ كثيرا ما يستعمل تلمة Ame للدلالة على نفس المعنى المقصود في المقال . كما فعل في الفقرة الحادية عشرة من الجزء الاول .

(١) هذا القول نتيجة منطقية لمبدئه أنا أفكر ، إذن فانا موجود ولشعرينه النفس بأنها جوهر مفكر فالنفس إذن أسهل معرفة من البدن لأن البدن لا يمكن معرفته الا بالنفس واذن فمعرفة سابقة لمعرفته . وهو يقول للتدليل على ذلك في الفقرة الحادية عشرة من ج ١ من المبادئ ٦ « اذا كنت أقتنع أن هناك أرضا لاني المسها أو لاني أبصرها ، فمن ذلك عينه ، وبدليل أقوى بكثير ، يجب على أن أقتنع بأن فكري كائن أو موجود ، حتى ولو جاز عدم وجود أرض ما في العالم وانه لا يمكن أن انيتى أى نفسى لانتكون شيئا ما حينما يحصل عندها ذلك الفكر» . أرجع أيضا الى التأملات الثانية ١٢

(٢) يعتمد ديكارت في ذلك على المبدأ الذى أثبتته في مذهبه وهو أن الأشياء التي تصورهما متمايزة جلية هي حقيقية وعلى ذلك فيفسر قوله بوجود النفس اذا فرض عدم وجود الجسم بما يأتى : (١) إثباته السابق على أننا عند اغفال الجسم نظل مدركين لوجودنا ( انظر ص ٥٢ و ٥٣ ) (٢) مادامنا نلدرك الشيء جليا متميزا فهو حقيقى لانه يستحيل على الله أن يخدمنا . (٣) التوحيد بين الحقيقة في الله وفي الاعيان كما كان يقول بذلك علماء العصور الوسطى (راجع مبادئ الفلسفة ج ١ الفقرة ٦٠ وما بعدها) .

التي نتصورها تصورا قوى الوضوح والتميز ، هي جميعا حقيقية ؛  
غير أن هناك بعض الصعوبة في أن نبين ما هي الأشياء التي نتصورها  
متمايزة .

وبعد ذلك ، فأننى لما فكرت في شكوكي ، وأن مؤدى هذا أن  
ذاتى لم تكن تامة الكمال ، لأننى تبين أن المعرفة كمال أكبر من  
الشك ، رأيت أن أبحث أنى تعلمت أن أفكر في شيء أكمل منى ؛  
وعرفت يقيناً أن ذلك يجب أن يكون ذا طبيعة هي في الواقع  
أكمل (١) . أما ما كان عندى من تفكيرات في أشياء كثيرة (٣٤)  
أخرى خارجة عنى مثل السماء ، والارض ، والضوء ، والحرارة ،  
وألف شيء آخر ، فلم أتعجب كثيراً في معرفة من أين جاءت ، ذلك  
لأننى إذ لم ألاحظ فيها شيئاً يجعلها في نظرى أسمى مرتبة منى ،  
استطعت أن أعتقد أنها ، إذا كانت حقيقية (٢) فإنها من توابع  
طبيعتى ، من جهة أن طبيعتى لها شيء من الكمال ، وأن هذه الأشياء  
أن لم تكن كذلك ، فأننى أكون استمددتها من العدم ، أى أنها  
كانت حاصلة عندى من جهة ما فى من نقص . ولكن الأمر لا يمكن  
أن يكون على هذا النحو فيما يختص بفكرة وجود أكمل من وجودى ؛  
لأن استمداد تلك الفكرة من العدم ، أمر جلى الاستحالة ؛ لأن  
التناقض الواقع فى أن الاكمل يكون لاحقاً وتابعا لما هو أقل كمالاً ،  
ليس أقل من التناقض الواقع فى أنه يحدث شيء ما من العدم ، إذن  
فأنا لأقدر أيضاً على أن استمد هذه الفكرة من نفسى (٣) . وعلى

---

(١) هذا نتيجة لمبدأ العلية الذى يقبله ديكارت وهو «لا يكون فى المعلول  
ما ليس فى العلة» الردود على الاعتراضات الثانية ١٢

(٢) يعنى بقوله حقيقة أن لها وجوداً فى الإعيان أى موجودة فى الخارج

(٣) تصبح الفكرة التى يبسطها ديكارت فى هذه الصفحة مفهومة وواضحة  
إذا فطنا الى مبدئين ديكارتيين أساسيين . الاول : أن ديكارت يبدأ دائماً لا من  
الشيء فى الخارج وإنما يبدأ من نفسه أى بمعرفته للشيء وتفكيره فيه أنى أفكر  
Cogito . والثانى : أن للشيء وجوداً عينياً ( أى فى الخارج بصرف النظر عن =

ذلك بقى أن تكون هذه الفكرة قد أُلقيت الى من طبيعة (١) هى فى الحقيقة أكثر منى كمالا ، بل ولها من نفسها كل الكمالات ، التى أستطيع أن أتصورها ، وإذا أردت التعبير بكلمة واحدة ، عن تلك الطبيعة فإن المراد بها الله ، وأضفت الى ذلك انه بما أننى قد عرفت بعض الكلمات التى ليس لى شىء منها ، فأننى لمست الكائن الوحيد الذى فى الوجود (وهنا ساستعمل بحرية ، ان كان يرضيكم هذا ، كلمات المدرسة) (٢) بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالا ، أنا تابع له ، ومن لدنه حصلت على كل ما هو لى (٣) ، لأننى لو كنت وحيدا ومستقلا عن كل ما هو (٣٥) غيرى بحيث كان لى من نفسى كل هذا القليل الذى أششارك (٤) الذات الكاملة فيه ، لكننى اذن أستطيع أن أحصل من نفسى للسبب عينه على كل ماهو فوق ذلك مما أعرفه ينقصنى (٥) ، وبذلك أكون

---

= الوجود فى الدهن ) بقدر ماله من الكمال . ويجب وصل هذين المبدأين بقانون العملية الذى يعبر عنه بقوله : ان علة الوجود لى لاشىء موجود بالفعل أو لى كمال لىء موجود بالفعل لا يمكن ان تكون لاشىء أو تكون شيئا غير موجود» البديهية الثالثة من ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢

(١) فى النص اللاتينى « بواسطة كائن طبيعته كانت الخ » .

(٢) يقصد بقوله كلمات المدرسة اصطلاحات علماء العصور الوسطى التى لم تكن قد هضمتها اللغة الفرنسية بعد ( انظر جليسون التعليق ٤ ص ٣٣٢ )

(٣) فى النص اللاتينى « كل ماكان فى » .

(٤) أى القليل من الكمال الذى ليس ذاتيا للإنسان (أى ليس جزءا من ماهيته ) ولكنه حاصل على جزء منه فهو يشترك الله فى ذلك لان الله حاصل على كل الكمال .

(٥) يريد أن يقول انه ليس علة لما له من القليل من الكمال .



أنا نفسى غير مثناه (١) ، وأزليا أبديا (٢) ، وغير متغير (٣) ،  
وعالما بكل شيء ، وقادرا على كل شيء وقصارى القول أن تكون لى  
كل الكمالات التى أستمطيع أن ألحظ أنها لله (٤) لأنه تبعاً  
للاستدلالات التى أوردتها (٥) ، فلكى أعرف طبيعة الله ، على قدر  
ما تستطيع طبيعتى ، فانه لم يكن على الا أن أتأمل فى كل الأشياء  
التى وجدت لها فى نفسى صورة ذهنية هل فى امتلاكها كمال أم غير  
كمال وقد أبقت أن شيئاً مما يفيد النقص منها ليس لله ، ولكن كل  
ما عدا ذلك ثابت له . وكذلك رأيت أن الشك، والتقلب، والحزن،  
وما شابهها من الأمور ، لم تكن لتكون فيه ، إذ أننى أنا نفسى كنت

(١) يعتبر ديكارت هذا الاصطلاح موجبا أى أنه ليس سلبا متناه بل يقول  
ان «متناه» هى سلب «غير متناه» وفى ذلك يقول (لاستعمل البتة كلمة غير متناه  
للدلالة فقط على ما ليس له نهاية ، وهذا ما يكون سالبا وقد أطلقت عليه كلمة  
غير محدد Indéfini ، ولكن للدلالة على شيء حقيقى ، أعظم ، بدون موازنة.  
من كل الأشياء التى لها نهاية ما ، من كتاب له الى بعض أصدقائه مقتبس فى  
معجم الفلسفة ١١ للاستاذ لالاند فى مقالة غير متناه Infini وفى التاملات  
الثالثة ١٢ يقول انه لا يستعمل كلمة غير متناه سلبا لكلمة متناه كما يستعمل كلمة  
السكون لنفى كلمة الحركة والظلام لنفى النور لانه يوجد فى الجوهر الغير المتناهى  
من الحقيقة أكثر مما يوجد فى الجوهر المتناهى ولان فكرة الغير المتناهى سابقة  
عنده لفكرة المتناهى اذ كيف يمكن ان يعرف أنه غير تامل مالم يكن قد فكر من  
قبل فى ذات اكمل من ذاته عرف بمقارنتها عيوب طبيعته .

(٢) أزلى أى لا يقدر العقل على تصور بداية له وأبدى أى لا يقدر على تصور  
نهاية له والكلمة الفرنسية éternel تفيد معنى الكلمتين أى ليس له مبدأ فى  
أوله كالتقدم ولا انتهاء له فى آخره كالبقاء وهذه صفة ينفرد بها الله لانه لا يقتصر  
فى وجوده الى موجود آخر فوجوده ليس له ابتداء ولن يكون له انتهاء .

(٣) لان الحركة والتغير لا يكونان للذات الحاصلة على كل الكمالات .

(٤) عرف ديكارت الله بقوله «أعنى بالله جوهر غير متناه ، أزليا أبديا ،  
غير متغير ، مستقلا ، عالما بكل شيء ، قادرا على كل شيء ، وهو الذى خلقنى  
وخلق سائر الأشياء الأخرى (اذا كان يوجد منها حقيقة شيء ما)» .

(٥) أى الخاصة باثبات وجود الله

أرتاح لأن أكون خالصا منها . ثم انه عدا ذلك ، فلقد كانت لى أفكار عن أشياء كثيرة حسية وجسمية ، لأنه مهما فرضت أننى كنت فى حلم ، وأن كل ما شاهدت أو تخيلت كان باطلا فأننى لا أقدر على كل حال أن أنكر ان هذه الأفكار كانت على الحقيقة فى ذهنى ، ولكن لما كنت عرفت بوضوح كثير فيما مضى فى نفسى أن الطبيعة العاقلة متميزة عن الجسمية ، وذلك باعتبارى أن كل مركب يدل على تبعية (١) ، وان التبعية نقص بلا شك ، فأننى حكمت من هذا أنه لم يكن كمالا فى الله أن يكون مركبا من هاتين الطبيعتين (٢) ، وعلى ذلك فهو لم يكن مركبا ، ولكن اذا كان فى العالم بعض الأجسام ، أو بعض العقول (٣) ، أو طبائع أخرى ، لم تكن تامة الكمال ، فان وجودها كان واجبا أن يعتمد على قدرته ، بحيث (٣٦) أنها جميعا لم تكن لتقدر على أن تقوم بدونه لحظة واحدة (٤) .

(١) «لان أجزاء المركب يعتمد بعضها على البعض الآخر وان الكل نفسه يعتمد على الاجزاء التى تكونه» جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٩ .  
(٢) أى العاقلة والجسمية .

(٣) «أى ملائكة أو انسان» جلسون فى المكان المذكور .

(٤) يقول ديكارت بنظرية الخلق المستمر فهو يرى أن حفظ الله للكائنات هو خلق وهذا راجع الى أنه يرى أن لحظات الزمن مستقل بعضها عن البعض الآخر فليس ينتج بالضرورة من وجودى الآن وجودى فى اللحظة التالية مالم يشأ الله ذلك واذا فالحفظ والخلق عنده شيء واحد . انظر هملان مذهب ديكارت ٣ ص ١٩٣ و ٣٠٧ . وسنعود للكلام عن هذه النظرية فى التعليق على القسم الخاص .

ولقد بسط ديكارت حتى الآن دليلين لاثبات وجود الله فالاول يمكن ايجازه فى القول بأنه استنبط من شكه أنه غير كامل اذ أن المعرفة أولى بالكمال من الشك ولكنه ماكان ليعرف أنه غير كامل لو لم تكن لديه فكرة الكمال واذا فلا بد من سبب لحضور تلك الفكرة فى ذهنه اذ أنه لاينتج شيء من لاشئ ويجب أن يحتوى هذا السبب على كمال وحقيقة أكثر مما فى السبب عنه . وهذا السبب ليس هو نفسه لانه ليس كاملا كما أنه ليس العالم الخارجى لانه لم يثبت بعد حقيقة وجوده =

أردت بعد ذلك أن أبحث عن حقائق أخرى ، ولما كنت قد اخترت موضوع أصحاب الهندسة ، الذى كنت أتصوره جسما متصلا ، أو حيزا لا يتناهى امتداده فى الطول والعرض والارتفاع أو العمق ، قابلا للانقسام الى أجزاء مختلفة ، يمكن أن تتخذ أشكالا وأحجاما مختلفة ، وأن تحرك أو تنقل على جميع الوجوه ، لأن أصحاب الهندسة يفرضون ذلك كله فى موضوع علمهم ، فانى تصفحت بعض ما يستعينون به من أبسط براهينهم اذ لاحظت أن ما يعزوه اليها الناس من أنها جد يقينية، انما يقوم على أنها تتصور بجلاء ، تبعضا للقاعدة التى ذكرتها غير بعيد (١) ، فانى لاحظت أيضا أنه لاشئ فيها البتة يجعلنى على ثقة من وجود موضوعها (٢) ، فانى مثلا أرى أنه اذا فرضت مثلثا ، لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن ليس فى هذا ما يجعلنى أستيقن أن فى العالم مثلثا ، ذلك على حين أننى عندما عدت الى امتحان ما

= ولانه حادث ولايستطيع أن يقوم بنفسه، واذن فهو ليس بكامل واذن فليس السبب الا ذاتا لها كل الكمالات وهذه هى ذات الله . وأما الدليل لالثانى وهو متصل بالاول فم تلخص فى القول بأنه عرف أنه موجود وأنه غير كامل ولكنه يمتلك فيذهنه فكرة الكمال وقد عرف أيضا أنه ليس علة وجود نفسه لانه اذا كان هو العلة لوجود نفسه كان ممكنا أن يكون أكثر كمالا مما هو لان الارادة تنزع دائما للخير الاعظم فيجب اذن أن تكون العلة لوجوده ذاتا لها كل الكمالات وهذه هى الله ، والاستاذ فيشر يسمى هذا الدليل بالدليل الانسانى Anthropologische Beweis ويراه أساسا للدليلين الآخرين أى الدليل الاول ويسميه بالدليل التجريبي Empirische والدليل الوجودى الذى سيتكلم عنه ديكارت عن قريب ويرى كذلك أنه «هو الدليل الديكارتى الحق لاثبات وجود الله» . انظر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ٣١٥ وما بعدها .

(١) أى «ان الاشياء التى نتصورها بجلاء وتمايز كثيرين هى جميعا حقيقة» .

(٢) أى «الجسم المتصل المتحرك الذى هو موضوع البراهين الهندسية» جلسون التعليق ٤ ص ٣٤٧ .

عندى من الصورة الذهنية لموجود كامل ، ألفت أن الوجود كان داخلا فيها على الوجه الذى يدخل به فى الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه. الثلاث مساوية لقائمتين ، أو كما يدخل فى الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن مركزها بل وهو أكثر من هذين وضوحا ، وينتج عن ذلك أن كون الله ، الذى هو هذا الموجود الكامل ، موجودا هو على الأقل مساو فى اليقين لخير ما يمكن أن يكون برهانا هندسيا (١) .

(١) أطلق كانت على هذا الدليل اسم الدليل الوجودى *Ontologische Beweis* فأصبح بعد ذلك معروفا بهذا الاسم (أنظر نقد العقل الخالص *Kritik der reinen Vernunft* الكلام فى استحالة دليل وجودى على وجود الله ص ٥٩٢ وما بعدها من الطبعة الاولى سنة ١٧٨١ وص ٦٢٠ وما بعدها من الطبعة الثانية سنة ١٧٨٧) وجملة هذا الدليل أن الله كامل اذن فهو موجود لان الكمال يتضمن الوجود كما يتضمن مفهوم المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزائتين قائمتين . واعترض جاسندى على ديكارت بأن الوجود ليس كملا . وأصل الاختلاف بينه وبين ديكارت أن ديكارت يبدأ كما نعرف من التفكير لاثبات الوجود أنا أفكر *Cogito* أى أن الوجود الخارجى عنده تابع للماهية أما عند جاسندى فالماهية متزعة من الوجود العيى ، ويقول ديكارت أنه يستحيل أن نتصور شيئا له كل الكمالات وليس له وجود اذ أن التناقض ظاهر فى ذلك . (راجع التأملات السادسة ١٢) على أن نقد كانت أقوى من نقد جاسندى فهو يقول «من البين أن الوجود ليس محمولا حقيقيا ، أى ليس تصورا لشيء ما يمكن إضافته الى تصور لشيء *Ein Begriff von irgend etwas, was zu dem Begriffe eines Dinges hinzokommen Konne* الكتاب المذكور ص ٥٩٨ من الطبعة الاولى و ٦٢٦ من الطبعة الثانية ويفسر ذلك بأن الوجود هو مجرد الرابطة فى الحكم أى مايربط المحمول بالموضوع فتقولك الله هو قادر على كل شيء قضية تشتمل على تصورين الاول الله والثانى قادر على كل شيء أما كلمة هو (وفى اللغات الاوربية يستعمل فعل الكينونة فهو فى هذا المثال *ist* أى يكون ولما لم يكن فى العربية هذا الاستعمال قلنا هو للدلالة على الحكم بدلا من الفعل يكون *ist* ) فليست محمولا وانما هى تقيم العلاقة بين المحمول والموضوع . وعلى ذلك فهو يقول . ان القائتين باثبات وجود الله ، اعتمادا على تصورنا له ، هم بين أن يقعوا فى التناقض المنطقى =

(٣٧) ولكن السبب في أن الكثيرين يعتقدون بالصعوبة في معرفة ذلك ، بل في معرفة ما هي أنفسهم أيضا ، هو أنهم لا يرفعون عقولهم قط الى مافوق الأشياء المحسوسة ، وأنهم تعودوا ألا يعتبروا شيئا من الأشياء الا اذا تخيلوه (١) وهذه طريقة في التفكير خاصة بالأشياء المادية ، حتى ان كل مالا يمكن تخيله يبدو لهم غير قابل لأن يفهم . وهذا بين من أن الفلاسفة (٢) أنفسهم يتخذون شعارا

---

= أو الدور . ذلك بأن تصور الله ، الذي هو موضوع القضية ، ان كل متضمنا للوجود ، فلا استدلال به على الوجود استدلال على الشيء بنفسه وهو الدور ، وان كان تصور الله خلوا من الوجود ، فالوجود اذن في المحمول فيكون أحد طرفي القضية المتساوية الطرفين متضمنا للوجود والطرف الآخر خلوا منه والحكم على هذا النحو تناقض في المنطق .

ولكن هذا النقد انما يتوجه به على غير ديكارت (لان الدليل الوجودي كان معروفا قبل ديكارت) لان موضع هذا البرهان من مذهب ديكارت يحويه لان مبدا تحقق الاشياء عند ديكارت هو في العقل ، ولا معرفة يقينية عنده الا مذهب من العقل الى الحس . ثم ان الوجود يصح أن يكون محمولا لانه ليس مستمدا من التجربة والحواس بل هو مستمد من العقل ، وهو يرى أنه «حينما نقول ان لازما تحتوي عليه طبيعة أى شيء أو تصوره ، فهذا كما لو نقول انه حقيقى لذلك الشيء أو ممكن اتبانه له » **الدود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف التاسع**

ودفع تهمة وقوعه في الدور بقوله « . . اننى لم أقع في الخطأ الذى يسميه المناطق بالمصادرة على المطلوب ، فان اعتبار الوجود من لوازم ماهية الله لا يزيد على اعتبار مساواة زوايا المثلث الثلاث مساوية لقائمتين » . من كتاب له اقتبس هملان في مذهب ديكرت ص ٢١٣ . راجع للدفاع عن ديكارت ضد كانت وجاسندى هملان الكتاب المذكور ص ٢١٢ ومابعدا وجلسون التعليق ٤ ص ٣٤٧ ومابعدا وبرنشفيك الرياضات ومابعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ ٣٠٨ ومابعدا

(١) انظر التعليق على كلمة الخيال في القسم الخامس .

(٢) يقصد فلاسفة العصور الوسطى

لهم في المدارس أنه لا شيء في العقل لم يكن أولا في الحس (١) ، ومع ذلك فانه ليقينى أن الصورتين الذهنتين لله والنفس (الناطقية) لم تكونا قط في الحس . ويبدو لى أن الذين يريدون أن يستعينوا على فهمها بخيالهم ، يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الأصوات ، أو شم الروائح . الا أن هناك هذا الاختلاف ، وهو أن حاسة البصر لا تؤكد لنا تحقق الأمور التي يختص بإدراكها ، أقل مما تفعل حواس الشم والسمع ، في حين أنه لا يستطيع خيالنا ولا حواسنا أن تجعلنا نتأكد من شيء ، اذا لم يتوسط عقلنا في ذلك .

وأخيرا ، اذا كان هناك بعض من الناس من لم يقتنعوا اقتناعا كافيا بوجود الله ووجود أنفسهم ، بالحجج التي أوردتها ، فاني أريد أن يعرفوا أن كل الأشياء الأخرى التي يرون أنهم أكثر وثوقا بها ، وذلك مثل أن يكون للمرء جسم ، وأن توجد الكواكب والأرض ، وما شابهها من الأمور ، هي أقل ثبوتا ، لأنه مع أن للمرء ( - كما يقول الفلاسفة - ) ثقة أخلاقية (٢) بهذه الأشياء ، التي يبدو معها أن المرء لا يقدر على الشك فيها الا اذا كان مسرفا (٣٨) ،

(١) اشارة الى الكلمة المشهورة في المصور الوسطى «لا شيء في العقل لم يكن أولا في الحس» Nihil est in intellectu quod prius non fuerit in sensu وكان هذا المذهب معروفا عند العرب ومن أنصاره أبو حامد الغزالي الذي يعبر عنه بقوله «لا يحل في العقل إلا ما يحل في الحس» تهافت الفسفة طبعة القاهرة ١٣٢١ ص ٧٨ ويقول الاستاذ فورلاني Furlani ان هذه الكلمة انتقلت الى أوروبا عن طريق العرب . انظر مقالاته المذكورة سابقا ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر إذن فأنا موجود في مجلة islamica المجلد الثالث الكراسة الاولى ص ٦٨ .

(٢) يفسر ديكارت ذلك بقوله « . . سوف أميز هنا بين نوعين من اليقين الاول يسمى أخلاقيا ، أى كافيا لتدبير شئوننا الخلقية ، أو هو مثل يقيننا بالاشياء التي تمس السلوك في الحياة التي لم نعتد قط . ان نشك فيها ، مع أننا نعرف انه قد يجوز أن تكون باطلة على الاطلاق . وهكذا فان الذين لم =

ومع ذلك أيضا ، فعندما يكون المرء بصدد يقين ميتافيزيقي (١) ، فانه لا يقدر ، الا اذا كان محروما من العقل ، على انكار أنه يكفي علة لنفي كمال اليقين ، أن يلاحظ أنه من المستطاع على هذا الوجه أن يتخيل النائم ، أن له جسما آخر ، وأنه يبصر كواكب أخرى ، وأرضا أخرى ، دون أن يكون من ذلك شيء . لأنه من أين للمرء أن يعرف أن الفكر التي ترد اليه في الحلم هي أقرب الى البطلان من الفكر الأخرى ، مع أنها في أكثر الأحيان ليست أقل قوة ووضوحا ، ومع أن خيرة العقلاء يبحثون فيها ما شاءوا ثم لا يستطيعون - فيما أعتقد - أن يقيموا حجة واحدة كافية لنزع هذا الشك ، ما لم يفرضوا قبلا وجود الله . أولا : لأن هذا الذي قرره ، هو الذي اتخذته غير بعيد قاعدة ، أي أن الأشياء التي نتصورها جد واضحة وجد متميزة هي جميعا حقيقة ؛ هذا الذي جعلته أولا قاعدة ليس ثابتا الا لأن الله كائن أو موجود وأنه ذات كاملة ؛ وأن كل ما فينا يصدر عنه (٢) .

ويتبع ذلك أن صورنا الذهنية ومعارفنا لما كانت موجودات

---

= يذهبوا البتة الى رومة لايشكون في أنها مدينة في ايطاليا ، مع انه يجوز ان كل الذين عرفوهم بها ربما خدموهم . وأما اليقين الثاني فهو عندما نرى انه يستحيل أن يكون الشيء غير ما نحكم به « من مبادئ الفلسفة اقتبسها جليسون في تعليقه ٤ ص ٣٥٨

(١) هذا هو النوع الثاني من اليقين الذي تكلم عنه في النص الذي اقتبسناه من مبادئ الفلسفة

(٢) هذا ما يسمى بالسند الالهى لصحة الحقائق التي نتصورها بتمايز وجلاء فان الله لما كان له كل الكمالات يستحيل عليه أن يخدمنا ( انظر المقدمة )

خارجية (١) صادرة عن الله فهي بما هي به واضحة متميزة ، لا يمكن أن تكون الا حقيقة بحيث أنه ، اذا كان كثيرا ما يكون في تلك الصور الذهنية أو المعارف ما يحتوى على بطلان ، فذلك لا يمكن أن يكون الا في ما كان منها محتويا على شىءذى عموض وابهام، فانها في هذا تشارك العدم، أعنى أنها ليست فينا بهذه المشاية من الغموض الا لأن كمالنا ليس تاما من كل وجهه . وظاهر أن التناقض في أن البطلان أو النقص يصدر عن الله ، بهذا الاعتبار ، ليس اقل (٣٩) من التناقض في أن الحقيقة أو الكمال يصدر عن العدم . ولكن اذا لم نعرف أن كل ما فينا من واقعي وحقيقي ، يأتي من ذات كاملة وغير متناهية ، فمهما كانت صورنا الذهنية من الوضوح

---

(١) ترجمنا في هذا القسم كلمة idée بكلمة صورة ذهنية لتمييز معناها عند ديكارت عن معنى كلمة صورة لأن الصورة من ادراكات الخيال وهى مالا بد لوجوده من مادة أو جسم بينما يقصد ديكارت بالصورة الذهنية ما يتضح من قوله « أهنى بكلمة الصورة الذهنية مثال الشىء الذى بحضوره في نفس المدرك يعرف الشىء ، بحيث لا أستطيع أن أعبر عن أمر من الأمور بالألفاظ ، عندما أهم ما أقول ، الا كنت بنفس التعبير مثبتا أن الأمر الذى تعبر عنه الألفاظ متمثل في نفسي . وهكذا فأنا لا أدعو الصور الحسية المنقوشة في الخيال باسم الصور الذهنية ، بل بالعكس فأنا لا أدعوها قط بهذا الاسم مادامت في الخيال أى مادامت منطبعة في بعض اجزاء المخ ، ولكننى أدعوها بذلك حينما تحصل علما للجانب العقلى الذى يعنى بهذا الجزء من المخ « الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الثانى

ومما يجب الانتباه اليه أن للصورة الذهنية عند ديكارت وجودا حقيقيا ويسمىها أحيانا موجودات ذهنية *res cogitata* . والصورة الذهنية حقيقية الوجود من وجهين الأول باعتبارها كيفية للجوهر الفكر ، والثانى لأنها مثال لحقيقة خارجية ( انظر التعريف الثالث الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ وانظر جلسون في التعليق ٤ ص ٣١٨ - ٣٢١ )



والتمايز ، فلن يكون لنا أى دليل يجعلنا نستيقن أنه كان لها كمال كونها حقيقية (١) .

ولكن بعد أن جعلتنا معرفة الله والنفس على ثقة من تلك القاعدة (٢) ، فمن السهل أن نعرف أن الأحلام التي نتخيلها أثناء النوم ، لا ينبغي في شيء أن تجعلنا نشك في صحة الفكر التي تحصل لنا ونحن في اليقظة . لأنه إذا حدث ، حتى أثناء النوم ، أن وردت على المرء صورة ذهنية متميزة جدا ، كان يهتدى أحد أصحاب علم الهندسة الى برهان جديد ، فلا يمنع نومه أن يكون برهانه صحيحا . أما فيما يختص بالخطأ الأكثر وفوعا في أحلامنا، وهو ينحصر في أن الأحلام تصور لنا أمورا مختلفة كما تفعل حواسنا الظاهرة ، فليس مهما أن يكون ذلك الخطأ سببا في الارتباك في صحة مثل هذه الصور (٣) (التي نتلقاها أو نستطيع تلقيها من الحواس) ، وذلك لأنها تقدر أيضا على خداعنا في أحيان كثيرة ؛ دون أن نكون في النوم : ومثال ذلك أن الذين يصابون بمرض اليرقان ، يبصرون كل شيء أصفر اللون ، وكذلك فإن الكواكب والأجرام الأخرى النائية جدا تظهر لنا أصغر بكثير مما هي . ثم انه سواء كنا في يقظة أو كنا في نوم، لا يلزمنا أن نفتنع بأمر ما لا يبين عقلا . ويجدر بالملاحظة أنني أقول عقلا، ولا (٤٠)

---

(١) يعتمد في ذلك على القول بأن الحقيقة تنحصر في الوجود والبطلان ينحصر في عدم الوجود ، واذن فاذا كانت هناك فكرة باطلة فذلك لانها غير موجودة

(٢) أى « ان كل ما نتصوره بوضوح وتميز هو حقيقى »

(٣) في النص الفرنسي كلمة *idées* ونرى أنها ترجع هنا بالصور لانه يتحدث عن الحواس كما أنه حددها بالجملة التي وردت في النص اللاتينى زائدة على النص الفرنسي

أقول قط خيالنا أو حواسنا (١) . وكذلك فمع اننا نرى الشمس واضحة جدا ، فانه لا يلزمنا من أجل هذا أن نحكم بأنها ليست من الحجم الا كما نراها ، ونحن نستطيع أن نتخيل في تمايز رأس أسد مركبا على جسم عنزدون أن يلزمنا أن نستنتج من هذا ، أن في العالم هذا الحيوان الخرافى : لأن العقل لا يملئ علينا أن مانراه أو نتخيله كذلك هو حقيقى . ولكنه يملئ علينا أن كل ما يحصل عندنا من صور ذهنية ومعارف يجب أن يكون لها أساس من الحقيقة ، لأن الله الذى هو تام فى كماله وفى ثبوته لم يكن ليضعها فينا لولا ذلك . ولأن استدلالنا أثناء النوم لا تكون قط من اليقين والكمال بمثل حالتها فى اليقظة ، وان كانت خيالاتنا تكون أحيانا اذ ذاك فى نفس القوة والوضوح ، أو أشد فان العقل يملئ علينا أيضا أن فكرنا لما لم يكن ممكنا أن تكون جميعا حقيقية، لأننا لسنا على كمال مطلق ، فان ما فيها من حقيقة أولى أن يكون حتما فى الفكر التى تحصل عندنا ، ونحن فى اليقظة لا فى أحلامنا .

---

(١) انظر التعليق على كلمة الخيال فى القسم الخامس

## القسم الخامس

قد أرتاح لأن أستمّر هنا في تبين سلسلة الحقائق الأخرى التي استنبطتها من هذه الأولى . ولكن لما كان تحقيق هذا الغرض ، يحتاج الى أن أتكلّم الآن في مسائل كثيرة هي موضع اختلاف بين العلماء (١) الذين لا أريد أن أحشر نفسي في جمعهم ، فاني أعتقد أن الأفضل أن أكف عن ذلك الكلام ، وإن أقتصر على القول على العموم ماهي تلك الحقائق ، كي أفسح المجال لمن هم أكثر حكمة حتى يقرروا ان كان من المفيد أن يعرف عنها الجمهور (٢) شيئا (٤١) أكثر تفصيلا ظللت دائما مصمما على العزم الذي اعترمته ، ألا أفرض مبدءا آخر غير الذي أخذت به غير بعيد في الاستدلال على وجود الله والنفس ، وألا أقبل شيئا على أنه حق ، ما لم يظهر لي أنه أكثر وضوحا وتوكدا من براهين أصحاب الهندسة من قبل . وعلى كل حال فاني أجروا على القول ، بأنه ليس الذي وجدته هو مجرد سبيل يسد حاجتي في قليل من الزمن ، في كل أصول العضلات التي تعالج عادة في الفلسفة (٣) ، ولكنني لاحظت أيضا

---

(١) يقصد بالعلماء علماء العصور الوسطى . أما المسائل التي لا يريد أن يحشر نفسه في زمرة العلماء الذين يتجادلون فيها فهي تختص بالطبيعة وخصوصا مسألة حركة الأرض (راجع هملان مذهب ديكرت ٢ ص ٢٦)

(٢) في النص اللاتيني « جمهور المتأدين »

(٣) أي في الطبيعيات المعروفة في العصور الوسطى جلسون التعليق ٤ ص

بعض القوانين ، التى أقامها الله فى الطبيعة ، والتى طبع فى نفوسنا معارفها (١) ، بحيث انه بعد التفكير فيها تفكيراً كافياً ، لا نقدر على الشك فى أنها روعيت بدقة فى كل ما هو موجود ، أو كل ما يحدث فى العالم . وبعد ذلك فبالفكر فى تسلسل تلك القوانين بدا لى أننى استكشفت حقائق كثيرة أنفع وأهم من كل ما تعلمته من قبل ، بل ومن كل ما أملت أن أتعلمه .

ولما كنت قد اجتهدت فى شرح أصول تلك الحقائق فى رسالة منعتنى بعض الاعتبارات عن اذاعتها (٢) ، فأننى لا أقدر على التعريف بها أكثر من أن أذكر هنا بإيجاز ما تحويه هذه الرسالة . وكان غرضى أن أضمنها كل ما كنت أرى أننى أعرفه قبل كتابتها ، مما يتصل بطبيعة الأشياء المادية . ولكن كما أن المصورين لما كانوا لا يقدرّون على أن يمثلوا بالتساوى على لوح ذى سطح واحد كل الوجوه المختلفة للجسم صلب ، فانهم يختارون أحد الوجوه الرئيسية يضعونه وحده نحو الضوء ، ويظللون الوجوه الأخرى ، (٤٢) بحيث لا تظهر الا على مقدار ما يمكن رؤيتها عند النظر الى هذا الوجه ، كذلك لما كنت أخشى ألا أقدر على أن أضع فى مقالتي (٣) كل ما فى ذهنى ، فأننى عملت على أن أعرض فى هذه الرسالة عرضاً جـد مفصلاً ما كنت أتصوره من معنى الضوء ، ثم أزيد بهذه المناسبة شيئاً عن الشمس ، وعن الكواكب الثابتة ، لان الضوء كله يكاد يصدر عنها ، وعن السموات لانها هى التى تنقله ، وعن السيارات وذوات الأذنان وعن الأرض ، لانها هى التى تعمل فى

---

(١) أى انها موجودة فى نفوسنا بدون كسب أو تحصيل

(٢) يقصد كتابه العالم الذى سيتحدث عنه كثيراً فى هذا الفصل وكان

قد بدأ الكتابة فيه فى أواخر عام ١٦٢٩ ( انظر كتابه الى مرسن Mersenne

فى ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ فى الأعمال الكامد ج ١ ص ٨٤ )

(٣) يقصد أيضاً كتابه العالم

انعكاسه ، وخصوصا عن كل الاجرام التى فوق الأرض . لانها اما ملونة ، أو مشقة ، أو مضيئة ، وانتهى بالانسان لانه الناظر الى كل تلك الأشياء • بل ، ولكى أطلل كل هذه الأشياء قليلا ، ولكى أستطيع فى حرية أن أقول حكمى فيها دون أن أكون مرغما على اتباع الآراء المتداولة بين العلماء (١) أو نقضها ، فأننى اعتزمت أن أترك كل هذا العالم ، لمجاذلات هؤلاء العلماء ، وألا أتحدث الا عما يحصل فى عالم جديد ، لو أن الله خلق الآن فى جهة ما ، فى الامكنة الخيالية ، مادة كافية لتكوينه ، ولو أنه حرك حركة مختلفة ، وعلى غير نظام الأجزاء المختلفة لهذه المادة ، بحيث انه يكون منها خليطا (٢) هو من الاضطراب كما يستطيع أن يتوهم الشعراء ، ولا يفعل بعد ذلك شيئا الا أن يعير الطبيعة مدده العادى (٣) . وأن يدعها تعمل تبعا للقوانين التى أقامها • وكذلك ، فأنى أولا ، وصفت هذه المادة واجتهدت أن أمثلها على وجه الا يكون شيء فى العالم فيما أرى أكثر منها وضوحا ولا قبولاً للفهم منه ، حاشا الذى ذكر أنفا عن الله وعن النفس: ذلك بأننى فرضت أيضا عن قصد (٤٣) أنه ليس فى هذه المادة شيء من هذه الصور أو الصفات التى يتجادلون فيها فى مدارس العصور الوسطى ، وليس فيها على العموم شيء ليست معرفته طبيعية بالنسبة لعقولنا ، الى حد أنه لا يستطيع حتى ادعاء الجهل بها • فضلا عن ذلك ، بينت قوانين الطبيعة ، وبدون أن أوسس استدلالا على مبدأ كمالات الله

(١) أى فلاسفة العصور الوسطى وعلماؤ اللاهوت فيها

(٢) الكلمة الفرنسية هى Chaos والتعود بها المادة التى لا صورة لها

(٣) « معنى هذا فى لغة علم أصول الدين فى العصور الوسطى ، العمل الذى لا يفعل به الا غير حفظه للعالم بقوانينه ، حفظا مستقلا عن التدخلات الخارقة للعادة التى يفسر بها المجرى العادى للطبيعة » جليسون التعليق ٤

غير المتناهية ، فأننى حاولت أن أثبت بالبرهان كل القوانين التى  
أمكن أن يشك فيها بعض الشك ، وأن أبين أنها بحيث لو أن الله  
خلق عوالم كثيرة ، فلا يكون فيها واحد لا تراعى فيه تلك القوانين .  
وبعد ذلك ، بينت كيف أن أكبر جزء من مادة هذا الحليط ، كان  
ينبغى تبعا لتلك القوانين أن يننظم ويترتب على هيئة معينة تجعله  
مشابها لسمواتنا ، وبينت أيضا كيف أن بعض أجزائه كان ينبغى  
مع ذلك أن يؤلف أرضا ، وأن البعض الآخر كان ينبغى أن يؤلف  
سيارات وكواكب من ذوات الأذنان ، والبعض الآخر شمسا  
وكواكب ثابتة . وهنا توسعت فى موضوع الضوء ، ففسرت  
باطناب كثير ما هو ذلك الضوء الذى ينبغى أن يوجد فى الشمس  
وفى الكواكب ، وكيف اذا بدأ من هناك يخترق فى لحظة واحدة (١)  
ما للسموات من أمكنة شاسعة ، وكيف ينعكس من السيارات  
وذوات الأذنان على الأرض . وزدت على ذلك أشياء كثيرة ، تختص  
بالجوهر ، وبالأين (٢) وبالحرركات ، وبكل الصفات المختلفة لهذه  
السموات وهذه الكواكب ، بحيث رأيت ان فيما ذكرته كفاية  
للتعريف بأنه لا يشاهد فى سماوات هذا العالم وكواكبه شئ  
لا يلزمه ، أو لا يمكنه على الأقل أن يظهر مشابها كل المشابهة (٤٤)  
لسموات العالم الذى وصفته وكواكبه ، ثم انتقلت من ذلك الى  
قول مفصل عن الأرض : كيف أن كل أجزاء الأرض مع أننى فرضت  
فرضا صريحا أن الله لم يضع أى ثقل (٣) فى المادة التى تتركب  
منها ، تميل نحو المركز ميلا متعادلا ، وكيف أنه لما كانت الميساه  
والهواء فوق سطحها ، فإن وضع السماوات والكواكب ، لا سيما

- 
- (١) هنا يغفل ديكارت أن انتقال الضوء هو حركة تستغرق من الزمان  
بحسب المسافة التى يقطعها من المصدر الى نقطة الوصول  
(٢) أى حلول الجسم فى المكان  
(٣) يقصد أى جاذبية ( انظر جليسون التعليق ٤ ص ٣٨٨ )

وضع القمر ، كان ينبغي أن يسبب على سطح الأرض مدا وجزرا ، شبيهين في كل أحوالهما بالمد والجزر اللذين يلاحظان في بحارنا ، وعدا ذلك فانه يسبب مجرى معيناً من الماء ومن الهواء من الشرق الى الغرب على حد ما يلاحظ بين المدارين ، وكيف استطاعت الجبال والبحار ، وعيون الماء والانهار أن تتكون فيها بالطبيعة ، وأن تحصل فيها المعادن داخل المناجم ، وأن تنمو النباتات في المزارع ، وأن تتولد فيها على العموم كل الأجسام التي نسميها مخلوطة أو مركبة . ومن بين أشياء أخرى ، لما كنت لا أعرف بعد الكواكب شيئا في العالم ينتج الضوء الا النار ، اجتهدت أن أوضح تمام الوضوح كل ما يتصل بطبيعتها ، وكيف تحدث وكيف تتغذى ، وكيف لا يكون لها بعض الأحيان الا حرارة بدون ضوء ، وفي أحيان أخرى لا يكون لها الا ضوء بدون حرارة ، وكيف تقدر على أن تحدث ألوانا مختلفة في أجسام متباينة ، وتحدث صفات أخرى مختلفة ، وكيف تصهر بعض الأجسام ، وتجعل الأخرى صلبة ، وكيف تكاد تستهلك جميعها أو تحيلها الى رماد ودخان ، وأخيرا كيف تكون من هذا الرماد زجاجا بمجرد تأثيرها القوي . لأنه لما ظهرت لي أن احالة الرماد الى زجاج تستحق من الاعجاب فوق ما تستحقه استحالة أخرى تحدث في الطبيعة ، فقد كان لي ارتياح خاص الى وصفها .

ومع ذلك فاني لم ألد أن أستنبط من كل هذه الأشياء ، أن هذا العالم قد خلق على الوجه الذي فرضته ، فان الأرجح أن يكون الله قد صنعه منذ المبدأ على ما ينبغي أن يكون ولكنه من اليقيني ، وهذا رأى متداول بين علماء الدين على العموم ، أن العمل

الذى يحفظه به الآن هو نفس العمل الذى صنعه به (١) ، بحيث أنه لو لم يصوره فى المبدأ بغير صورة الخليط ، ما دام أنه حين أقام قوانين الطبيعة ، أولاها مدده لتعمل على مقتضى عادتها ، فإن المرء يستطيع أن يعتقد ، دون جحود بمعجزة الخلق (٢) انه بذلك فقط تستطيع كل الأشياء التى هى مادية محضة ، مع الزمن ، أن تصير الى ما نراها عليه الآن . وتصور طبيعتها ، حينما يشاهد تولدها شيئا فشيئا على هذا الوجه ، أيسر كثيرا من ألا تعتبر الا وهى كاملة الصنع .

وانتقلت ، من وصف الأجسام غير الحية والنباتات ، الى وصف الحيوانات وخصوصا الى وصف الانسان ولكن لما لم أكن حصلت علما عن الانسان كافيا للكلام عنه بنفس الأسلوب الذى تكلمت به عن غيره ، أى أن أثبت المعلولات بالعلل ، وأن أبين من أى العناصر ، وعلى أى هيئة ، وجب أن تحدثها الطبيعة فاننى

(١) هذا ما يسمى بنظرية الخلق المستمر ونحن نورد هنا ما يقوله فى الفقرة الواحدة والعشرين من الجزء الأول من المبادئ ٦ ليتبين كيف يبرهن ديكارت على هذه النظرية . « قال فى الكلام على أن مدة حياتنا تكفى وحدها لاثبات أن الله موجود » أنا لا اعتقد أنه يمكن للمرء أن يشك فى صحة هذا البرهان ، اذا انتبه الى طبيعة الزمان أو الى طبيعة مدة حياتنا ، لأنها بحيث أن أجزاءها لا يعتمد بعضها على البعض الآخر ولا توجد قط ، ولا يلزم من أننا موجودون الآن أن نكون موجودين فى لحظة تالية ، اذا لم تستمر بعض العلل، أى نفس العلة التى أحدثتنا ، فى أحداثنا ، أى اذا لم تستمر فى حفظنا . ونحن نعرف بسهولة انه ليس فىنا قوة نستطيع أن نقوم بها أو نحافظ بها على البقاء لحظه واحدة . . « انظر أيضا قوله فى ص ٦٣ والتعليقة رقم ٢ فى نفس الصفحة

(٢) « يعتبر الخلق معجزة باعتباره يحدث من العدم وجودا ، فهو اذن يفوق قوى كل مخلوق . واذن فهو عمل يختص به الله » جلسون التعليق ٤ ص ٣٩٢



قنعت. بأن أفرض أن الله قد خلق جسم انسان مشابها كل المشابهة (٤٦) لجسم من أجسامنا سواء كان فى السحنة الخارجية لجوارحه أو فى التناسق الداخلى لأعضائه ، وبدون أن يركبه من مادة غير التى وصفتها ، وبدون أن يضع فيه ، فى المبدأ ، أى نفس ناطقة ، ولا أى شئ آخر يكون فيه نفسا نباتية (١) أو حاسة، الا اذا هاج فى قلبه بعض هذه النيران التى ليس لها نور والتى وصفتها من قبل والتى لم أتصورها من طبيعة مغايرة للتى تسبب الحرارة فى الكلا الذى يخزن قبل أن يصبح يابسا أو تلك التى تخمر الأنبذة الجديدة حينما نتركها للاختمار عصيرا كدرا بدون بذور ، لاننى لما درست الوظائف التى يمكن تبعا لتلك الفروض أن توجد فى هذا الجسم ، وجدت فيها تماما كل الوظائف التى يمكن أن تكون فيها دون أن نفكر فيها ، وتبعا لذلك دون أن نشترك فى ذلك نفسنا ، أعنى الجزء المتميز عن الجسم وهى التى قيل عنها من قبل ان طبيعتها ليست الا أن تفكر ، وهذه الوظائف هى كل ما يمكن أن يقال ان

(١) «هى مبدأ استبقاء الشخص بالفداء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص ولتلك النفس قوة غاذية من شأنها أن تحيل جسما شبيها بجسم ما هى فيه بالقوة الى أن تكون شبيهة بالفعل لرد بدل ما يتحلل ، وقوة نامية وهى التى من شأنها أن تستعمل الغذاء فى اقطار المتغذى تزيدها عرضا وعمقا وطولا الى أن تبلغ به تمام النشوء على نسبة طبيعية ، وقوة مولدة تولد جزءا من الجسم الذى هى فيه يصلح أن يتكون عنه جسم آخر بالعدد مثله بالنوع » ابن سينا فى ذوات الأشياء الثابتة وذوات الأشياء غير الثابتة وهى فى الرسالة الاولى التى عنوانها عيون الحكمة من تسع رسائل فى الحكمة وكذلك يقول فى الرسالة الثالثة التى عنوانها فى القوى الانسانية وادراكاتها «ان قوى روح الانسان تنقسم الى قسمين : قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالادراك، والعمل ثلاثة أقسام : نشيء وانسانى وحيوانى .. العمل النشئ حفظ الشخص وتنميته بالفداء وحفظ النوع بالتوليد وقد سلبت عليهما احدى قوى روح الانسان وقوم يسمونها القوة النائية الخ » وراجع له ايضا النجاة القسم الثانى مطلع المقالة السادسة

الحيوان عديم النطق يشابهنا فيه . ولم أستطع من أجل هذا أن أجد بينها وظيفة من تلك التى باستقلالها عن الفكر تكون وحدها هى التى تخصنا باعتبارنا أناسى ، بينما وجدتها جميعا فيها بعد ذلك ، لما فرضت أن الله قد خلق نفسا ناطقة ، وأنه أضافها الى ذلك الجسم فى هيئة معينة وصفتها .

ولكن لكى يستطيع المرء أن يتبين كيف بحثت فى هذا الموضوع ، فانى أريد أن أورد هنا تفسير حركة القلب والشريانين ، التى لما كانت الأولى والأكثر عموما بين ما يشاهد المرء فى الحيوان ، (٤٧) فانه بذلك يحكم بسهولة بما ينبغى أن يراه فى الحركات الأخرى .

ولكى تقل الصعوبة فى فهم ما سأقوله فى هذا الموضوع ، فانى أريد من الذين لم يتعمقوا فى علم التشريح ، أن يجتهدوا قبل قراءة ذلك ، فى أن يشرح أمامهم قلب حيوان كبير له رئتان ، لانه يشبه من كل الوجوه قلب الانسان مشابهاة كافية ، وأن يبين لهم التجويفان الموجودان فيه : أولا التجويف الموجود فى جهته اليمنى ، والذي تتصل به أنبوبتان واسعتان جدا وهما الوريد الأجوف وهو المجتمع الرئيسى للدم ، وهو مثل ساق الشجرة وكل الأوردة الأخرى كأنها فروعها . ثم الوريد الشريانى (١) الذى سمي كذلك تسمية غير جيدة ، لانه فى الحقيقة شريان ، يبدأ من القلب ، ثم ينقسم بعد خروجه منه الى فروع كثيرة تنتشر فى كل مكان من الرئتين ، ثم التجويف الموجود فى جهة القلب اليسرى ، وتتصل به على ذلك الوجه أنبوبتان فى حجم السابقتين أو أكبر ، وهما الشريان

---

(١) أى الشريان الرئوى الذى ينقل دم الأوردة من التجويف الايمن الى الرئة ( جليسون : التعليق على المقال ص ٣٩٨ )

الوريدى (١) وقد سمي كذلك تسمية غير جيدة أيضا ، لأنه ليس لا وريدا ، يأتى من الرئتين ، حيث ينقسم الى فروع كثيرة ، تشتبك مع فروع الوريد الشريانى ، ومع فروع تلك الأنبوبة التى تسمى قصبة الرئة ، والتى يدخل خلالها هواء التنفس ، ثم الشريان الكبير (٢) ، الذى يخرج من القلب فيبعث بفروعه فى الجسم كله . وأريد أيضا أن يبين لهؤلاء بعناية الصمامات الصغيرة الاحدى عشرة ، التى كانها أبواب صغيرة كثيرة ، تفتح وتغلق الشغرات الأربع ، الموجودة فى هذين التجويفين : ثلاثة منها فى مدخل الوريد الأوجف ، موضوعة وضعا خاصا بحيث لا تقدر البتة على أن تمنع الدم الذى يحويه من أن ينسكب فى التجويف الأيمن للقلب ، ومع ذلك فهي تمنعه تماما من أن ينفذ الى الخارج ، وثلاثة فى مدخل الوريد الشريانى ، وهى موضوعة بعكس الأولى بحيث تسمح للدم الذى هو فى داخل هذا التجويف ، أن يمر الى الرئتين ، ولكنها لا تسمح للذى هو فى داخل الرئتين أن يعود الى التجويف ، وكذلك اثنان آخران فى مدخل الشريان الوريدى ، وهما يسمحان للدم أن يسيل من الرئتين الى تجويف القلب الأيسر ، ولكنهما يمنعان رجوعه ، وثلاثة فى مدخل الشريان الكبير ، وهى التى تبيح للدم أن يخرج من القلب ، ولكنها تمنعه من أن يعود اليه . ولا حاجة الى البحث عن علة أخرى لعدد هذه الصمامات ، غير أن فتحة الشريان الوريدى ، لما كانت على شكل اهليلجى (٣) بسبب

---

(١) قال حنين بن اسحاق العبادى « . وهذا العرق هو المعروف بالشريان الوريدى سمي بهذا الاسم لأن هيئته هيئة وريد وفعله فعل شريان » رسالة الفرق بين الروح والنفس نشرها الآباء اليسوعيون فى مجموعة مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب . ص ١٢٢

(٢) وتسميه العرب الأبهري

(٣) أى بيضوى

المكان الذى هى فيه ، فيمكن أن يحكم أغلاقها بصمامتين ، على حين أن الفتحات الأخرى لما كانت مستديرة أمكن اغلاقها بثلاثة على وجه أفضل . ثم اننى أريد أن ينبه هؤلاء الى ملاحظة أن نسيج الشريان الكبير والوريد ، لشريانى أصلب وأمتن بكثير من نسيج الشريان الوريدي ، والوريد الأجوف ، وأن هذين الأخيرين يتسعان قبـل أن يدخل القلب ، وفيه يكونان شبه كيسين ، يسميان باذيتى القلب ، وهما مكونتان من لحم يشبه لحم القلب ، وأن يلاحظوا أن الحرارة فى القلب أكثر منها فى أى مكان آخر من الجسم ، وأخيرا فانه اذا دخلت قطرة من الدم فى تجاويفه فان هذه الحرارة قادرة (٤٩) على أن تجعلها تتمدد بسرعة وتنسبط كما هو شأن السوائل كلها غالبا ، عندما ندعها تسقط قطرة قطرة فى وعاء شديد الحرارة .

لأننى بعد هذا ، غير محتاج الى أن أقول شيئا آخر لتفسير حركة القلب ، غير أنه عندما لا تكون تجاويفه مملأى بالدم ، فانه يسيل اليها بالضرورة من الوريد الأجوف فى التجويف الأيمن ، ومن الشريان الوريدي فى التجويف الأيسر ، مادام هذان الوعاءان مملوءين بالدم دائما وفتحاتهما التى تطل على القلب ، لا يمكنها اذ ذاك أن تكون مغلقة ، ولكن عندما تدخل كذلك قطرتان من الدم، كل واحدة فى أحد تجويفى القلب فان هذه القطرات ، التى لايمكن الا أن تكون كبيرة ، لان الشغرات التى تلج منها الى التجاويف واسعة جدا ، ولأن الأوعية التى ترد منها مملأى بالدم جدا ، تتخلخل (١) وتتمدد بسبب الحرارة التى تقابلها هناك ، والتى بواسطتها يتمدد

---

(١) التخلخل هو حركة الجسم من مقدار الى مقدار اكبر يلزمه ان يصير قوامه ارق مع وجود اتصاله راجع ابن سينا فى الحدود وهى الرابعة من تسع رسائل فى الحكمة وابن سينا يورد حدودا أخرى للتخلخل ولكن ديكارت يقصد الحد الذى اقتبسناه وهو مايتفق مع التعريف الحديث لتلك الظاهرة الطبيعية

القلب فتدفعان وتغلقان الأبواب الخمسة الصغيرة التي هي في مدخل الوعاءين ، والتي جاءت منها ، وبذلك يمنعان ان يصعد الى القلب أى مزيد من الدم ، وباستمرارهما فى التخلخل شيئا فشيئا ، تدفعان وتفتحان الأبواب الستة الأخرى التي هي في مدخل الوعاءين الآخرين والتي تخرجان منها ، وبهذه الطريقة تمددان كل فروع الوريد الشرياني والشريان الكبير مصاحبة للقلب فى نفس اللحظة تقريبا . الذى سرعان ما ينقبض بعد ذلك ، كما تفعل كذلك أيضا هذه الشرايين ، وذلك لان الدم الذى دخل فيها يبرد فى داخلها وتغلق أبوابها الستة ، وتفتح أبواب الوريد الأجوف واسريدين الوريدي الخمسة وتفسح الطريق لقطرتين أخريين من الدم ، تمددان (٥٠) القلب والشرايين من جديد كما فعلت السابقتان . ولما كان الدم الذى يدخل هذا القلب كما وصفت ، يمر بهذين الكيسين الذين يسميان بأذيتيه ، نشأ عن ذلك أن حركتهما تكون مخالفة لحركة القلب وانهما ينقبضان عندما ينبسط . ثم لكى لا يغامر هؤلاء الذين لا يعرفون قوة البراهين الرياضية ، ولم يتعودوا التمييز بين الحجج الحقيقية والشبيهة بها (١) نكران ماقلت دون امتحانه ، أريد أن أنبههم الى أن الحركة التي وصفتها تنبع حتما نفس وضع الأعضاء التي يستطيع المرء رؤيتها فى القلب بالعين والحرارة التي يقدر على الاحساس بها فيه بالأصابع ، وعن طبيعة الدم الذى يمكنه أن يعرفه بالتجربة ، كما تتبع حركة الساعة بالضرورة ، القوة ، والوضع ، والشكل التي هي لما فيها من لولب وعجل .

ولكن اذا سأل سائل كيف لا ينضب دم الأوردة ، وهو يصب دائما على هذا الوجه فى القلب ، وكيف لا تمتلئ به الشرايين امتلاء مفرطا ما دام كل الذى يمر بالقلب يصير اليه ، فأننى غير محتاج

---

(١) أى المحتملة أو الراجعة

الى أن أرد عليه بأكثر مما كتبه من قبل طبيب من انكلترا (١) ، يجب أن يشنى عليه لحله تلك المضلة ، ولكونه أول من قال بوجود مسارب صغيرة كثيرة فى نهايات الشرايين ، منها يدخل الدم الذى يصلها من القلب فى الفروع الصغيرة للأوردة ، ومنها يصير من (٥١) جديد الى القلب ، بحيث لا يكون جريانه الا دورة مستمرة . والذى يثبت هذا أفضل اثبات هو التجربة العادية للجراحين الذين اذا ربطوا الذراع برفق فوق المكان الذى يفتحون منه الوريد يجعلون الدم يخرج منه بأكثر غزارة مما لو لم يربطوه ويحصل العكس اذا ربطوه من أسفل ، بين اليد والفتحة ، أو اذا ربطوه من أعلى ربطة قوية جدا . لانه من الواضح أن الرباط المشدود برفق ، يمكنه أن يمنع الدم الموجود من قبل فى الذراع من أن يعود الى القلب بواسطة الأوردة ولا يمنعه من أجل هذا من أن يأتى منه من جديد بواسطة الشرايين ، لان وضعها تحت الأوردة ولان جلودها لما كانت أصلب ، فضغطها أقل سهولة ، وكذلك فان الدم الذى يرد من القلب ينزع الى أن يمر بها نحو اليد ، بقوة أكثر منها عند عودته من اليد الى القلب بطريق الأوردة . ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بواسطة الفتحة التى هى فى أحد الأوردة ، فيجب حتما أن تكون له بعض مسارب تحت الرباط ، أى فى اتجاه نهايات الذراع وبها يستطيع الدم أن يأتى من الشرايين . ويثبت هذا الطبيب أيضا اثباتا قويا ما يقوله عن جريان الدم ، بوجود صمامات صغيرة ، وهى موضوعة فى أماكن مختلفة على طول الأوردة ، بحيث لا تسمح للدم أن يمر بها من وسط الجسم الى النهايات ولكنها تسمح له بالعودة من النهايات الى القلب فقط . وأكثر من ذلك فهو

---

(١) كتب في هامش النص الفرنساوى هارفي حركة القلب بالالفة اللاتينية وهارفي المذكور هو طبيب انجليزى مشهور باستكشافه لدورة الدم وقد عاش من سنة ١٥٧٨ الى سنة ١٦٥٨

يثبت دعواه بالتجربة التى تبين أن كل الدم الموجود فى الجسم يستطيع أن يخرج منه فى قليل من الزمن بواسطة شريان واحد عندما يكون مقطوعا حتى ولو كان مربوطا بإحكام قريبا جدا من القلب ، وأن يكون مقطوعا فيما بين القلب والرباط على وجه لا يجعل محلا لتخيل أن الدم الذى يخرج منه يأتى من جهة أخرى (٥٢) غير القلب .

ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة تشهد بأن السبب الحقيقى فى حركة الدم هو ما قلته . مثلا ، أولا ، الفرق الذى نلاحظه بين الدم الذى يخرج من الأوردة والدم الذى يخرج من الشرايين ، لا يمكن أن ينتج الا من أن الدم يتخلخل ، وكأنه يصفى ، وهو مار بالقلب ، فهو ألطف وأكثر حياة وأقوى حرارة ، بعد خروجه منه مباشرة ، أى عند وجوده فى الشرايين ، منه قبيل أن يدخل القلب. أى عند وجوده فى الأوردة ، وإذا انتبه المرء الى ذلك ، فانه يجد أن هذا الفرق لا يظهر جيدا الا بالقرب من القلب ، ولا يظهر كذلك فى أبعد الأماكن عنه . ثم ان صلابة الجلد ، الذى يتركب منه الوريد الشريانى والشريان الكبير ، كافية فى اثبات أن الدم يدفعها بقوة أكثر مما يفعل مع الأوردة . ولماذا يكون تجويف القلب الأيسر والشريان الكبير أوسع وأكبر من التجويف الأيمن والوريد الشريانى؟ الا أن يكون السبب هو أنه لما لم يكن دم الشريان الوريدي ، موجودا فى غير الرئتين منذ مروره بالقلب ، فهو ألطف وأقوى تخلخلا وأسهل من ذلك الذى يأتى مباشرة من الوريد الأجوف . وماذا يستطيع الأطباء أن يستنبطوه ، عندما يجسسون النبض ، اذا لم يعرفوا أنه ، تبعا لتغير طبيعة الدم ، فانه يستطيع أن يتخلخل بواسطة حرارة القلب بقوة أقل أو أكثر ، وبسرعة أشد أو أضعف من ذى قبل ؟ وإذا بحث المرء عن كيفية سريان تلك الحرارة الى (٥٣) الأعضاء الأخرى، فهلا يجب الاعتراف بأن ذلك يكون بواسطة الدم الذى يمر بالقلب فتزداد حرارته فيه ، ومنه ينتشر الى كل أنحاء

الجسم ، ومن ثم فإن المرء اذا نزع الدم من بعض الأجزاء فانه بذلك ينزع منه الحرارة ، ولو كان القلب حارا كنار مستعرة لما كان كافيا في تدفئة الأقدام والأيدي هذه التدفئة مادام لا يبعث اليها بالدم من جديد باستمرار . ثم ان المرء يعرف من هذا أيضا أن الوظيفة الحقيقية للتنفس هي استحضار الكفاية من الهواء النقي في الرئة كى يمكن للدم الذى يأتى اليها من تجويف القلب الايمن حيث تخلخل واستحال الى شبه بخار ، أن يخثر ويستحيل ثانية الى دم قبل أن يسقط فى التجويف الأيسر ، وبدون هذا فهو لا يقدر على أن يكون صالحا لأن يكون غذاء للنار الموجودة فيه . ويؤيد هذا أن المرء يرى أن الحيوانات التى ليس لها رئات ليس لها أيضا الا تجويف واحد فى القلب ، وأن الأطفال الذين لا يستطيعون استعمالها وهم أجنة فى بطون أمهاتهم لهم فتحة منها يسيل الدم من الوريد الأجوف الى تجويف القلب الأيسر ، ومجرى فيه يأتى من الوريد الشريانى الى الشريان الكبير بدون أن يمر بالرئة . ثم انه كيف يحصل الهضيم فى المعدة ، اذا لم يرسل القلب اليها حرارة بواسطة الشرايين ومعها بعض من أشد أجزاء الدم سيلانا تعين على اذابة اللحوم التى وضعت فيها ؟ وكذلك أليس العمل الذى يحيل عصير تلك اللحوم الى دم سهل المعرفة ، اذا راعينا أنه يصفى عند مروره وتكرار مروره بالقلب مرات ربما كانت أزيد من مائة مرة أو مائتين فى كل يوم؟ وهل للمرء حاجة الى شئ آخر لتفسير تغذية السوائل (١) الموجودة فى الجسم وتوليدها ، غير القول بأن القوة (٥٤) التى بها يمر الدم عند تخلخله من القلب الى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف فى الأجزاء التى توجد فيها من الأعضاء وفيها تحل محل أخرى تطردها منها ، وأنه تبعا للوضع أو الشكل أو صغر المسام التى تصادفها فان بعض أجزاء الدم تسير الى بعض

---

(١) أى الريق والعرق والبول



الأماكن مختارة لها على البعض الآخر كما أن كل انسان يستطيع رؤية غرابيل مختلفة متفاوتة الحروق يستخدمها في فصل حبوب مختلفة بعضها عن بعض؛ وأخيرا فإن أكثر ما في كل ذلك استحقاقا للذكر هو تكوين الأرواح الحيوانية التي تشبه ريحا لطيفا جدا ، أو هي أشبه ما تكون بلهب جد نقي وجد مضى ، يصعد باستمرار وبغزارة من القلب الى المخ فينتقل منه بواسطة الأعصاب الى العضلات ، ويعطى الحركة لكل الأعضاء ، دون أن يلزم المرء أن يتخيل علة أخرى تجعل أجزاء الدم التي لما كانت هي الأكثر حركة ونفوذا ، فهي الأصلح لتكوين هذه الأرواح ، أن تتجه نحو المخ بدلا من أى اتجاه آخر ، الا أن تكون تلك العلة هي أن الشرايين التي تحملها هناك هي التي تأتي من القلب في خطوط أكثر ماتكون استقامة وأنه تبعاً لقواعد الميكانيكا التي هي نفس قواعد الطبيعة ، فإنه عندما تميل أشياء كثيرة مجتمعة الى التحرك نحو جهة واحدة مثل أجزاء الدم التي تخرج من تجويف القلب الأيسر مائلة الى جهة (٥٥) المخ ، فبما أنه لا يكون لتلك الجهة سعة للجميع ، فإن ما كان منها أضعف وأقل حركة ، ينبغي أن يدفع بواسطة الأقوى ، وبذلك تذهب هذه وحدها اليها .

شرحت كل هذه الأشياء بتفصيل واف في الرسالة التي أشرت آنفا الى عزمي على نشرها . وبينت فيها بعد ذلك ما ينبغي أن يكون عليه تكوين أعصاب الجسم الانساني وعضلاته، حتى تجعل الأرواح الحيوانية (١) التي هي داخل الجسم ذات قوة تحرك أعضاء: كما ترى الرؤوس على أثر قطعها لا تزال تتحرك وتعض الأرض مع

---

(١) « الروح الحيوانية هي للحيوان الناطق وغير الناطق وهي في القلب وتنبعث منه في الشرايين وهي الملقوق الضواري ، الى أعضاء البدن » الخوارزمي مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢

أنها لم تعد حية ، وبينت أيضا أى التغيرات تحصل فى المخ لتسبب اليقظة ، والنوم ، والأحلام ، وكيف يستطيع الضوء ، والأصوات ، والروائح ، والمطاعم ، والحرارة ، وسائر صفات الأشياء الخارجية ، أن تطبع فيه صورا مختلفة بتوسط الحواس وكيف يستطيع الجوع والظما وسائر الانفعالات الباطنة أن تبعث اليه أيضا بصورها ووضحت ما الذى ينبغى اعتباره الحس المشترك (١) الذى يقبل كل تلك الصور . وما المراد بالخيال (٢)

---

(١) فى العصور الوسطى كانت تقسم الحواس تبعا لتقسيم أرسطو الى ظاهرة وباطنة : اما الظاهرة فهى الحواس الخمس ، واما الباطنة فقد قصرها أرسطو على ثلاث وهى الحس المشترك والخيال والحافظة على أن علماء العرب توسعوا في فهم الخيال والحافظة فنتج عن ذلك تقسيم آخر للحواس الباطنة وهذا ما سنعرض له عن قريب . اما الحس المشترك فلقد كانوا يقولون وكذلك يقول ديكارت انها قوة مرتبة في تجويف معين فى الدماغ وهى التى تجتمع فيها كل الصور المدركة بالحواس الخمس . وقد كتب عنها ابن سينا فى الشفاء ص ٣٣٢ من طبعة طهران « أما الحس الذى هو المشترك فهو بالحقيقة غير مذهب اليه من بطن أن للمحسوسات المشتركة حسا مشتركا بل الحس المشترك هو القوة التى تتأدى اليها المحسوسات كلها فانه لو لم تكن قوة واحدة تدرك الملون والملموس لما كان لنا أن نميز بينها » وقال فى صفحة ٣٣٣ « فهذه القوة هى التى تسمى الحس المشترك وهى ركن الحواس ومنها تشعب الشعب واليها تودى الحواس » ويسمى الحس المشترك أيضا الحس العام .

(٢) استعمل ديكارت هنا كلمة Mémoire وهى فى هذا الموضع مترادف كلمة Imagination أى الخيال وهو القوة التى تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الصور وتستبقيه بعد غيبة المحسوسات فالخيال اذن خزانة الحس المشترك ، وهذا مايتفق فيه ديكارت مع فلاسفة الاسلام

الذى يحفظ هذه الصور وبالمصرفة (١) التى تستطيع تغييرها بطرق

(١) استعمل ديكارت كلمة *Fantaisie* وقد رايناها معربة عند ابن سينا في كتاب النجاة ص ٢٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ في قوله « فمن القوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنتاسيا أى الحس المشترك » وهذا غير صحيح وربما نشأ الخطأ من أن محلها في الدماغ واحد فهو عند ديكارت الغدة الصنوبرية ولكنهما مختلفان في الوظيفة ( راجع جليسون التعليق ٤ ص ٤٢٠ ) والحس المشترك في اليونانية هو ( كوينى آيستيسس ) وليس فنتاسيا كما أننا رأينا الكلمة معربة أيضا عند محمد بن أحمد الخوارزمي ويعرفها بقوله « فنتاسيا هى القوة المخيلة من قوة النفس وهى التى يتصور بها المحسوسات في الوهم وان كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة » مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ وهذا كلام ظاهر فيه الخلط . وعلى العموم فالمقصود بالمصرفة القوة التى بها « تركيب المحسوسات بعضها الى بعض وتفصل بعضها من بعض لا على الثبوت الذى وجدناها عليه من خارج ولا مع تصديق بوجود شيء منها أو لاجوده . . . وهذه هى التى اذا استعملها العقل تسمى متفكرة واذا استعملتها قوة حيوانية تسمى متخيلة » ابن سينا الشفاء ص ٢٢٣ طبعة طهران . وهذا ما يتفق مع مراد ديكارت وهو أقرب الى تعريف أرسطو لفنتاسيا في كتابه عن النفس بقوله : « هى حركة للعقل منشؤها الاحساس »

ثم ان ابن سينا قد أضاف الى تلك القوى قوة أخرى يسميها بالوهمية ( راجع تهافت الفلاسفة لابن رشد حيث يقول « . . . ابن سينا وهو يخالف الفلاسفة في أنه يضع في الحيوان قوة غير القوة المتخيلة يسميها وهمية الخ » ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ ) ويقصد بها ابن سينا القوة التى تدرك المعانى غير المحسوسة في المحسوسات الجزئية وتعتبر آخر ادراك المعنى الجزئى المتعلق بالمعنى المحسوس مثل ادراك الشاة المداوة في الذئب : واذن فقوى النفس الحيوانية التى يعبر عنها بالحواس الباطنة هى خمس : الحس المشترك وهو الذى يقبل صور المحسوسات كلها والخيال وهو خزانته أى القوة التى تحفظ تلك الصور والوهم وهو ادراك المعانى غير المحسوسة في المحسوسات مثل ادراك الشاة للمداوة في الذئب ثم الحافظة أو الذاكرة وهى خزانة الوهم ثم المصرفة وهى التى تنصرف في المحسوسات فتؤلف بعضها مع بعض وتفصل بعضها من بعض غير متبعة في ذلك نظام وجودها في الخارج كما تفعل في المعانى وهذه القوة اذا استعملها العقل تسمى مفكرة واذا استعملها الوهم تسمى متخيلة

مختلفة ، وان تؤلف منها صورا جديدة ، وهى بنوزيعها الارواح الحيوانية على هذا الوجه فى العضلات تحرك أعضاء هذا الجسم فى هيئات متباينة كثيرة . وبحسب مناسبات الامور التى تعرض لحواسه والانفعالات الباطنة التى هى فيه على مقدار ما تستطيع أعضاؤها أن تتحرك دون أن تفقدها الارادة (١) ولن يبدو ذلك غريبا قط للذين هم بسبب معرفتهم أن كثيرا من المتحركات بذاتها والآلات المتحركة تستطيع صناعة الناس عملها دون أن يستعمل (٥٦) فى انشائها الا قطع قليلة اذا قورنت بالكثرة العظيمة من العظام والعضلات والأعصاب والشرابين والاوردة ، ومن كل الأجزاء الأخرى الموجودة فى جسم كل حيوان ، سيعتبرون هذا الجسم كآله لما كانت مصنوعة بأيدي الله ، فهى الى حد يجعل عن المشابهة خير نظاما ، ولها من ذاتها حركات أدعى للاعجاب من أى آلة يقدر الناس على اختراعها .

وقفت هنا خاصة لكى أبين أنه اذا وجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أى حيوان آخر غير ناطق فانه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هذه الحيوانات فى كل شئ فى حين أنه لو أن منها ماله شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا مايمكن تقليده امكانا خلقيا (٢) ، لكان لنا دائما طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة . أولى هاتين الوسيلتين هى أن هذه الآلات لن تقدر مطلقا على أن تستعمل الكلمات أو أى اشارات أخرى تؤلفها كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا فقد يستطيع أن يتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمات بل وان تنطق ببعضها

---

(١) لأن الوظائف التى سبق ذكرها كلها حيوانية وهى ليست فى حاجة الى تدخل العقل بواسطة الارادة  
(٢) أى كافيا لسد حاجات الحياة العملية (انظر ص ٦٩) وهذا بالنسبة للانسان هو الامكان المادى

بمناسبة أعمال بدنية تسبب تغييرا في أعضائها : كأن تلمس في بعض المواضع فتسأل عما يراد أن يقال لها ، وتلمس في موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وما شابه ذلك ، ولكن لا يستطيع أن يتصور أنها تنوع تأليف الألفاظ لتجيب أجوبة مطابقة لكل ما يقال في حضرتها كما يستطيع أن يفعل أغبي الناس . وأما (٥٧) الثانية فهي انه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أى واحد منا بل قد تعمل خيرا مما يعمل فانها لا بد تفشل في أعمال أخرى منها يتبين أنها لا تعمل عن علم ، ولكن بواسطة وضع أعضائها فانه على حين أن العقل هو آلة عامة يمكن استخدامها في كل أنواع الطوارئ فان هذه الاعضاء في حاجة الى وضع خاص لكل عمل على حدة ، ومن ثم ينتج أنه من المستحيل أخلاقيا (١) ان يكون في آلة من تنوع الاعضاء ما يكفي لجعلها تعمل في كل ظروف الحياة على نهج ما يبعثنا عقلنا للعمل .

وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء ان يعرف الفرق بين الانسان والحيوان . لانه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الاغبياء والبلداء ، حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لا يقدر على تأليف كلمات مختلفة ، وان يركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك . وهذا لا ينشأ عن نقص في الاعضاء ، لان المرء يرى العققق والبيغاء تستطيع ان تنطق ببعض الكلمات مثلنا ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تنطق مثلنا ، أى نطقا يشهد بأنها تعي ما تقول ، فى حين أن الناس الذين ولدوا صما وبكما ، فحرموا الاعضاء التى يستخدمها غيرهم (٥٨) للكلام مثل حرمان الحيوان أو أشد اعتادوا أن يستنبطوا من تلقاء أنفسهم بعض اشارات يتفاهمون بها مع من يجدون فرصة لتعلم

---

(١) أى عادة وغرضه لحاجة الحياة العملية ( انظر ص ٦٩ )

لغتهم لانهم يعيشون معهم . وهذا لا يشهد بأن للحيوانات من العقل أقل مما للانسان ، بل يشهد بأنه ليس للحيوانات عقل مطلقا . فاننا نشهد أن معرفة الكلام لا تحتاج الا الى شيء من العقل جد قليل ، ولما كان من الملاحظ التباين بين أفراد النوع الواحد من الحيوان ، كما في أفراد الانسان ، وأن البعض أيسر أن يراض من البعض الآخر فانه لا يصدق ان قردا أو ببغاء من أكمل نوعه ، يكافئ في ذلك طفلا من أغبي الاطفال ، أو على الاقل طفلا ذا حج مضطرب ، ولا يكون هذا الا اذا كانت روح الحيوانات من طبيعة مخالفة لطبيعة روحنا كل المخالفة . ولا ينبغي أن يخلط بين الكلام والحركات الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات ويمكن أن تجيد تقليدها الآلات كما تقلدها الحيوانات ، ولا ينبغي أيضا الذهاب مع بعض المتقدمين الى أن الحيوانات تتكلم ، ولو أننا لا نفهم لغتها ، لانه لو كان ذلك حقا لكان في استطاعتها أيضا ما دامت لها أعضاء كثيرة تشابه أعضاءنا ، ان تتفاهم معنا كما تتفاهم مع أمثالها . وكذلك مما يستحق الملاحظة، أنه مع وجود حيوانات كثيرة تظهر من الصناعة في بعض أعمالها أكثر مما تظهر ، فانه يرى مع ذلك أن نفس تلك الحيوانات لا تظهر شيئا من الصناعة في أعمال كثيرة أخرى ! بحيث لا يدل ما عمله أحسن منا على أن لها نفسا ، فانه على هذا الاعتبار (٥٩) كان ينبغي أن يكون لها منها أكثر مما يكون لأي واحد منا فتعمل في كل الأمور أحسن مما نعمل ولكن هذا يدل على أنه ليس لها نفس وأن الطبيعة هي التي تعمل فيها تبعا لوضع أعضائها كما يرى في الساعة التي لا تتركب الا من عجل ولولب فانها تستطيع أن تحصى الساعات وتقيس الزمان بأكثر منا دقة مع كل ما لنا من تيقظ وفطنة .

وصفت النفس الناطقة بعد ذلك وبينت أنها لا يمكن البتة ان تكون منتزعة من قوة المادة كما تنتزع الاشياء الاخرى التي تكلمت عنها ولكن يجب حتما ان تكون مخلوقة . وبينت كيف انه

لا يكفي أن تكون ساكنة في الجسم الانساني كما يسكن البحار في سفينته (١) . لا يكفي هذا الا في ان يمثل تحريكها لعضائه بل ان هناك حاجة الى ان تكون متصلة بالبدن ومتحدة معه على وجه أوثق حتى يكون لها عدا ذلك عواطف وشهوات ماثلة لما عندنا منها بذلك يتألف انسان حقيقي . ثم اننى أطنبت هنا قليلا في الكلام على مسألة الروح لانها من أهم المسائل ؛ اذ ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله ، وهو خطأ أعتقد أننى دحضته دحضا كافيا فيما سبق ، ليس خطأ يبعد النفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المستقيم ، كتوهم أن روح الحيوانات هي من نفس طبيعة روحنا ، ويتبع هذا التوهم ، أنه ليس يوجد ما نخشاه أو نأمله ، بعد هذه الحياة ، كشأن الذباب والنمل في حين أنه من علم مبلغ اختلافهما ، كان أحسن فهما للحجج التي تثبت أن روحنا هي من طبيعة مستقلة كل الاستقلال عن الجسم، وأنها تبعا لهذا ليست عرضة للموت معه، (٦٠) ثم انه على مقدار كوننا لا نرى غير الموت علة لفنائها ، فانه يحملنا ذلك بالطبع على أن نحكم من هذا بأنها خالدة .

---

(١) هذا التشبيه من أرسطو هيلان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٧٧ ويقول ديكارت ما يوضح ذلك في التأملات السادسة ١٢ « اننى لست مقيما في جسمي كما يقيم البحار في سفينته ، ولكنني فوق ذلك متصل به اتصالا وثيقا ومختلط معه بحيث أؤلف معه وحدة منفردة . لانه اذا لم يكن ذلك ، فما كنت لأشعر بألم اذا أصيب بدنى بجرح ، وأنا الذي ليس الا شيئا مفكرا ، ولكنى أدرك ذلك الجرح بالمقل وحده ، كما يدرك البحار بنظرة اى عطب في السفينة »





## القسم السادس

مضت الآن ثلاثة أعوام منذ انتهيت من الرسالة التي تحتوى على كل هذه الاشياء ، وأخذت في مراجعتها ، كى أضعها بين يدي طابع ، عندما علمت أن أشخاصا أجلهم ، ولهم من السلطة على أعمالى ما لا يقل عما لعقل من السلطة على أفكارى ، لم يقرؤا رأيا فى علم الطبيعة ، أذاعه البعض (١) قبل الآن بقليل ، ولا أريد ان أقول اننى كنت على هذا الرأى ، ولكنى أريد ان أقول اننى لم ألاحظ فيه قبل استنكارهم ، ما أستطيع ان أتوهمه مضرا بالدين أو بالدولة ، وبالتالي ، ما كان يمنعنى ان أكتبه لو أن العقل أقنعنى به ، وأن هذا جعلنى أخشى ان يكون بين آرائى ما أخطأت فيه ، رغم ما كان لى من عظيم العناية فى ألا أدخل فى اعتقادى شيئا جديدا ، ما لم تقم له عندى البراهين الوثيقة جدا ، وألا أكتب عنه شيئا يمكن ان ينال أى انسان بأذى : وهذا كان كافيا ليضطررنى الى تغيير ما كنت صممت عليه من نشر هذه البحوث . فانه وان كانت الحجج التي صممت من أجلها العزم أولا قوية جدا ، فان ميلى الذى جعلنى دائما أكره صناعة عمل الكتب ، سرعان ما جعلنى أجده

---

(١) يقصد بالبعض غاليليه وبالأشخاص الذين يجلبهم رجال الدين الذين كانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية . ولقد أذاع غاليليه فى سنة ١٦٣٢ كتابه الذى يقول فيه بدورة الارض فدالته محكمة التفتيش برومة . ولقد اتم ديكارت كتابه العالم Le Monde سنة ١٦٣٣ ولكن علمه بنصيب غاليليه ورغبته فى عدم انارة رجال الدين عليه جعلاه يعدل عن نشر كتابه ( انظر المقدمة )

الكفاية من الحجج الأخرى لاعفائي من ذلك العمل. وكلا النوعين (٦١) من هذه الحجج ذو شأن يجعل لي غرضا بذكرها هنا ، بل وقد يكون للجمهور أيضا فائدة في معرفتها .

ما كنت قط عظيم العناية بالاشياء التي كانت تصدر عن نفسى ، وحين كنت لا أجنى من ثمرات المنهج الذى أستخدمه ، غير اقتناعى فى معضلات من معضلات العلوم النظرية ، أو محاولتى ان أدبر أخلاقى على مقتضى الحجج التى علمنى اياها هذا المنهج (١). لم أكن لأعتقد أننى مضطر الى أن أكتب عنه شيئا ، ذلك بأنه فيما يتعلق بالأخلاق ، فان كل انسان يكتفى بعقله ، بحيث كان يمكن أن يكون مصلحون على عدد الرؤوس ، لو ساغ لغير الذين نصبهم الله حكاما على أمه ، أو للذين أفاض عليهم من البركة والهمة ما يكفى لان يكونوا أنبياء ، أن يتناولوا بالتغيير شيئا من الاخلاق ؛ ومع أن أنظارى كانت ترضينى كثيرا ؛ فأننى كنت أعتقد أن لغيرى أنظارا أيضا قد يكونون بها أشد إعجابا . ولكنى على أثر تحصيلى لبعض المعارف العامة فى علم الطبيعة واختبارى لها فى معضلات مختلفة خاصة ، لاحظت مدى ما تستطيع ان تقود اليه ، ومبلغ اختلافها عن المبادئ التى يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك اعتقدت أننى لا أقدر على ابقائها مخبئة ، دون ان أخل اخلالا كبيرا بالقانون الذى يلزمنا أن نوفر الخير العام لكل الناس على قدر ما فى استطاعتنا لان هذه الانظار فى علم الطبيعة بينت لى امكان الوصول الى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة ، وبدلا من هذه الفلسفة النظرية ، التى تعلم فى المدارس ، فانه يمكن ان نجد عوضا عنها فلسفة عملية ، (٦٢) بها اذا عرفنا ما للنار، والماء، والهواء، والكواكب ، والسموات،

---

(١) تعرضنا لهذه المسألة اى هل الاخلاق المؤتة التى بسطها ديكارت فى القسم الثالث من المقال هى مستمدة من منهجه أم لا وذلك فى التعليق على القسم الثالث وقد أشرنا أيضا الى تلك العبارة ( انظر ص ٣٧ و ٣٨ )

وكل الاجرام الاخرى التى تحيط بنا من قوة وأعمال ، معرفة متميزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة، فاننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة فى كل المنافع التى تصلح لها ، وبذلك نستطيع ان نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة (١) . وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع ما لا يحصى من المصنوعات ، التى تجعل المرء ينعم بدون جهد بثمرات الارض وبكل ما فيها من أسباب الرفه ، بل ولأجل حفظ الصحة أيضا ، التى هى بلا ريب الخير الاول وهى الاصل لما عداها من خيرات هذه الحياة ؛ فان الروح نفسها تتصل اتصالا قويا بالمزاج ، وببنية أعضاء البدن، بحيث أنه اذا كان ممكنا وجود بعض الوسائل التى تجعل الناس عامة أكثر حكمة وحذقا مما هم عليه حتى الآن ، فانى أعتقد أنه يجب البحث عن هذه الوسيلة فى الطب . حقا ان الطب المستعمل الآن يشتمل على قليل من الاشياء التى لها منفعة تذكر ؛ ولكن دون ان أقصد الى تحقيقه، فاننى واثق أنه لا يوجد انسان ، حتى ممن يحترفونه ، لا يعترف بأن كل ما يعرف منه يكاد لا يكون شيئا ، اذا قورن بما يبقى غير معروف وأن من المستطاع التخلص مما لا يحصى من الامراض ، بدنية كانت أو نفسية بل وقد يتخلص أيضا من ضعف الهرم ، (٦٣) اذا عرفت أسبابها معرفة كافية؛ وعرفت كل الادوية التى زودتنا

---

(١) يرى الاستاذ لالاند أن ديكارت يقتبس مثله الأعلى للعلم ، الذى يعبر عنه هنا ، من باكون Bacon . ولقد أورد في مقالاته المشهورة بعض نصوص من باكون ومن ديكارت الحجج التى يراها كافية للتدليل على هذا الرأى ( انظر جلسون التعليق ص ٤٤٦ )

بها الطبيعية (١) . ولما كان من غرضي ان أنفق كل حياتي في البحث عن علم ضروري جدا ، ولما ألفت طريقا يظهر لي أنه باتباعه يجب حنبا ان يوجد هذا العلم ، ما لم يعق دونه اما قصر الحياة ، أو نقص في التجارب ، حكمت أنه ليس من دواء لهذين العائقين . خير من ان أبلغ الجمهور بأمانة كل القدر القليل الذي أتيح لي الاهتمام اليه . وأن أدعو أهل العقول الجيدة لمحاولة التقدم ، باشتراكهم في التجارب التي ينبغي القيام بها كل وفق ميله وعلى قدر استطاعته ، وإن يبلغوا الجمهور أيضا كل الاشياء التي تعلموها حتى يبدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون ، وبذلك نصل أعمار الكثيرين وأعمالهم ، فتتقدم جميعا أكثر مما يستطيع كل فرد مستقلا .

بل قد لاحظت ، فيما يختص بالتجارب أنها كلما تقدمنا في المعرفة كانت ألزم اذ أنه يحسن في المبدأ ألا نستخدم الا ما يقع منها من تلقاء نفسه تحت حواسنا ، وما لانستطيع الجهل به ، مادما نفكر فيه تفكيراً مهما كان قليلا ، بدلا من أن نشغل أنفسنا بالأندر منها والأصعب . والسبب في ذلك أن هذه التجارب النادرة تضلل كثيرا ، عندما لا نكون بعد على علم بعلم أكثرها شيوعا وكذلك فان الظروف التي تتصل بها تكاد تكون دائما من الخصوصية وهي من الدقة بحيث تشق ملاحظتها . ولكن الترتيب الذي اتبعته في هذا

---

(١) كان ديكارت يعتقد أن العلم يستطيع ان يحمي الانسان من الامراض ومن ضعف الشيخوخة ولما مات اعلنت صحيفة انفرس خبر وفاته بهذا التعبير : « مات في السويد احمق كان يقول ان في استطاعته ان يعمر في الحياة ما شاء » الاعمال الكاملة طبعة ادم وتانري ج ١٠ ص ٦٣٠ وروى مؤرخ حياته بآييه عن بعض اصدقاء ديكارت أنه دهش عندما بلغه نعيه اذ انه كان واثقا انه سيعيش على الأقل خمسة قرون ، ما لم يموت غير طبيعي . راجع الاعمال الكاملة ج ١١ ص ٦٧٠ - ٦٧٢

كان كما يلي : أولا ، حاولت أن أجد على العموم المبادئ ، أو العلل الأولى ، لكل ما هو موجود ، أو يمدن أن يوجد في العالم ، من غير (٦٤) أن أعتبر في سبيل هذا الغرض غير الله وحده الذي خلفه ، وبدون أن أستنتجها إلا من بعض بذور الحقيقة التي هي في نفوسنا باصبح (١) . وبعد ذلك ، بحثت في ما هي المعلولات الأولى التي هي الأكثر جريانا في العادة والتي يمكن استنتاجها من هذه العلل : ويبدو لي أنني بهذا ، وجدت سموات ، وكواكب ، وأرضا ، بل ووجدت فوق الأرض ، ماء ، وهواء ، ونارا ، ومعادن ، وبعض أشياء أخرى مشابهة لهذه ، وهي أكثر الأشياء شيوعا وأبسطها ، وعلى ذلك فهي أسهلها أن تعرف . ثم انني لما أردت أن أنحدر إلى الأشياء التي هي أخص ، عرض لي منها كثير متباين ، بحيث لم اعتقد أن في استطاعة العقل الانساني أن يميز بين صور أو أنواع الاجرام التي هي فوق الأرض وما لا يحصى غيرها مما يمكن أن يوجد ، اذا أراد الله ايجادها ووضعها فوق الأرض ، ولا اعتقدت ، كما ينتج عن هذا أننا نستطيع تصريفها في منفعتنا إلا أن يكون بأن نتوصل إلى العلل عن طريق المعلولات ، وأن نستخدم كثيرا من التجارب الخاصة . وبعد ذلك فأنني لما مررت بعقلي على كل الأشياء التي عرضت لحواسي ، فأنني أجروا على القول بأنني لم ألاحظ شيئا منها لم يسهل على تفسيره بالمبادئ التي اهتمت اليها . ولكن يجب أن أعترف أيضا بأن قوة الطبيعة رحبة وواسعة جدا ، وأن هذه المبادئ بسيطة وعامة جدا ، بحيث أكاد لا ألاحظ أي أثر خاص لا أعرف أولا أنه ممكن (٦٥) . استنباطه من هذه المبادئ بكيفيات كثيرة مختلفة ، وأن أكبر معضلة لدى هي في العادة أن أجد من بين هذه الكيفيات الكيفية التي يتصل بها هذا الأثر بهذه المبادئ . لأنني لا أعرف لهذا حلا إلا أن أبحث

(١) أي المبادئ الأولى الموجودة بالفطرة في النفس .

من جديد عن بعض تجارب ، لا تكون نتيجتها ، اذا كان يجب تفسيرها على كيفية من هذه الكيفيات ، كنتيجتها اذا كان يجب تفسيرها على كيفية أخرى .

على أننى الآن بحيث أرى ، كما يبدو لى ، أى طريق يجب علينا سلوكه كى نقوم بأكثر التجارب التى تنفعنا فى هذه الغاية ، ولكننى أرى أيضا أنها من العظمة ومن كثرة العدد ، بحيث لا تبلغ كفايتها كلها يدى ولا رزقى ، ولو أن لى ضعفه ألف مرة ، فعلى قدر ما سيكون لى منذ الآن من اليسر لكى أحقق منها كثيرا أو قليلا ، سأقدم كذلك كثيرا أو قليلا فى معرفة الطبيعة . وهذا ما كنت آمل أن أوضحه بالرسالة التى كتبتها ، وأن أبين فيها بياناجليا كثير الفائدة التى يستطيع الجمهور أن ينالها من ذلك ، وأن أطلب الى كل الذين يرغبون على العموم فى خير الناس ، أى كل الذين هم أهل الفضيلة فى الحقيقة ، لا بالمظهر الخادع ، ولا بمجرد القول ، أن يبلغونى التجارب التى عملوها ، وأن يعينونى فى التجارب التى بقى استيفاؤها .

ولكن عرض لى منذ ذلك الحين ، حجاج أخرى جعلتنى أغير رأيى ، وأن أفكر فى أنه يلزمنى فى الحقيقة أن أستمر فى كتابة كل الاشياء التى أحكم بأن لها بعض الأهمية ، على مقدار ما تكشف لى عن الحقيقة ، وأن أعنى بها كعنايتى لو أننى أريد طبعها . وذلك لى تكون لى (٦٦) فرصة أكبر لا جادة تمحيصها ، كما أننا ندقق بلا شك فيما نعتقد أنه معروض لانظار الكثيرين أكثر مما نفعل فيما لانعمله الا لأنفسنا ، وكثيرا ما كانت الاشياء التى بدت لى حقيقية عندما بدأت فى تصورها ، تبدو لى باطلة عندما كنت أريد وضعها على الورق ، ولكيلا أضيع أى فرصة لافادة الجمهور ، اذا كنت قادرا على ذلك ، واذا كان لكتاباتى شىء من القيمة ، فان الذين سوف يحصلون عليها بعد مماتى يقدر أن يستخدموها استخداما مناسبا ، ولكن لم يكن واجبا على

أن أقر نشرها في حياتي ، حتى لا تكون المعارضات والمجادلات التي ربما تكون كتاباتي عرضة لها ، أو الشهرة مهما تكن ، التي تكسبني أياها ، لتتهيم لي أي فرصة لتضييع الوقت الذي أنا عازم على انفاقه في تعليم نفسي لأنه وإن كان حقا أن كل انسان مضطر أن يزيد في خير الآخرين على قدر ما يستطيع ، وأن كون المرء غير مفيد لأحد هو نفس كونه لا يساوي شيئا ، ومع ذلك فانه حق أيضا أن عناياتنا يجب أن تتجاوز حدود الوقت الحاضر ، وأنه من الخير أن نهمل الأشياء التي ربما جاءت ببعض الفائدة للأحياء ، اذا كان هذا على نية أن نعمل أشياء أخرى تأتي بفائدة أكبر لأحفادنا . كما أني في الحقيقة أريد أن يكون معلوما أن المقدار القليل الذي عرفته حتى الآن يكاد لا يكون شيئا بموازنته مع الذي أجهله ، واني لا أياس من القدرة على معرفته . لأنه يكاد يكون سواء مثل الذين يكشفون قليلا فقليلا (٦٧) عن الحقيقة في العلوم ، كمثل الذين عندما يبدأون في أن يصيروا أغنياء ، يكون عناؤهم في تحصيل المقادير الكبيرة أقل من عنايتهم من قبل وهم فقراء في تحصيل ما هو أقل بكثير . وقد استطاع مقارنتهم برؤساء الجيش تزداد قواهم على قدر انتصاراتهم ، والذين يحتاجون الى السياسة لكي يحفظوا أنفسهم بعد خسارة معركة أكثر من حاجتهم اليها بعد كسبها ليستولوا على المدن والأقاليم . لأنه في الحقيقة أن يخوض المرء غمار معركة مثل أن يحاول التغلب على كل المعضلات والاختطاء التي تعوقنا عن الوصول الى معرفة الحقيقة ، وأن خسران معركة مثل قبول رأى فاسد يختص بمسألة عامة ومهمة الى حد ما ، ويجب بعد ذلك من الخلق للعودة الى نفس الحالة التي كان المرء فيها من قبل ، أكثر مما يجب لتحصيل تقسّم عظيم ، اذا كان للمرء مبادئ وثيقة . أما أنا ، فاذا كنت قد وجدت فيما سبق بعض الحقائق في العلوم ( وآمل أن الأشياء التي يحتوى عليها هذا المجلد تدعو الى الحكم بانني وجدت بعضها منها ) فأنني أقدر على أن أقول

انها ليست الا توابع ولواحق خمس أو ست معضلات رئيسية تخطيتها ، وهي ما أعتبرها كمعارك كان الحظ فيها الى جانبي . بل لن أخشى أن أقول ، انى أرى أننى لم أعد فى حاجة الى تحصيل غير اثنتين أو ثلاث أخرى مثلها للوصول الى كل غايتى ، ولست من التقدم فى السن بحيث لا يكون لى وفقا لسير الطبيعة العادى ، متسع من الوقت لتحقيق هذه الغاية . ولكننى أعتقد أنى مضطر الى أن (٦٨) أقتصد فيما بقى لى من الوقت على مقدار قوة أملى فى القدرة على حسن استخدامه ، وستكون لى بغير شك فرص كثيرة لتضيقه ، اذا نشرت أصول مذهبي فى الطبيعيات (١) . لانها وان كانت كلها تقريبا من الوضوح بحيث لا يلزم لتصديقها الا الاصغاء اليها ، وبحيث انه ليس منها ما أعتقد أنه يعجزنى أن أقيم عليه البراهين ، وعلى كل حال فلأنه من المستحيل أن تتفق مع كل الآراء المختلفة التى يقول بها غيرى فاننى أتوقع أنى سأحيد عنها كثيرا لما ستولده من معارضات .

ومن المستطاع أن يقال ان هذه المعارضات تكون نافعة لانها تعرفنى اخطائى ، ولانها تزيد فى فهم الآخرين لما قد يكون فى مبادئ من صواب وكما أن الكثيرين يستطيعون أن يبصروا أكثر مما يبصر انسان واحد ، فان الذين بدعوا منذ الآن فى الاستعانة بأصول طبيعياتى ، سيعينوننى أيضا باستكشافاتهم . ولكن مع اقرارى بأننى جد معرض للخطأ ، واننى أكاد أتمسك دائما بالافكار الاولى التى ترد على ، فان التجربة التى أحصل عليها من الاعتراضات التى يمكن أن توجه الى تمنعنى ان أمل فى منفعة منها . لاننى كثيرا ما جربت من قبل الاحكام : سواء كانت صادرة عمن كنت أعتبرهم

---

(١) اى بالاشتغال فى الردود على اعتراضات العلماء والانتباه الى اعمال رجال الدين وكيدهم ، لانهم كانوا يقاومون كل مايعارض طبيعيات ارسطو .



أصدقاء لى ، أو صادرة عن آخرين كنت أعشق أننى لست لهم  
 لا بالصدديق ولا بالعدو ، بل ومن بعض الذين عرفت أن خبتهم  
 وحسدهم يجعلانهم يكشفون ما يستتر الحب عن أصدقائى ، ولكنه ندر  
 أن اعترض على بشىء لم أتوقعه البتة ما لم يكن هذا الشىء بعيدا (٦٩)  
 جدا عن موضوعى ، بحيث اننى لم أكد قط أجد منتقدا لآرائى ،  
 ولم يبد لى أنه اما أقل تدقيقا أو أقل نصفة منى . وكذلك لم ألاحظ  
 أبدا أنه بواسطة المجادلات التى تثار فى المدارس ، قد استكشفت  
 حقيقة كانت مجهولة من قبل ، لأنه بينما يحاول كل أن ينتصر ،  
 يجتهد فى تعزيز المحتمل أكثر من اجتهاده فى وزن الحجج من كل  
 الجهات ، وان الذين ظلوا زمنا طويلا محامين بارعين لا يكونون بعد  
 هذا لذلك السبب ، خير القضاة .

أما المنفعة التى سينالها الآخرون من نشر أفكارى فانها لن  
 تكون كبيرة جدا مادمت لم أتقدم بها تقدما كبيرا يجعلها غير محتاجة  
 الى اضافة كثير من الاشياء اليها قبل تطبيقها على العمل . وأعتقد  
 أننى أقدر على ان أقول دون غرور انه اذا كان يوجد شخص يقدر على  
 ذلك ، فاننى أكون حتما أولى بذلك من كل أحد غيرى ، وليس هذا  
 لأنه لايمكن أن يكون فى العالم عقول كثيرة أفضل من عقلى الى الحد  
 الذى لايجارى ، ولكن لانه ليس من المستطاع أن يجيد المرء تصور  
 شىء وأن يجعله ملكا له ، اذا تعلمه من غيره كما لو استكشفه بنفسه  
 وذلك حقيقى جدا فى هذا الموضوع ، بحيث انى كثيرا ماشرحت  
 بعض آرائى لأشخاص أولى عقول جيدة ، وبينما كنت أتحدث اليهم  
 كان يظهر لى أنهم يفهمونها فهما متميزا ، ومع هذا فانهم عندما  
 كانوا بعيدونها ، كنت ألاحظ أنهم كانوا يكادون دائما يغيرونها  
 بحيث لم أكن لأستطيع أن أعترف بأنها آرائى . وبهذه المناسبة فانه  
 يسرنى كثيرا ان أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ما سيقال لهم انه صادر  
 عنى ، اذا لم أكن أنا قد أدعته بنفسى . وما كنت لأعجب البتة من

هذا الشطط الذى يعزى الى كل هؤلاء الفلاسفة المتقدمين ، الذين ليست لدينا كتاباتهم (١) ، ولست أحكم من أجل هذا أن أفكارهم كانت مجانية للعقل ، مع العلم بأنهم كانوا من خيرة العقلاء فى أزمنتهم ، ولكننى أحكم فقط بأن أفكارهم ساءت روابتها . كما أننا نرى أيضا أنه لم يكده يحصل أن أحد أتباعهم قد فاقهم ، وانى لوائق أن أكثر منابغى أرسطو حماسه الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ما كان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ما علمه . انهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعدا لأن يرتفع الى ما فوق الأشجار التى تسند ، بل وكثيرا ما يهبط بعد ان يبلغ ذروتها ، لانه يبدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أى انهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل ، هم لعدم اقتناعهم بمعرفة كل ما هو مشروح بطريقة مفهومة عند المؤلف الذى يقرءونه يريدون فوق ذلك أن يجدوا لديه حلا لمعضلات كثيرة لايقول فيها شيئا ، وربما لم يفكر قط فيها . ومع ذلك فان طريقتهم فى التفلسف موافقة جدا لأولى العقول الضعيفة ، لان غموض التميزات والمبادئ التى يستعينون بها سبب فى أنهم يستطيعون الكلام فى كل الأشياء بجرأة كأنهم يعرفونها ، وان يؤيدوا كل ما يقولون فيها (٧١) ضد أشد الناس تدقيقا وأكثرهم حذقا دون ان تكون للمرء وسيلة لاقتناعهم . وهم فى هذا يظهر لى كمثل أعمى ، يريد ان يشاجر بصيرا دون أن يكون مغبونا ، فيصل به الى قاع كهف شديد الظلمة وأستطيع أن أقول ان هؤلاء مصلحة فى ان أكف عن نشر مبادئ الفلسفة التى آخذ بها ، لانها لما كانت على ما هى عليه من قبه

---

(١) يقعد بعض الفلاسفة السابقين كسقراط لاسيما ديموقريطس ( انظر جلوسن التعليق ص ٤٦٢ ) .

البساطة والوضوح فاننى أكاد أكون لو أنى نشرتها كما لو أننى فتحت بعض المنافذ وجعلت النور يدخل الى هذا الكهف حيث هبطوا للثشاجر . لكن خير الناس عقولا أنفسهم ليست لهم فرصة ليستموا معرفة هذه المبادئ ، لأنهم اذا كانوا يريدون معرفة الكلام فى كل شىء وأن يشتهروا بأنهم علماء ، فأيسر لهم أن يدركوا هذا بأن يرضوا بالمحتمل الذى يمكن ان يوجد بدون عناء فى كل أنواع المسائل من ان يبحثوا عن الحقيقة التى لا تظهر الا قليلا قليلا فى بعض المسائل ، واذا عرض القول فى مسائل أخرى فهى تجبر المرء على ان يعترف صراحة أنه يجهلها . أما اذا كانوا يؤثرون معرفة قليل من الحقائق على غرور التظاهر بعدم جهل شىء ما ، لان هذه المعرفة أفضل كثيرا بلا ريب ، واذا كانوا يريدون السعى وراء مطلب شبيه بمطلبى ، فانهم ليسوا فى حاجة لاجل هذا الى ان أقول لهم أكثر مما قلت فى هذا المقال . لانه اذا كانوا أهلا لان يتقدموا أكثر مما تقدمت فانهم يكونون بالأولى أهلا لان يستكشفوا بأنفسهم كل ما أعتقد أننى استكشفته . ولما كنت لم أدرس شيئا قط الا بترتيب نانه من المؤكد أن ما بقى على استكشافه هو فى نفسه أصعب وأخفى (٧٢) من الذى استطعت قبل الآن ان أصل اليه ، ويكون سرورهم بتعلمه منى أقل بكثير من سرورهم بتعلمه بأنفسهم ، وعدا هذا فان ما سيعتادونه ببحثهم أولا عن الامور السهلة ثم تجاوزهم اياها فليلا قليلا على قدر الى أمور غيرها أصعب منها ، سيكون لهم أنفع من كل ما تستطيعه تعليماتى . كذلك ما يختص بى ، فاننى مقتنع بأننى لو كنت علمت منذ صباى كل الحقائق التى بحثت عن براهينها منذ ذلك الحين ، ولو كنت لم أكابد أى عناء فى تعلمها لكنت ربما لم أعلم قط شيئا غيرها . وعلى الاقل ما كان يكون لى ما أعتقد من الاعتياد والسهولة اللتين أعتقد أنهما لى فى استكشاف الجديد من الحقائق دائما على قدر اجتهدى فى البحث عنها . وفى كلمة واحدة

إذا كان في العالم صنيع لا يمكن أن يحسن انجازها الا الذي بداء بنفسه ، فذلك هو الصنيع الذي أعالجه •

وحقيقة ، فانه فيما يختص بالتجارب التي تنفع في ذلك ، فإن رجلا واحدا لا يمكن أن يكفي للقيام بها جميعا ، ولكنه لا يستطيع أيضا أن يستخدم في ذلك غير يديه استخداما مفيدا ، اللهم الا أن تكون أيدي الصناع ، أو مثلهم من الناس ممن يستطيع أن يدفع لهم أجرا ، والذين يبعثهم الأمل في الكسب ، وهو وسيلة فعالة جدا ، الى أن يحكموا صنع كل ما يأمرهم بصنعه من الأشياء • فإن المتطوعين ، الذين ربما ندبوا أنفسهم لمعاونته ، تطلعا ، أو رغبة في المعرفة ، فعدا أن لهم في العادة من المواعيد أكثر مما لهم من الاعمال وانهم لا يعملون الا خططا جميلة لا ينجح واحد منها قط، فانهم يرغبون حتما في أن يكافأوا بأن توضح لهم بعض المعضلات أو على (٧٣) الأقل بثناء ومسامرات غير مجدية ، وكل وقت يصرفه في هذا ، وإن قل ، فهو مضيع • وأما التجارب التي قام بها آخرون من قبل حتى لو أنهم أرادوا ابلاغها اليه ، وهم لا يبلغونه قط ما يدعونه أسراراً ، فأكثر هذه التجارب ، يتألف من ظروف كثيرة ، أو من أجزاء نافلة ، بحيث يتعسر عليه أن يستخلص منها الحقيقة ، وفوق ذلك فانه يكاد يجدها كلها سيئة الشرح جدا ، بل قد تكون فاسدة جدا ، لأن الذين قاموا بها تعلموا أن يجعلوها لها مظهر اتفاق مع مبادئهم ، فلو أن فيها بعض ما ينفعه ، ما كافأ الوقت الذي ينبغي انفاقه في اختياره • وعلى ذلك فانه اذا كان في العالم شخص ، نعلم يقينا أنه قادر على استكشاف أعظم الاشياء ، وأكثر ما يمكن أن يكون نافعا للناس ، وأنه ، من أجل هذا ، يحاول كل الناس ، بكل الوسائل ، أن يعينوه لكي يبلغ بمطالبه غاية النجاح ، فانني لا أرى أنهم يقدرّون على شيء ينفعه ، اللهم الا أن يمدوه بنفقات التجارب التي يحتاج اليها ، ثم بعد ذلك ، أن يحولوا دون وقته أن يذهب

به تدخل فضولى ، ولكنى عدا أننى لا أزهى بنفسى الى حد أن أرغب فى أن أعد بأمر يتجاوز المألوف ، ولا أن أتسبّع بأفكار خادعة ، الى حد أن أتخيل أن الجمهور يجب أن يهتم بخططى كثيرا ، فان نفسى (٧٤) ليست أيضا من الضعة بحيث أرضى بأن أقبل من أى انسان مهما كان أى نعمة ، يمكن أن يظن أننى لم أكن أهلا لها .

كل هذه الاعتبارات معا ، كانت سببا منذ ثلاث سنين فى أننى لم أرد أن أذيع الرسالة التى كانت بين يدى ، بل وأن أصمم على ألا أظهر طول حياتى ، غيرها مما يكون عاما أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتى ولكن عرض منذ هذا الحين سببان آخران،اضطرابى الى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة (١) ، وأن أذيع بين الناس بعض بيان لما عملته وما أنويه . أما السبب الاول فهو أننى اذا أغفلت هذا ، فان الكثيرين الذين علموا بعزمى من قبل على نشر بعض الكتابات ، ربما تخيلوا أن الاسباب التى بعثتنى الى أن أعدل عن عزمى ترجع الى عيب فى أكثر مما فى الواقع لأنه ولو أننى لا أغلو فى حب المجد ، بل واذا جاز لى القول ، فاننى أكرهه مادام حكمى أنه يجافى الراحة التى أقدرها فوق كل الاشياء ، فاننى لم أحاول مع ذلك أن أخفى أعمالى كما تخفى الجرائم ، ولم أستتعن بكثير من الحيلة كى أكون غير معروف ، وذلك لاننى كنت أعتقد أننى بهذا أسىء الى نفسى كما أن ذلك يسبب لى نوعا من الاضطراب يجافى أيضا ما أنشده من الراحة الكاملة للنفس . ولانه ، لما كنت كذلك غير مهتم بأن أكون مشهورا أو غير مشهور ، ولم أقدر على أن أتحامى حصولى على بعض ضروب الشهرة ، رأيت أنه يجب على أن أعمل مافى وسعى لاتحامى على الأقل أن تكون لى شهرة سيئة . والسبب

---

(١) يقصد رسائله الثلاث انكسار الاسعة وعلم الانواء والهندسة التى

ظهرت جميعا مع المقال عن المنهج سنة ١٦٣٧ .

الشراني الذي حملني على كتابة هذا ، هو أنني لما رأيت في كل يوم ترايد التعويق الذي يصيب خطتي في تعليم نفسي ، وذلك بسبب حاجتي الى تجارب لاتحصى ، يستحيل أن أنجزها دون معاونة الغير ، ومع أنني لا أعتز بنفسى الى حد أن آمل أن تأخذ الدولة بنفسط وافر في مشاغلي ، فأننى على كل حال لأرغب في أن أقصر في حق نفسي الى حد أن أبرر لمن يعيشون بعدى أن يعيبنى يوما ما بأننى كنت أستطيع أن أترك لهم أشياء كثيرة خيرا مما فعلت ، هذا اذا لم أكن قد أفرطت في اهمال تفهيمهم ما الذى يستطيعون به أن يشاركوا في تحقيق خططى .

وقد رأيت أنه كان هينا على أن أختار بعض المواد ، التى وان كانت ليست موضوع مجادلات كثيرة ، ولا تجربنى على أن أفشى من مبادئى فوق ما أريد ، فانها لا تضعف عن أن تبين بوضوح كفا ما أقدر عليه أو ما لا أقدر عليه فى العلوم . ولا أستطيع أن أقول اننى نجحت فى ذلك ، وما أريد أن أتنبأ بأحكام أى انسان ، عندما أتحدث بنفسى عن كتاباتى ، ولكن يسرنى كثيرا أن تمتحن ، ولكى يتيسر لذلك أكثر ما يمكن من الفرص أبتهل الى من قد يكون لهم عليها اعتراض أن يكلفوا أنفسهم مشقة ارسال اعتراضاتهم الى وراقى (١) ، وعندما يعلننى بذلك ، فأنى أجتهد فى أن أقرن الاعتراض بردى عليه فى الوقت عينه ، وبهذه الطريقة يرى القراء هذا وذاك معا ، فيكون أسهل لهم أن يحكموا بما هو أحق . فأننى لا أعد بأن أكتب قط ردودا مطولة ، ولكننى أقصر على أن أقصر (٧٦) بأخطائى بصراحة كثيرة، اذا عرفتها، أو أن أقول فى بساطة اذا لم أقدر على ادراكها ، ما أعتقد أن الدفاع عما كتبه يحتاج اليه ،

---

(١) الوراق هو صاحب المكتبة وناشر الكتب .

دون أن أضيف الى ذلك تفسير أى مسألة جديدة ، حتى لا أنتقل الى غير نهاية من واحدة الى أخرى .

واذا كانت بعض المسائل ، التي تكلمت عنها فى بدء علم انكسار الأشعة (١) وعلم الانواء تصادم فى بادئ الامر ، وذلك لاننى أسميها فروضا ، ولانه يبدو أننى لا أعنى باثباتها ، فليكن للقارئ صبر على استيفاء ما كتبته بانتباه ، وآمل أنه يجسد فيه رضاه ، لانه يبدو لى أن الحجج تتوالى فيها كأن الاواخر تبرهن عليها الاوائل ، التي هي عللها ، وكأن هذه الاوائل أيضا تبرهن عليها الاواخر ، التي هي معلولاتها (٢) . ولا ينبغى أن يتوهم أننى أقع

---

(١) يعرفه مرسن فى كتابه الحقيقة فى العلوم بأنه العلم «الذى يعرفنا كيف تبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءا منها فى الماء والآخر فى الهواء» ادام حياة ديكارت ١٨ (١٨٥) .

ويدخل فيما يسميه العرب بعلم المناظر وهو ما يسميه الاربون Optique وترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون فى مقدمته بقوله «هو علم تتبين به اسباب الغلط فى الادراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ، ثم يقع الغلط كثيرا فى رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام لشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطأ مستقيما والشعلة دائرة وأمثال ذلك الخ» وابن خلدون يعتبره من العلوم الهندسية ولكن ديكارت يراه من العلوم الطبيعية الممزوجة بالرياضة .

(٢) قال هملان : ان كون الله مصدرا للخير هو وجه للتعبير عن عقلية الوجود ، واذا كنا نقدر أن نقيم فوق مبدا وضوح المعانى ونميزها \* نظرية للوجود ، أى اذا كان المذهب العقلى يؤدى الى نظرية للوجود كافية ، فنحن اذا عدنا من الوجود كما هو محدد ، نستنبط اذن من طبيعته ان الحقيقة تتمثل للعقل بواسطة وضوح المعانى وتميزها . وبعبارة أخرى من المستطاع ان يقال ان الله يكشف لنا الحقائق بواسطة المعانى الواضحة التمييزية ، ثم يقول =

---

\* أى قول ديكارت بأن كل مانتصوره بوضوح وتميز حقيقى ومعنى حقيقى عنده هو معنى واقى .

هنا في الخطأ الذي يسميه المناطقة بالدور (١) ، لأنه لما كانت التجربة تجعل أكثر هذه المعلولات مؤكدة جدا ، فان العلل التي استنبطت منها هذه المعلولات لا تصلح لأن تثبت وجودها بمقدار ما تصلح لأن تفسرها ، ولكن الامر على العكس فان العلل تثبت المعلولات . وأنا لم أدعها فروضا ، الا لكي يعلم أنني أعتقد بالقدرة على استنبطها من هذه الحقائق الاولى التي شرحتها من قبل ولكني أردت عن قصد ألا أفعل هذا كي أمنع بعض العقول التي تشوهم أنها سرعان ما تعرف في يوم واحد كل ما فكر فيه الغير في عشرين عاما اذا قال لهم عنه كلمتين أو ثلاثا والذين يكونون أكثر تعرضا للخطأ ، وأقل قدرة على ادراك الحقيقة كلما كانوا أكثر تدقيقا وأكثر نشاطا من أن يتخذوا من ذلك فرصة ليقوموا فلسفة متطرفة فوق ما يعتقدونه مبادئ ، وأن ينسب الى ما فيها من خطأ (٢) . لأنه فيما يختص بالآراء التي هي كلها آرائي فأنني لا أدافع عنها

---

«العلاقة بين مبدأ المعاني الواضحة المتميزة والقول في الله ، او في الوجود العقلي كما يبدو لنا ، تكاد تكون كما يظهر ، نفس العلاقة التي يسلم بها ديكارت بين الوقائع والفروض في الطبيعيات ، الاوائل هي برهان الاواخر والاواخر هي برهان الاوائل ، دون أن يكون في هذا أقل دور » مذهب ديكارت ٣ ص ١٤٢ وقارن هذا بما كتبه في المقدمة عن نظرية المعرفة عند ديكارت ولاسيما ص (مط) و (ن) .

(١) الدور خطأ في المنطق ينحصر في البرهان على شيء بشيء آخر يتوقف على الاول .

(٢) ص ٢٢٢ ديكارت ومع هذا ، فان الاستاذ ليفي برون I.Lévy-Bruhl يقول عند كنهه عن تطرف بعض الفلاسفة في القرن الثامن عشر وعوائلهم للدين والنظم الاجتماعية القائمة «ان مبادئ ديكارت مشوثة ، الى حد كبير ، عن تكوين فلسفة شديدة الاختلاف مع فلسفة ديكارت » النزعات السعامة لبيل وفنتنل Les tendances générales de Bayle et de Fontenelle في مجلة تاريخ الفلسفة Rev. d'histoire de la philosophie السنة الاولى (١٩٢٧) ص ٥٠ .



باعتبارها جديدة مادام اذا قدر المرء حججها فأننى واثق أنه يجدها بسيطة جدا ومطابقة للعقل العادى بحيث تظهر أقل شذوذا وغرابة من كل ما سواها مما يمكن أن يكون فى نفس الموضوعات ، وأنا لا أزهى أيضا لأننى المبتدع الاول لآى رأى منها ولكن لأننى لم أقبلها قط لان آخرين قالوا بها ، ولا لانهم لم يقولوا بها ، ولكننى لم أقبلها الا لأن العقل أقنعنى بها .

وإذا كن الصناع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلا الاختراع الذى شرحته فى علم انكسار الاشعة ، فأننى لا أعتقد أنه يمكن القول من أجل هذا بأنه ردىء : لانه مادام الحنق والمران لازمين لصنع الآلات التى وصفتها وضبطها دون أن ينقص هذا أى شرط ، فان دهشتى اذا نجحوا لأول وهلة لن تكون أقل من دهشتى لو استطاع انسان فى يوم واحد أن يتعلم العزف بالعود ببراعة وذلك لانه أعطى لوحا جيدا للرموز الموسيقية . وإذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التى هى لغة بلادى بدلا من أن أكتب باللغة اللاتينية التى هى لغة أساتذتى فذلك لأننى آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون الا بعقلهم الفطرى الخالص سوف يكونون أحسن حكما فى آرائى من أولئك الذين لا يؤمنون الا بالكتب القديمة . وأما من يجمعون بين (٧٨) العقل والتحصيل وهم وحدهم من أقننى أن يكونوا قضاتى فأننى على ثقة من أنهم لن يكونوا من التحزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججى لأننى أشرحها بلسان عامى .

بقى أننى لا أريد أن أتحدث هنا حديثا خاصا عن التقدم الذى آمل ان أتقدمه فى العلوم فى المستقبل ، ولا أريد أن آخذ على نفسى أمام الناس عهدا لا أثق من انجازه ، ولكننى أقتصر على القول بأننى صممت على ألا أنفق بقية حياتى فى غير الاجتهاد فى تحصيل شئ من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن أن تستخلص منه للطب قواعد أوثق مما وجد حتى الآن ، وان ميلى ليبعدنى بعدا كبيرا عن كل

أنواع المقاصد الأخرى لا سيما تلك التي لا تكون مفيدة للبعض إلا إذا أضرت بآخرين (١) . فلو اضطرتني بعض الظروف إلى أن أعالجها فما كنت لأعتقد أنني أكون أهلاً للنجاح فيها . واني لأعلن هذا وأعلم خير العلم أن هذا الاعلان لا يستطيع أن يجعلني مبعجلاً في العالم . ولكن ليست لي أي رغبة في هذا أيضاً ، وسأكون دائماً معترفاً بالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتي من غير عائق أكثر من اعترافي بالجميل لمن قد يهتدون إلى أكبر ما في الأرض من مناصب التشريف .

## التهني

---

(١) ربما يريد ديكارت أن يقول هنا انه لا يقبل أن يجيب دعوة أحد الأمراء كي يطبق في مصلحته علومه في حيل الحروب . وهذا تفسير لاستاذنا مسيو لالاند شافهنا به سنة ١٩٢٧ عند قراءته للمقال في الجامعة المصرية ووافق على اثباته هنا اثناء طبع هذا الكتاب .

# الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم :	
١ - الفلسفة القديمة	٣
٢ - فلسفة العصور الوسطى	١٠
٣ - الفلسفة الحديثة	١٣
٤ - فلسفة ديكرت ومنهجه	١٦
٥ - مقال ديكرت عن المنهج	٣١
٦ - المقال عن المنهج فى ترجمته العربية	٤٧
مدخل :	
١ - حياة ديكرت	٥٢
٢ - شخصية ديكرت	٧٢
٣ - مابعد الطبيعة أو نظرية المعرفة - المبدأ الأول	٨٠
٤ - التمييز بين النفس والبدن	٨٤
٥ - اثبات وجود الله	٨٨
٦ - منهج ديكرت	٩٢
٧ - الأخلاق	٩٩
المقال عن المنهج	١٠٢
مقال عن المنهج : لأحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم	
مقدمة	١٠٨

[illegible]

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
بالمقاهرة  
فرع الساحل



دار الكتاب العربي للطباعة والنشر  
بالمطبعة  
١٩٦٨

Bibliotheca Alexandrina



0389789

الثمان ٢٥ قرشا